50

أدهم شرقاوي

" قس بن ساعدة "

خمسون قانوناً للحُبِّ

Telegram:@mbooks90

kalemat

خَمسُون قانُوناً للحُبّ

أدهم شرقاوي

« قِس بن سَاعِدة »

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

الكويت - المرقاب - ق1 - ش عبدالله المبارك - برج NBT. - دور 9

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-809-33-6

طبع في مطابع الخط - الكويت

الإهداء

في ليلةِ العَاشِرِ من رمضان من السَّنةِ العَاشرةِ للبِعثةِ الشَّريفة،

تُوفِّيت أُمُّنا خديجة بنت خويلدٍ رضيَ اللهُ عنها،

نزلَ النَّبيُّ ﷺ إلى قبرِهَا،

سجَّاهَا بيديه الشَّريفتين، ودَّعَهَا، ثمَّ أهالَ عليها التُّراب، ومضَى،

الكثيرُ منه بقيَ في قبرِ خديجة، والكثيرُ من خديجة بقيَ فيه!

تزوَّج بعد ذلك، وأحبَّ، وأنجبَ،

ولكنَّه بقيَ حتى آخر عمرِه يقولُ: واللهِ ما أبدلنِي اللهُ خيراً من خديجة!

حُبُّ النَّبيِّ ﷺ لخديجة يخبرنا أنَّ البعض لا يملأ مكانهم أحد!

هذا الكتابُ مهدىً إلى الذين أحبُّوا وصَدَقُوا!

وهذا الكتاب مهدىً أيضًا إلى خديجتي أنا!

مُقدِّمة:

الحمدُ للهِ الذي جعلَ القلوبَ بين إصبعين من أصابعه يُقلّبها كيف يشاء، وجعلَ الأرواحَ جنوداً مُجنّدة، ما تعارفَ منها اِئتَلفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ!

والصَّلاة والسَّلام على المبعوثِ رحمةً للعالمين، عاشَ مُحِبّا، كان قد جاوزَ السّتين من عمره حين رأى نسوةً عجائز، فخلعَ رداءه وأجلسهُنّ عليه، وقال لمن معه: هؤلاءِ صُويحبات خديجة! ومات مُحِبّا، رأسُه الشَّريفةُ في حضن عائشة!

ثُمَّ أمَّا بعد:

فهذا كتابٌ منَّ اللهُ تعالى عليَّ تمامه، أسميته: خمسون قانوناً للحُبّ! غُصْتُ فيه بين ثنايا القلوب، فأخبرتُك بالذي تشعرُ به وتخشى أن تقوله! وجُلْتُ فيه بين مكنونات النّفوس، فلعلَّ في نفسِ الإنسانِ من الأحاسيس ما يجدها ولا يفهمها! فأردتُ أن أضع النّقاط على الحروف، فالإنسان الذي لا يفهمُ مشاعره أوّلاً لن يستطيع أن يتعامل معها، والإنسان الذي لا يفهم مشاعر الآخرين ثانياً ربما أشكلَ عليه فهم مشاعر الآخرين تجاهه، الحبُّ يأتي خفيًّا كدبيب النَّمل!

Telegram:@mbooks90

والقوانين في هذا الكتابِ ليست مرتبطةً ببعضها، وكلُّ واحدٍ منها يصلحُ أن يكون موضوعاً قائماً بذاته، ولكنّها مجتمعة ترسمُ لكَ المشهد متكاملاً! وإنّكَ لو أبدلتَ مكان قانونٍ بمكانِ قانون آخر في الكتاب لم يُؤثّر ذلك شيئاً، تماماً كما كان البيتُ الشعريُّ في القصيدة الجاهليّة، له وحدةٌ موضوعيّةٌ، وفكرةٌ قائمةٌ بذاتها، واستبدال بيتٍ مكان آخر لا يُصيب القصيدة بالخلل، غير أنَّ الأبياتَ مجتمعةً ترسمُ لك المشهد متكاملاً! غير أنّي بدأتُ كتابي هذا بقانونٍ أسميته: أنتَ تستحِقُّ فرصةً ثانيةً! لأنّي أعلمُ أنَّ الفاقدين كُثُرٌ، والمغدورين أكثر، وقد أردتُ أن أقول لهم: ما زال هناكَ متّسعٌ للحُبِّ رغم كلِّ الذي حدثَ! وختمتُ الكتاب بقانونٍ أسميته: أجمل الحُبِّ ما كان عفيفاً، لأنّي أُؤمنُ أنَّ الحُبَّ يبقى من العَوَامِ، فإذا ما توّجته العِفّة صار مَلِكاً!

ولعَّلكَ تستنكِرُ منّي أن أكتب كتاباً في الحُبّ، وتحسبُ أنَّ الأمرَ مخالفٌ للتّقوى والعفّة، فلا تعجَلْ عليّ، ولا ترجُمْ بالغيب شيئاً لم تُحِط به علماً! سيقلُّ استنكاركَ

حين تعلمُ أنَّ الشّيخ علي الطنطاويّ قد ألّف كتاباً أسماه غزل الفقهاء! جمع فيه أبيات الغزل التي قالها الفقهاءُ، والقضاةُ، ورجالُ الحديث، المشهود جميعاً لهم بنقاء السّريرةِ، وحُسنِ الدِّيانة!

لا أنا ولا أنتَ أتقى للهِ من ابن القيِّم، وقد ألّفَ في الحُبِّ كتاباً أسماه روضة المُحبّين ونزهة المشتاقين!

وأين أنا وأنتَ من ورع ابنِ الجوزيّ، وقد ألّفَ كتابه في الحُبِّ وأسماه ذمَّ الهوى؟!

وأين نجيءُ أنا وأنتَ بجانب ابن حزم، وهو صاحب كتاب طوق الحمامة، أحد أشهر كتب الحُبّ في تاريخ المسلمين!

وعلى خُطى هؤلاء الأفاضل سار الأفاضل أمثالهم، فها هو داود الأنطاكيّ يكتبُ كتاباً في الحُبّ أسماه تزيين الأسواق في أخبار العُشّاق، وانظُر للزركليّ كم أشاد به حين ترجم له في الأعلام!

وها هو الفاضل التقيُّ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة يكتبُ كتاباً في الحُبِّ أسماه ديوان الصّبابة، وهو الذي شهد الناس بورعه وتقواه!

وها هو الخرائطيُّ العابدُ الثّقة الموسوعيّ، يؤلِّفُ كتابه اعتلال القلوب، وينقلُ عنه ابنُ القيم، وابنُ الجوزيّ، في كتابيهما اللذين أشرتُ إليهما آنفاً!

وكتُبُ الأفاضلِ في هذا المضمارِ أكثر من أن تُحصى، ولكني جئتكَ بأمّهاتها!

ولأنَّ الحُبَّ عاطفةٌ إنسانيّةٌ، جِئتُكَ كذلك بقصصٍ من كُتبِ الغربيين، وكذلك لبلادِ فارس، والهند حظٌّ في بعض ثنايا الكتاب، فطرة الله التي فطر عليها النّاس!

وقد ارتأيتُ أن أُلَخِّصَ لكَ كلَّ قانونٍ من قوانين الحُبِّ الخمسين في هذا الكتاب ببضعةِ أسطرٍ قبل بدايته، تهيئةً لكَ عمّا أنتَ مقبلٌ عليه، أمّا القانون مُفصّلاً بقصصه، وشواهده، واستنتاجاته، فإنّه يأتي بعد هذا التّمهيد، وفي الغالب هذا التّلخيص هو فقرة مرّت في القانون رأيتُ أنّها من الممكن أن تقوم بهذه المهمّة!

العِبرةُ في الحلال والحرام ليست في الشّيءِ الذي نكتبُ عنه، وإنّما في الطّريقة

التي نكتبُ بها، في المفاهيم التي نريدُ إيصالها، وفي المناقشة والاستدلال!

وستجدني في الكتاب دوماً أعيدكَ إلى ضوابطِ الشَّرعِ الحكيم، أمَّا قصص الكتاب التي استشهدتُ فيها لأثبت لك صحّة القوانين التي استخلصتها، فهي من هذه الكتُب التي أجمعتِ الأمَّةُ على تزكيةِ أصحابها، وقد أخبرتك قبل كلِّ قصّةٍ عن مصدرها، فلن تجد إلا ما يَطمئنُّ له قلبُكَ بإذن الله!

هذا ما كان منّي في هذا الكتاب، وما أردتُ فيه إلا الإصلاح ما استطعتُ، وأن أطبطبَ على القلوب، وأربتَ على الأكتاف، فإن وُفِّقتُ فالفضل أوّلاً وآخراً لله، وإن أسأتُ فاللهُ ورسوله من كلِّ هذا براء، حسبي أنَّ الله مطّلِعٌ على ما في صدري، عالمٌ ما في قلبي، فاللهُمَّ إنّكَ تعلمُ وهم لا يعلمون!

القانون الأوّل: أنتَ تستحِقُّ فرصةً ثانيةً!

عندما تتقبَّلُ خسارتكَ وتمضي، لا يعني أبداً أنَّ الجروحَ في داخلك قد شُفيت تماماً، ثمَّةَ جروحٌ ستبقى تَنِزُّ إلى الأبد، ثمَّة أشخاص سيبقَون يَنقصونكَ ولن تعوِّضَك الدُّنيا كلُّها عنهم، وثمَّة خذلان ستبقى تتجرَّعُ مرارته ما حَيِيتَ! ولكن الخيارات عند وقوع الخسائر ضيِّقة، إمَّا أن تبقى عالقاً في جرحك، وإمَّا أن تلملم جروحك وتمضي! والعاقل من يعرفُ أنَّ الجرحَ الذي لا يُشيحُ نظره عنه لا يبرأ أبداً!

العلاقاتُ التي لا يُنهيها الموتُ يُنهيها الغدر، فالنَّاسُ في هذه الحياة لا يلتقون إلا ليفترقوا! وأجمل وصفٍ للحياة أنها تستمرُّ رغم كلِّ شيء!

إنَّها لا تقفُ لحادثٍ أليم، ولا تتعطَّل لوقوعِ مصيبة!

تُهاجر قطعان الثيران في إفريقيا كلَّ عام، هرباً من موسم الجفاف، وبحثاً عن الماء، وأثناء هذه الهجرة التي هو الغرضُ منها البقاء على قيد الحياة، يتخطَّفها الموتُ من كلِّ جانب! بعض الثيران تقعُ فريسةً للأسود التي تكمنُ لها في اليابسة، وبعضها تَنهشُهُ التَّماسيحُ المتربِّصة في المياهِ الضَّحلةِ، ولكنَّ القطيعَ يلملمُ جراحهُ كلَّ مرَّة، ويتقبَّلُ خسارتَه، ويكملُ طريقَه حتَّى يصلَ إلى وجهته. ثمَّ إنَّه في العام التَّالي يعيدُ الكرَّةَ ذهاباً وإياباً محفوفين بالمخاطر والخسائر، ولكن على الحياة أن تستمرَّ!

تعرفُ الثِّيرانُ قانون اللُّعبة جيِّداً، تعرف أنَّها فرائسُ مرغوبةٌ للأسود، وصيدٌ شهيٌّ للتَّماسيح، ولكنَّها بالمقابل تعرفُ أيضاً أنَّها إذا لم تهاجر فستفنى، فلا يُقعِدها الجرحُ عن مواصلة السَّعي، لأنَّ الخيارات عند وقوع الخسائر ضيِّقة، إمَّا أن تبقى عالقاً في جرحك، وإما أن تلملم جروحك وتمضي! والعاقل من يعرفُ أنَّ الجرح الذي لا يُشيحُ نظره عنه لا يبرأ أبداً!

إنَّ الشخصَ الذي لا يتقبَّلُ خسارتَه ويكملُ حياتَه سيصيبُه ما أصاب الحِمارَ الذي فقد ذيله! يروي «بيدبا» فيلسوف الهند الشَّهير في كتابه «خرافات»:

إنَّ حماراً فقدَ ذيله، وكانت تلك مصيبة وقعتْ عليه! فرَاحَ يبحثُ عن ذيله في كل مكان، وقد بلغ من حمقه أنَّه اعتقدَ أنَّه إذا عثرَ على ذيله المقطوع فسيعيد تركيبه مكانه! وأثناء بحثِه عن ذيلِه المفقودِ، دخل حقلاً، ومشى فيه على غيرِ هدى، فكان يطأُ المزروعات ويُتلفُها! وعندما رآهُ صاحبُ الحقلِ جُنَّ جنونُه، فحمل سكِّينَهُ، وتوجَّه إليه مسرعاً، وقطع له أذنيه، وأخرجه من الحقل بالرَّكلِ والضَّربِ!

وهكذا فإنَّ الحمارَ الذي كان يَندبُ خسارةَ ذيله من قبل، صار عليه الآن أن يندبَ خسارةَ أذنيه أيضاً!

أنتَ عندما تتقبَّلُ خسارتكَ وتمضي، لا يعني أبداً أنَّ الجروح في داخلك قد شُفيت

تماماً، ثمّةَ جروحٌ ستبقى تَنِزُّ إلى الأبد، ثمّة أشخاص سيبقّون يَنقصونك ولن تعوّضَك الدُّنيا كلُّها عنهم، وثمّة خذلان ستبقى تتجرَّعُ مرارته ما حَيِيتَ! ولكنَّ المآتم لا تعيد الرّاحلين، والدُّموع تطفئك أنت ولا تطفئ النِّيران في صدرك، لا شيء يُطفئ النِّيران، أو يكاد، سوى أن تتجاهلها، الوقت كفيلٌ بكلِّ شيء، ومع الأيّام ستتكشّفُ لك حجب الغيب، وستعلم أنَّ لله حكمة في كلِّ شيء، ولحظة العِوض فقط ستعرف حكمة الأبواب المغلقة، ولحظة التداوي ستفهم لماذا كانت الجروح أساساً، ولكن هذا لن يحدث حتّى تقرر أن تطويَ الصَّفحة!

إيّاك أن تعتقد أنّك المجروح الوحيد، والفاقد الوحيد، والمخذول الوحيد في هذا العالم، في كلِّ واحد منا جروح يداريها!

قال المدائنيُّ: رأيتُ في البادية امرأةً لم أرَ أجملَ منها قطّ، فقلتُ لها: واللهِ هذا فعل صلاح الدُّنيا والسُّرور بك!

فقالت: كلّا، واللهِ إنَّ لديَّ أحزان، وخلفي هموم، وسأخبرك:

كان لي زوج، وكان لي منه ابنان، فذبحَ أبوهما شاةً يوم عيد الأضحى والولدان يلعبان، فقال الأكبرُ للأصغر: أتريدُ أن أريكَ كيف ذبح أبي الشّاة؟

فقال: نعم!

فقام إليه يُلاعبه، فإذا به قد ذبحه!

فلمّا نظر إلى الدّم، فزع وهرب نحو الجبل، فأكله الذِّئب!

فخرج أبوه في طلبه، فوقع ومات!

فقلتُ لها: كيف أنت والصَّبر؟

فقالت: لو دام لي لدُمتُ له، ولكنّه كان جرحاً واندمل!

فلا تخدعنّك المظاهر، النّاس كالكتبِ فيهم ما لا يمكن معرفته بالنَّظر إلى الغلاف فقط!

حتَّى أولئك الذين كتبوا لنا في الحبِّ، وأخبرونا كيف سعدوا به، وعلَّمُونا كيف نسعد نحن به، كانت لهم جروحهم، ولكنهم أعطوا أنفسهم فرصة ثانية لِيُحِبُّوا ويُحَبُّوا!

وإنَّك لو قرأت طوق الحمامة لابن حزم لكدت تجزمُ أنَّه صاحب قلب ما كُلِمَ قَط، وأنَّه أمضى حياته يقطف ثماراً يانعةً من شجرة الحبّ، ولكنَّه سيخبرك أنَّه قد أصيب في أعمق نقطةٍ في قلبه!

واسمعْ له وهو يقولُ لك: وعنّي أُخبرك أنّي كنتُ أشدَّ النَّاس كَلَفاً، وأعظَمَهم حبّاً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها «نُعْمٌ». وكانت أمنية المتمنّي، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً، وموافقةً لي، وكنتُ أبا عُذرِها، وكنّا قد تكافأنا المودَّة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومَرُّ النَّهار، وصارت في قبرها ثالثة التُّراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين، وكانت هي دوني في السِّنّ، ولقد أقمتُ بعدها سبعة أشهرٍ لا أتجرَّد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمودِ عَينِي وقلَّة إسعادها!

وعلى ذلك، فواللهِ ما سَلوتُ حتَّى الآن، ولو قُبِل فداءٌ لفديتُها بكلِّ ما أملك من تالدٍ وطَارِفٍ، وببعض أجزاء جسدي العزيزة عليّ مُسارعاً طائعاً! وما طاب لي عيشٌ بعدها، ولا أُنسيت ذكرها، ولا أنستُ بسواها، ولقد عفَى حبّي لها على كلِّ ما قبله، وحرَّم ما كان بعده!

وعلى كلِّ هذا فقد أكمل ابن حزم حياته، وتزوَّج وأنجب، وكان له جَوارٍ على عادة الرِّجال في ذاك الزَّمان، ومضتِ الحياة، ودارت الأيَّام ولكنَّ نُعماً بقيت في قلبه!

لن تلتقيَ بنصيبك من الفرح المتبقّي لك في رحلة العمر ما دمتَ مُشرِّعاً أبوابك للحزن!

قالتْ أم سلمة يوماً لزوجها أبي سلمة: بلغني أنَّه ما من امرأة يموتُ زوجها وهو من أهل الجنَّة، ثم لا تتزوَّج بعده، إلَّا جمع الله بينهما في الجنَّة، فتعال نتعاهد ألَّا تتزوَّج بعدي ولا أتزوَّج بعدك!

فقال لها أبو سلمة: أتُطيعينِي؟

فقالت له: نعم!

فقال: إذا مِتُّ فتزوَّجِي، اللهمَّ زوِّجْ أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منِّي، لا يُحزِنُها، ولا يُؤذيها!

فلمَّا مات أبو سلمة، قالت أمُّ سلمة في نفسها: من خيرٌ من أبي سلمة؟!

فلمَّا انقضت عِدَّتُها خطبها النَّبيُّ ﷺ!

فأرسلتْ إليه: مرحباً برسول الله ﷺ، ولكنِّي امرأة شديدة الغيرة، وإني ذات أولاد صغار، وليس أحد من أوليائي شاهد!

فبعث إليها النَّبيُّ ﷺ يقول: أمَّا أنَّك شديدة الغيرة فسأدعو الله أن يُذهِبَ غيرتكِ، وأمَّا صبيانكِ فسيكفيكِ اللهُ أمرهم، وأمَّا الأولياء فليس أحد منهم إلا يرضى بي! وهكذا لم تتزوج أم سلمة من هو خير من أبي سلمة فحسب، وإنَّما تزوجت من هو خير من النَّاس كلِّهم!

الحيُّ أبقى من الميِّت، وزواج المرأة بعد زوجها، أو زواج الرَّجل بعد زوجته، مسألةٌ شخصيَّةٌ يقدِّرها كلُّ واحدٍ منهما بحسب حاجته وظروفه، فليست المرأة التي تتزوَّج بعد زوجها قليلة الوفاء، ولا الرَّجل الذي يتزوَّج بعد زوجته باحثٌ عن المتعة والنِّساء!

هذه سُنَّة الحياة، وهكذا كان النَّاس قبلنا وكذا سيبقون بعدنا، وليس في الحلال شيءٌ معيبٌ، والشَّرع قبل العادات، والله سبحانه لا يشرِّعُ أمراً مخجِلاً ولكنَّ النَّاس يُضيِّقون على النَّاس!

من أرادتْ أن تعيشَ على ذكرى زوجها فهذا شأنُها، ومن أرادتْ أن تتزوَّج فهذا شأنها أيضاً، وليس لأحدٍ من أهلها، أو أهلِ زوجِها أن يمنعها بحجَّة عدمِ الوفاء لزوجها الميِّت!

وما يقالُ في حقِّ المرأة يقالُ في حقِّ الرَّجل من باب أولى!

نحن بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، ولكلٍّ منَّا حاجاته الجسديَّة والرُّوحيَّة التي تتطلَّبُ الإشباع لتكون الحياة سويَّة، فلا تسمحوا لأحدٍ أن يهيلَ عليكم التُّراب وأنتم أحياء!

أزعُمُ أنَّه في تاريخ البشريَّة لم يحب رجلٌ امرأةً كما أحبَّ النَّبيُّ ﷺ أمَّنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ولكنَّها حين انتقلت إلى جوار ربِّها عَضَّ على جرحه وأعطى نفسه فرصةً ثانيةً ليُحِبَّ ويُحَبَّ، بأبي هو وأمي، كان أثر فقدها بادياً عليه يلحَظُه كلُّ من يعرفه!

روى ابن سعدٍ في الطَّبقات، بعدما ماتت خديجة بنت خويلد جاءت خولة بنت حكيم إلى النَّبيِّ ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إنِّي أراك قد دخلتك خَلَّة / حزن لفقدِ خديجة!

فقال لها: أجل، أمُّ العيال وربَّةُ البيت!

فقالت: أفلا أخطبُ لكَ؟

فقال: بلى، إنَّكنَّ معشر النِّساء أرفق بذلك!

فخطبتْ له عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، ثمَّ بعد ذلك تزوَّج بأمَّهاتِ المؤمنين واحدةً إثر واحدة، ومضت أيَّامه زاخرةً بالحبِّ، مليئةً بالمودَّة، وإنَّك لو قرأت في كتب السِّيرة مواقفَه مع زوجاتِه لظننتَ أنَّ قلبه ما مسَّه ألمُ الفقد قطُّ، ولاعتقدتَ واهماً أنَّه قد نسيَ خديجة، ولكنَّ الحقيقة أنَّ خديجة بقيت في قلبه حتَّى غادر الدُّنيا، لم يملأ مكانها أحدٌ، كانت امرأةً لا تُنسى أبداً!

كان يُسابق عائشة، ويشربُ من الموضع الذي شربَتْ منه في الإناء فيضع فمه على موضع فمها، ويرفع اللُّقمة بيده ويطعمها إيَّاها، وكان يستعمل السِّواك من بعدها، ويغتسل معها في الإناء الواحد!

وكان يمسحُ دموع صفيَّة بيده، ويضعُ رُكبته لها لتركب على بعيرها، وإذا جاءت لتزوره في اعتكافه قام معها ليوصلها إلى بيتها!

كان يلينُ لحفصة ويحتمل منها، ويحنُّ على سودة بنت زمعة، ويراعي خاطر زينب بنت جحش، ويكرمُ زينب بنت خزيمة، ويعطفُ على أمِّ سلمة، ويحسنُ صحبة أمِّ حبيبة، كان خلوقاً مع ميمونة، ورؤوفاً مع جويرية، رضيَ الله عن أمهات المؤمنين!

ولكنَّ خديجة رضي الله عنها كانت حاضرةً دوماً، طواها الثرابُ ولكنّه احتفظ بها في قلبه، وظلَّ يذكرها في حضرة زوجاته، حتّى أنّ عائشة رضي الله عنها كانت تغار منها وهي في قبرها، فتقول: ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النّبيّ ﷺ ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها!

ولكنّ النّبيّ ﷺ كان يُكثر ذكرَها، وربّما ذبح الشّاة ثمّ قطعها قطعاً ثمّ يقول: أعطوا منها صويحبات خديجة!

فأقول: كأنّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلّا خديجة، ما أكثر ما تذكُرُها، وقد أبدلك الله خيراً منها!

فيقول: والله ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي النّاس، وصدّقتني إذ كذّبني النّاس، وواستني بمالها إذ حرمني النّاس، ورزقني الله عزَّ وجل ولدها إذ حرمني أولاد النّساء!

وكان يحبُّ كلَّ من أحبَّ خديجة، كان قد شارف على السّتين من عمره حين رأى نسوةً عجائزَ فخلع رداءَه وأجلسهُنّ عليه، وقال لمن حوله يبدّدُ دهشتهم: هؤلاء صُوَيحبات خديجة!

ودخلتْ عليه جثّامة المزنيّة، فأقبل عليها إقبالاً ملحوظاً، يلينُ لها، ويكرمُها، ويقول لها: كيف حالكم، كيف أنتم بعدنا؟

فقالت: بخيرٍ، بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله!

فلما خرجتْ من عنده قالت له عائشة: يا رسول الله، تُقبِل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال لها: إنّها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنّ حُسن العهد من الإيمان!

وتأمّل تعبيره: زمن خديجة! وكأنّه يؤرِّخُ عمره بها؟

وهكذا كُنْ أنتَ، تقبّلْ خسارتكَ، وغُضَّ على جرحك، وأعطِ نفسك فرصةً ثانيةً فأنت تستحقُّ ذلك، لا تبقَ عالقاً في جروحك، ولا أسيرَ أحزانك، أمّا الراحلين فإن

رحلوا وهم أحباب فاحتفظ بهم في قلبك فإنّ هذا من الوفاء، وإن كانوا غادرين فلا تسمح لمن أفسد ماضيك أن يفسدَ حاضرك ومستقبلك!

شُقَّ شرنقةَ الحزن عنك، وحلِّق بقلبك مجدداً، لربّما أجمل أيّامك لم يأت بعد!

القانون الثّاني: الحبُّ لا يَطرقُ البَابَ، بل يَخلعُه!

لا كبيرَ على الحُبِّ، وإنّه إذا نزل بساحِ قلبٍ زَلْزَله، وقلَبَ كيان صاحبه رأساً على عقبٍ! وقد يُودِي بالفارسِ الشُّجاع رِمشٌ رقيقٌ يفعلُ به فعلَ السّيوف القاطعة، فسبحان من أعطى الغزلان من النّساء رقّةً يضطدنَ بها الأسود من الرّجال!

وسبحان من إذا ألقى محبةَ رجلٍ في قلبِ امرأةٍ، سكنَ عينيها فلا ترى سواه، وسكنَ قلبَها فلا يطيبُ لها نبض إلّا به، وسكن رئتيها فكأنّها تحتاجُهُ لتتنفّس!

غريبٌ هو الحبُّ، واللهِ غريب! إنَّك لترى الرجلَ الحازم الذي له عقل يزن بلداً، فتقول في نفسك: ما للعشقِ على هذا من سبيلٍ!

ثمّ تطرحه عينٌ كحيلةٌ بالضَّربة القاضية، فتسلُبَه نومه ورُقاده! وقد يودي بالفارس الشُّجاع رِمشٌ رقيقٌ يفعل به فعل السُّيوف القاطعة، فسبحان من أعطى الغزلان من النِّساء رقَّةً يصطدنَ بها الأسود من الرِّجال!

وسبحان من إذا ألقى محبةَ رجلٍ في قلبِ امرأةٍ، سكن عينيها فلا ترى سواه، وسكن قلبها فلا يطيب لها نبض إلَّا به، وسكن رئتيها فكأنَّها تحتاجُهُ لتتنفَّس!

في كتاب «دكّانة الكتب»، خرج عبدُ الملكِ بن مروان حاجّاً، ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد من رجال قريش المعدودين عقلاً وديناً واتّزاناً، وكان عظيم القدر عند عبدِ الملكِ بن مروان، يُدنيهِ من مجلسه، ويحرص على طُول رِفقتِه! وبينما خالد يطوف بالكعبة إذ رأى رملة بنت الزُّبير، فعشقها عشقاً شديداً من أول نظرة ووقعت في قلبه وقوعاً متمكّناً! فلما أراد عبد الملك الرُّجوع، هَمَّ خالد بالتَّخلُّف عنه! فوقع في قلب عبد الملك تهمةٌ، فبعث إليه وسأله عن أمره!

فقال: يا أمير المؤمنين رملة بنت الزبير، رأيتُها تطوفُ بالبيت فأذهلت عقلي، وما أبديتُ إليك ما في قلبي حتَّى عِيلَ صبري، ولقد عرضتُ النَّوم على عيني فلم تقبله، والسَّلْوَ على قلبي فامتنعَ منه!

فأطال عبدُ الملكِ التعجُّب من ذلك وقال له: ما كنتُ أقولُ إنَّ الهوى يأسرُ مثلك!

فقال له خالد: فإنِّي أشدُّ تعجُّباً من تعجبك منِّي، ولقد كنتُ أقولُ: إنَّ الهوى لا يتمكّن إلَّا من صِنفين من النَّاس: الشُّعراء والأعراب!

أما الشُّعراء فإنَّهم ألزموا قلوبهم التَّفكر في النِّساء، ووصفِهنَّ، والتَّغزُّلَ بهنَّ، فمالَ طبعُهم إلى النِّساء، فضعفت قلوبُهم عن دفعِ الهوى، فاستسلموا له منقادين!

وأمَّا الأعراب فإنَّ أحدهم يخلو بامرأته ما لا يخلو مثله أهل المدن، فلا يكون الغالب عليه غير حبِّه لها، ولا يشغله شيء عنها، فضعفوا في دفع الهوى فتمكَّن منهم!

أمَّا اليوم فما رأيث نظرةً حالت بيني وبين الحزم، وحسَّنت عندي ركوبَ الإثم مثل نظرتي هذه!

فتبسّم عبدُ الملك وقال له: كلُّ هذا قد بلغ بك؟

فقال: والله ما أصابتني هذه المصيبة قبل يومي هذا!

فرَقَّ له عبدُ الملكِ، وأرسل إلى أهل رملة يخطِبها إلى خالد، وذكروه لها، وحدَّثوها عن عقله وحزمه، ومكانته عند الخليفة وبين النَّاس، فقالت: لا أنزل على ضَرَّة، حتَّى يطلِّق نساءه!

فطلَّق امرأتين كانتا عنده، وتزوَّجها، ومضى بها إلى الشَّام!

فإن ضربَكَ زلزال الحبِّ ضرباً، وما استطعتَ له دفعاً، فليس لك إلَّا الحلال من سبيلٍ، فإن استطعتَ أن تسلكَ طريقه فنِعم الطَّريق أن يمشي المرء في مُنيةِ قلبه، وإن لم يستطع إلى الحلال سبيلاً، فعزاؤك عند الله فيما سقط منك، أمسك بقاياك فقد يحدثُ أن يُبتلى المرءُ بقلبه، وإنَّه والله لمن أشدِّ البلاء!

وإنَّك إن كنت تحسب أن هذا الذي يسمُّونَه عشقاً لا يتمكَّن إلَّا ممَّن كان فارغاً، ليس له دينٌ يزجرُه، ولا أدبٌ يلجمُه، ولا مكانةٌ تشكمُه، فإنَّك ما عرفتَ من الحبِّ إلَّا اسمه، أمَّا حقيقتُه وأعراضُه فبينك وبينها من المسافةِ كما بين السَّماء والأرض!

كان عبدُ الرحمن بن أبي عمَّار فقيهَ أهلِ الحجاز، وقد مرَّ ببائعِ جَوَارٍ فنظر إليهنَّ، فعلقت واحدةٌ منهنَّ بقلبه، واشتدَّ وَجدُه بها، واشتهر بذِكْرِها وقد كان له في الشِّعر باعاً، فجاء إليه صاحباه الفقيهان العلمان عطاء بن أبي يسار، ومجاهد بن جبر المكيّ يلومانه، فلم يكن جوابه إلَّا أن قال مترنماً شعراً:

يلومُني فيكِ أقوامٌ أجالسُهم

فما بالي أطار اللَّوم أو وَقعا

أدعُو إلى هجرِها قلبِي فَيتبَعُنِي

حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزَعا

لا أستطيعُ نُزوعاً عن محبَّتها

أوَيَصنعُ الحبُّ بي فوق الذي صَنَعا؟

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أبيه فخرج حاجّاً بسببه، وبعث إلى مولى الجارية واشتراها منه بأربعين ألفاً، وأمر قَيِّمَةَ الجواري فَحَلَّتْهَا وزيَّنتها، وبلغ النَّاس قدومه، فدخلوا للسَّلام عليه وفيهم عبد الرحمن بن أبي عمَّار، فلما أراد الانصراف، استَبْقَاه، وقال له: ما فعل بك حبُّ فلانة؟

فقال له: مشوبُ اللَّحم والدَّم والمخِّ والعصب!

فأمر بدخول الجارية عليه، وقال له: هي هذه؟

فقال له: نعم، أصلحك الله!

فقال له عبد الله بن جعفر: والله ما اشتريتُها إلَّا لك، فشأنك بها، فهي لك مباركة!

فبكى عبد الرحمن فرحاً وقال: يا أهل البيت، قد خصَّكم الله بأشرفِ ما خصَّ به أحداً من صُلب آدم، فلتهنِئكم هذه النِّعمة، وبارك لكم فيها!

وكان هذا الفعلُ بعضَ ما اشتهر به عبد الله بن جعفر، وسار خبرُه بين النَّاس ومدحوه لأجله!

وإنَّه وإن كان لبلوغِ غايةِ القلب من سبيلٍ فقد هانت المصيبة، وطابَ المسير! فإنَّ خالد بن يزيد في القصَّة الأولى كان بلوغ غايته ممكناً وإن ساعدَه في بعضها الخليفة إذ كان له خاطباً! وإنَّ عبد الرحمن بن أبي عمَّار في القصة الثانية، وإن كان فقيراً لا يملك ثمن الجارية، فقد كان المال هو مانعه الوحيد، فقد وجد عبد الله بن جعفر معيناً له عليه! وكلُّ ما كان من طريقةٍ لقضائه بيدك أو بيد غيرك لا يعتبر مصاباً جللاً، وإنَّما المصابُ الجلَلُ حين تجدُ قدميك على طريقٍ لا سبيلَ لبلوغِ آخرها، فأنت هنا بين إحدى الموتتَين، أن تنسحبَ وتتركَ قلبك وراءك، أو أن تمشيَ ولن ينالَك من مسيرِك إلَّا الحزن والتَّعب وما أنت ببالغٍ وجهتك!

في كتابِ تزيينِ الأسواقِ في أخبارِ العُشَّاق لداود الأنطاكيِّ أنَّ رجلاً من بني عُذرة

استخلفَ أخاه على بيتِه وخرجَ في سفرٍ قصيرٍ له، فصادف يوماً أن دخل الرّجلُ على زوجةِ أخيه وهي سافرةٌ عن وجهِها، فلمّا علمت بذلك سترتْ وجهَها بيَدَيها، فكان ما لقِيَهُ من رؤيةِ مِعصمَيها أضعاف ما لقِيَه من وجهِها! فخرجَ وقد اشتعلَ الحبُّ في قلبه، فأقام أياماً يكابدُ العناء، ولزِم فراشَه طريحاً لا يعلمُ أحدٌ ما به!

جاء أخوه فأبصره وقد ذوى وذبل، وذهبت محاسِنه، وتغيَّر جسمه، فلم يترك عرّافاً ولا طبيباً حتّى دعاه، وكانوا وقتذاك على جاهليةٍ، فلمّا لم يعلم أحد ما به، أشاروا عليه بالحارث بن كلدة الثقفيّ أمهر أطباء العرب، فاستدعاه علّه يجد علاجاً لما نزل بأخيه!

فلما رآه الحارث بن كلدة قال: ما به إلّا العشق!

فقالوا: وما السّبيل لمعرفة ذلك؟

فقال: نسقيهِ الخمرَ فعساه أن يصرّح بتلك التي أودت به!

فلمّا كان الصباح، قالوا للحارث: سقيناهُ، فصرّح بالعشق، وقال شعراً في الحبّ، ولكنّه لم يذكر من هي!

فقال: زيدوه خمراً، لعلّه يُذهب ما بقي من حرصه عليها فيقول!

فزادوه خمراً، فصرّح باسم زوجة أخيه!

فقال أخوه: أشهدُكم أنّها بائنةٌ منّي طالقةٌ، فإنّي أعتاضُ عنها بغيرها من النّساء، ولكنّي لا أعتاض عن أخي بغيره من الرّجال!

فبشّروا أخاهُ المريض بما قال أخوه بعد أن عاد إليه عقلُه، فقال: هي عليّ كأمي، والله لا أقبل أن ينزل لي عنها، ثمّ شهق ومات!

وهنا تتبدّى لك حكمة الإسلام العظيم في تخفيفِ الخُلطة ودخولِ الرّجال على النّساء، وهذا من بابِ سدّ الذّرائع، وإغلاق الأبواب لِمَا لا تُحمدُ عقباه، وليس اتّهاماً للرّجال ولا رمياً للنّساء بعدم العفّة، ولكنّنا بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، ولنا قلوبٌ تنبضُ، وإنّ المرءَ لا يدري متى يصابُ في قلبه!

لهذا قال النّبيّ ﷺ: إيّاكم والدُّخولَ على النّساء!

فقالوا: يا رسول الله، أرأيتَ الحَمْوَ؟ أي أقاربَ الزَّوجِ.

فقال: الحمو الموت!

لهذا نعيشُ دون الوسوسةِ، وفوق التّفريطِ، فالنّاس ليسوا سواء، والحذرُ واجبٌ، ومن حذر سَلِم، ولات ساعةَ مَنْدَمٍ!

وإنّي وإن قلتُ لكَ إنّ نظرةً قد تُوردُ المرءَ المهالِكَ فإنّك ستحسبُنِي أبالغ، غير أنّي والله إنّما أقولُ لكَ ما يجبُ أن يُقال، فإنّك إن سمعتَه هنا كان عليك أهون إذا وجدته في نفسك عافاكَ الله، أو وجدته في غيرِك حفظ الله قلبي وقلبك أن يجعلَ هواهُ فيما لا بلاغَ له إليه!

روى ابن القيّم في رائعتِه روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، نقلاً عن الخطيب البغداديّ، وإحالةً على كتابه تاريخ بغداد:

قال نفطويه: دخلتُ على محمّد بن داود الأصبهانيّ في مرضِه الذي مات فيه، فقلت له: كيف تجدُك؟

فقال: حبُّ من تعلم أورثني ما ترى!

فقلتُ: ما منعكَ من الاستمتاعِ به مع القدرةِ عليه؟

فقال: الاستمتاعُ على وجهين: أحدهما النّظر المباح، والثاني اللّذة المحظورة!

فأمّا النّظرُ المباحُ فقد أورثني ما ترى، وأمّا اللّذة المحظورة فإنّه منعَنِي منها ما حدّثني أبي، عن سويد بن سعيد، عن عليّ بن مسهر، عن القتّات، عن مجاهد، عن ابن عباس، أنّ النّبيّ ﷺ قال: من عشِق وكتَمَ، وعفَّ وصبرَ، غفرَ اللهُ له، وأدخله الجنّة!

والحديثُ فيه كلامٌ عند أهل العلم فلا يُجزم بصحّتِه، وإنّما يُورَد في بابه من غير كراهة، وقال الحاكم: إنّما أتعجّب من هذا الحديث، فإنّه لم يُحدّث به غير سويد، وكلُّ من في السّند ثقات!

والنّاس في الوقوع في شِراك الحبّ في الضربة القاضية سواءٌ، عَرَبهم وعَجَمهم، قديمُهم وحديثُهم، ففي كتاب فنّ الإغواء لروبرت غرين، أنّه في العام الثامن والأربعين قبل الميلاد تدبّر بطليموس الرابع عشر أن يخلع وينفي أخته التي كانت زوجته أيضاً، الملكة كليوباترة! وتأكّد من عدم عودتها عبر حدود البلاد، وبدأ يحكم بمفرده.

وفي وقتٍ لاحقٍ من تلك السّنة جاء يوليوس قيصر إلى الإسكندريّة ليضمن ولاءَ مصر لروما على الرّغم من صراع القوى المحليّة. ذات ليلةٍ كان قيصر يعقد اجتماعاً مع قادته، ويناقش الخطط الاستراتيجيّة، دخل عليه أحد الحرّاس ليخبره أن تاجراً يونانياً عند الباب ومعه هديّة كبيرة وقيمة له!

أعطى قيصر الإذن للتّاجر بالدُّخول، فدخل وهو يحمل على كتِفَيه سجّادةً كبيرةً ملفوفة. حلَّ وثاق الحبل حول الحزمة وبسطها بحركة خاطفة، لتقفَ كليوباترة بسحرها وفتنتها في مشهدٍ مهيبٍ من الأنوثة والجمال!

الجميع انبهر بجمالها، ولكنّ أكثرهم انبهاراً كان قيصر نفسه!

كان قيصر كارهاً للنّساء، لا يعنِينَ له أكثر من متعةٍ عابرةٍ، وكان يملُّ منهنّ بسرعة، ولكن كلُّ شيءٍ تغيّر منذ تلك اللّحظة، لقد صار قيصر حاكم أكبر دولة في ذلك الزّمان كالخاتم في إصبعها! استعادت به عرشها وبقي لا يرفض لها طلباً حتّى مات قتلاً، والطّريف أنّه وبمحض إرادته أنّه بمجردِ أن أحبّ كليوباترة أبعد من حولِه كلّ النّساء!

إنّ النّاس للوصول إلى ما يريدون في الحبّ ينصبون أفخاخاً لا تخطر على بالٍ أبداً! ولك أن تتخيّل أنّ كليوباترة قد خططت لحدوث كلّ شيءٍ! كانت ملكةً وحيدةً مخلوعةً عن عرشها، لا جيش عندها، ولا سلطة لديها، ولكنّها خاطرت بكلّ شيءٍ، سافرت على مركبٍ في النّيل، رِفقةَ رجلٍ واحدٍ، وكانت طوال الطّريق داخل السّجادة، وعندما وصلت أعادت زينتَها، ورتبت فتنتَها، ثم عادت إلى السّجادة إيذاناً بدخولها المهيب على قيصر!

وإن كنتَ تحسبُ أنّك لن تقرأ أعجب مما فعلته كليوباترة، فإنّي أقول لك: إنّ

هناك ما هو أعجب، بكل الأحوال إنَّ كليوباترة لم تأت باحثة عن الحبّ وإنّما جاءت لتستعيد عرشها عبر اصطياد قيصر!

ولكنَّ بعضَ النّاس يحبُّون رغبةً في الحبّ، وفي الشَّخص، فيسلكون لهذا الحبّ شبلاً لا تخطر على بال الأباليس أنفسهم!

روى ابن القيِّم في كتابه روضة المحبّين عن جابر بن نوح قال: كنتُ جالساً عند رجلٍ في حاجةٍ، فمرَّ بنا شيخٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثّياب، فقام إليه ذلك الرجل، فسلَّم عليه، وقال له: يا أبا محمَّد أعظم الله أجرك وربط على قلبك!

فلمّا مضى، قلتُ لصاحبي: من هذا الرَّجل!

فقال: رجلٌ منّا نحن الأنصار!

فقلتُ: ما قصّته؟

فقال: كان له ابنٌ أحبّته امرأة، فأرسلت إليه تشكو حُبّه، وتسأله الزِّيارة، وكان لها زوج، فألحّت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثتَ إليها بعضَ نساءِ بيتِك فتعظها وتزجرها أن تكفَّ عنك.

ففعل، فلم تزِد له إلا حبّاً، وأرسلت إليه تقول: إمّا أن تأتيَنِي وإمّا أن آتيك!

فأبى عليها، فلمّا يئِست منه، ذهبت إلى امرأةٍ كانت تعملُ السّحر، وأعطتها مالاً لتجعله يحبُّها، فأجابتها إلى ذلك، فبينما هو ذات ليلةٍ مع أبيه، إذ خطر ذكرُها في قلبه، وهاجَ منه أمرٌ لم يكن يعرفه، فقام مسرعاً، فصلّى واستعاذ، والأمر يشقُّ عليه، فقال لأبيه: يا أبتِ قيّدني بحبلٍ!

فقال له أبوه: ما قصّتك؟

فحدَّثه بالقصّة، فقام أبوه إليه فقيّده، فجعل يضطّربُ، ويخورُ كما يخور الثّور، ثم هدأ، فإذا هو ميّت، والدّم يسيلُ من أنفه!

لا كبير على الحبّ، وإنّه إذا نزل بساحِ قلبٍ زَلْزَله، وقلَبَ كيان صاحبه رأساً على عقبٍ، ولا حصانة لأحدٍ، فالنّاس كلُّهم لآدم، مشاعرهم واحدة، وإنّما يختلفون فيما

يصنعون إذا ضربهم الحبّ، فلا تعجب ممّن أحبّ، بل اعجب ممّن سلِم!

القانون الثَّالث: الحُبُّ يُغَيِّرُنَا!

لا أحد يمكنه أن يعبرَ البحرَ سباحةً دون أن يبتلّ، وكذلك الحبُّ فإنّه سيتركُ أثره فيك لا محالة! فكم من رقّةٍ فينا ما كنّا نحسبُ أنّها فينا، فلما أحببنا وجدناها! وكم من شِدّةٍ كنا نظنُّ أنّها الأصل في طبائعنا فإذا بالحبّ يُروّضنا! وكم أخذتْنا العزّةُ بالكرامة وقلنا لا نغفرُ ولا نرجع، فإذا بنا نغفرُ ونرجع! لا أحد مسّه الحبُّ فبقي بعده كما كان قبله!

كان في خُراسان شيخٌ يُعلِّمُ طلَّابه الحكمة، وكان يسألهم: أفيكُم عاشقٌ؟

فإذا قالُوا: لا!

قالَ لهم: يا بَنِيّ اعشقُوا، فإنَّ العشقَ يُطلِقُ الغبيّ، ويفتحُ ذهنَ البليد، ويُسَخّي البخيل، ويبعثُ على النَّظافة، وحسن الهيئة، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وشرف الهمَّة، وإياكم والحرام!

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرَّازي: إن ابنك عشقَ فلانة!

فقال: الحمدُ لله الذي صيَّره إلى طبعِ الآدمي!

الحُبُّ يُغيِّرُنا، فكم من رقَّةٍ فينا ما كنا نحسبُ أنَّها فينا، فلما أحببنا وجدناها، وكم من شِدَّةٍ كنا نظنُّ أنها الأصل في طبائعنا فإذا بالحبِّ يُروِّضنا! وكم أخذتنا العزَّةُ بالكرامة وقلنا لا نغفرُ ولا نرجع، فإذا بنا نغفرُ ونرجع! لا أحد مسَّه الحبُّ فبقي بعده كما كان قبله، ولستُ أبالغ إذ أقول لك: إنَّ الحبَّ يُعرِّفُنا أنفسَنا!

روى الفضلُ بن سهلٍ السَّرخسيّ إنَّ ملك الفُرسِ «بهرام جور» كان له ابن، وقد رشَّحه للملك بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمَّة، ساقطَ المروءة، خاملَ النَّفس، سيّء الأدب! فأوكل به إلى المؤدبين والحكماء ليعلموه، وكان يسألهم عن حاله، فيخبروه أن لا جديد!

إلى أن سأل بعض مؤدِّبيه يوماً، فقال له المؤدِّبُ: قد كنَّا نخشى سوءَ أدبه، فحدث أمرٌ صرنا نرجو فيه فلاحه!

فقال له الملكُ: وما ذلك؟

فقال: رأى ابنة فلانٍ المرزبان فعشقها، فغلبت عليه: فهو لا يهدأ إلا بها، ولا يتشاغلُ إلا بها!

فقال له الملكُ: الآن رجوتُ فلاحه!

ودعا بأبي البنت، وقال له: إنّي سأخبركَ بسرٍّ فلا تخبرْ به أحداً!

فأعلمه أنّ ابنه قد عشقَ ابنته، وأنّه يريدُ أن يزوِّجها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها أو تقع عينه عليها، فإذا استحكمتْ رغبته فيها أن تجتنبه وتهجره، فإذا أرسل يسألها، أن تخبره أنها لا تصلح إلا لملك! ثم لتعلمني خبره وخبرها، ولا تطلعهما على ما أُسرُّه إليك، فقبل أبوها منه ذلك!

ثم قال للمؤدِّب: شجِّعه على مراسلة المرأة!

ففعلَ ذلك، وفعلتِ الفتاةُ كما أمرها أبوها، فلما استحكمتْ منه، تغيَّرتْ عليه، وتنكَّرتْ له، فلما راسلها يستعلمُ الأمر، أخبرته أنَّها لا تصلح إلا لملكٍ، وأنَّه مستهترٌ ليس فيه شيء من هذه الصِّفات!

فبدأ يتعلَّمُ الأدبَ، وطلبَ الحكمةَ والعلمَ والفروسيَّةَ والرِّمايةَ حتى برع في ذلك براعة تعجَّبَ منها الملكُ قبل غيره!

ثمّ أمرَ الملكُ المؤدِّبَ أن يطلب منه أن يخبر أباه برغبته بالزَّواجِ منها، ففعلَ وحدَّثَ أباه بأمرها!

فبعث الملكُ إلى والد البنت وزوَّجها منه، وأمر بحملها إلى القصر، وقال لابنه: إذا اجتمعتَ أنت وهي فلا تُحدِثْ شيئاً حتى أصير إليك!

فلما اجتمعا، صار إليه وقال له: يا بُنيّ، لا يضعنَّ أمرها عندك مراسلتها إيَّاكَ فإنِّي قد أمرتها بذلك، وهي أعظم النَّاسِ مِنَّةً عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة، والتَّخلُّقِ بأخلاق الملوك، حتى بلغتَ الحدَّ الذي تصلحُ معه للملك من بعدي! فزدها من التَّشريف والإكرام بقدر ما تستحقُّ منك!

ففعل الفتى، وعاش مسروراً بامرأته، وعاش أبوه مسروراً كذلك، وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سرِّه، وأحسن جائزة المؤدِّب لامتثاله بما أمره به!

لا أحد يمكنه أن يعبرَ البحرَ سباحةً دون أن يبتلَّ، وكذلك الحبُّ فإنه سيتركُ أثره فيك لا محالة، وإنَّك قد رأيتَ كيف أنه أخرجَ شابًا من اللهو والعبث حتى جعله جديراً بالملك والحكم، وحين فشلت المواعظ، وأخفق المؤدِّبون، كان للحُبِّ سلطانٌ لا يُردُّ، وأمرٌ لا يُعصى!

ومن غرائب التّغيير وعجائبه، والحبّ وسلطانه، والهوى وصولجانه، ما حكاه ابن الجوزيّ في كتابه ذمّ الهوى، فقال: إنّ رجلاً عشق امرأةً نصرانيّةً، وأخذ هواها منه حتى أزال عقله، فحُمِل إلى البيمارستان/المشفى فأقام به مدّة، وكان له صديق يتعاهده بالزّيارة.

فقال لصديقه وقد أشرفَ على الموت: قد يئستُ من ملاقاة فلانة في الدّنيا، وأخاف ألا ألقاها في الآخرة إن متُّ مسلماً، فأشهدك أني على دين النصارى! ثمّ شهقَ ومات! فخرج من عنده فسمع بخبرها هي الأخرى، وكانت قد عشقته أيضاً، فقالت: قد يئستُ من لقائه في الدّنيا، وأخاف أن لا ألقاه في الآخرة إن مِتُّ نصرانيّةً، فأشهدكم أنّي على دين الإسلام! ثمّ شهقتْ وماتتْ!

وهذا والله الذي يُعاذُ منه، ويُخافُ وقوعه، أن يكون القلبُ في كفّةٍ والدّينُ في كفّة، فيختارُ المرءُ قلبَه وهواه! وإن كان يُفرِحُ من المرأة انتقالها من الكفر إلى الإيمان، فإنَّه يُرثى لهذا الذي خسرَ الدّارين!

أنا شخصيًا أتحفَّظُ على الارتباط بنساءِ أهل الكتابِ في هذا الزمن، وإن كان حلالاً لا شكّ في هذا، وما أحلّه الله تعالى فلا رأي فيه لأحدٍ، وما نحن مع أوامره ونواهيه إلا قوله تعالى في كتابه: سمعنا وأطعنا!

فإن لم يغلبكَ الحبُ غلبةً لا تستطيع معها إكمال حياتك بمن هويت من غير مِلّتك فتريّث، فما بعد الزّواج رحلة فيها مشقّة، فإنّ اختلاف العقائد والقيم، والأفكار والأولويّات متعبة، وهذا قبل مجيء الأولاد فكيف بعد مجيئهم؟!

ولستُ أنكرُ أنّي قد عرفتُ حالات تزوّج فيها مسلمون من نصرانيّاتٍ فما لبثنَ أن أسلمنَ، وحسن إسلامهن وفُقنَ حتى اللائي وُلدن على الإسلام عبادةً واجتهاداً، ولكن الغالبية لا تفعل، وهذا رأيي أنا والأمر إليك!

ولكن ما لا رأي فيه لا لي ولا لغيري هو ما صرنا نراه من زواج المسلمات في أوروبا خصوصاً من شبابٍ ما زالوا على نصرانيّتهم، يتذرّعْنَ بالحُبّ، وكأنّ الحبّ يبيح كل شيء! فإنّه زواج باطل ولو كُتب في ألف عقدٍ، وشَهِدَ عليه ألفُ شاهد! العلاقة فيه

زنى مهما حاول البعض أن يُجمِّلَ هذا الواقع المُرّ!

نعم يُغيِّرنا الحبُّ، لا نكران لهذه الحقيقة أبداً، ولكنّه أبداً لا يسلبنا إرادتنا، فنِعْمَ التّغيير إن كان إيجابيًا كما في قصة ابنِ الملك، وبئس التّغيير إن كان تفريطاً بالإسلام!

وما أجمله من تغييرٍ إن قاد إلى الحقِّ، وجُمِعَ في القلب الإيمانُ والحبُّ معاً، فقد دخل المرءُ وقتها جنّة الدُّنيا قبل جنّة الآخرة بإذن الله!

ومن جميلِ ما قرأتُ في هذا الباب، ما أورده ابنُ القيِّمِ في كتابه «روضة المحبين» حكايةً عن الحسن البصريِّ قال: كانت امرأةٌ بغِيٌّ في بني إسرائيل قد فاقت أهل زمانها حُسناً وجمالاً، وكانت لا تُمكِّنُ من نفسها إلا بمئة دينارٍ، وإنَّ رجلاً قد رآها فعلقت في قلبه وعشقها، فذهبَ يعملُ ويكدُّ، حتى جمع مئةَ دينارٍ وأتاها، وقال لها: إنّي قد عشقتُك، فانطلقتُ فعملتُ، وجمعتُ مئة دينار!

فقالت له: ادفعها إلى القهرمان حتى ينقُدُها ويزينها.

فلما فعل، وتطابقَ المال مع أجرتها، قالت له: أدخُلْ!

وكان لها بيتٌ منجَّدٌ، وسريرٌ من ذهب، فقالت: هَلُمَّ لك!

فما جلس منها مجلسَ الرَّجل من المرأة إذا أرادها، تذكَّر مقامه بين يدي الله، فأخذته رعدة، وانطفأتْ شهوته، وقال لها: دعيني أخرج، ولكِ المئة دينارا!

فقالت: ما أصابك وقد رأيتني فعشقتني كما زعمتَ، فذهبتَ وعملتَ وجمعتَ مئة دينار، فلمَّا قدرتَ عليّ تتركني؟!

فقال لها: ما حملني على ذلك إلا الخوف من الله، وذكرتُ مقامي بين يديه!

فقالت: لئن كنتَ صادقاً فما لي زوجٌ غيرك!

فقال: دعيني أخرج!

فقالت: لا، إلا أن تجعلَ لي عهداً أن تتزوجني!

فقال: لا، حتى أخرج!

فقالت: لي عليكَ عهد الله إن أنا أتيتُكَ أن تتزوجني!

فقال: لعلّ، وخرج من عندها إلى بلده،

وارتحلت هي بدنياها نادمةً على ما كان منها حتى جاءت بلده، فسألت عن اسمه، ومنزله، فدُلّت عليه!

فقالوا له لما رأوا جمالها: الملكة جاءت بنفسها تسألُ عنك!

فلما رآها، شهقَ شهقةً ومات!

فقالت: أمّا هذا فقد فاتني، فهل له من قريب!

فقيل: بلى، أخوه رجل فقيرٌ أعزب!

فقالت له: فإنّي أتزوجك حبًا لأخيك!

فتزوجته، وولدت له سبعة من الأبناء!

هناك دوماً متّسعٌ للرُّجوع إلى رضى الله مهما أخذتنا المشاعر بعيداً عنه، وإن العفّة ساحرةٌ، ساحرةٌ في النّساء، وفي الرِّجال، فقيّد هواك برضى الله أوّلاً، ثم بعد ذلك دعه يُغيّرك للأفضل، تخلّص من الخُلق السيّء الذي يزعجُ الحبيب، وكن جميلاً في عين نفسك ليراك هو جميلاً ويُكبرك، أما الانسياق وراء المشاعر مهما بلغث في قوتها وصدقها نحو ما لا يُرضي الله فهذا من المعصية التي لا تُبرّر، وقد أحسن من فَهِمَ أنّ الابتلاءَ أحياناً يأتي على هيئةِ مشاعر، وإنّ أشدّ ما يُبتلى به المرءُ في هذه الحياة قلبه!

القانون الرّابع: المُحِبُّ يسترُ ولا يفضَح!

لا أحد له سلطان على قلبه، الحبُّ سلطانُ القلوب، وله كلمته على النّاسِ جميعاً، وإنّ المرء لا يُؤاخذُ على ما في قلبه، وإنّما يُؤاخذُ على فعله، فاحمِ سرّك بأهدابِ عينيك، واكتُمْ أمركَ في قفصِ صدرك، فإنّما النّاسُ أعراض، وإنّ النّبيلَ من النّاسِ لا يرضى لعدوّه الفضيحة في عرضه، فكيف يرضاها الحبيبُ للحبيبِ؟!

هل سألتَ نفسكَ يوماً: لِمَ لَمْ يتزوج شعراءُ العربِ المشاهير حبيباتهم؟!

وما الذي حالَ بينهم وبينهنّ وقد غدتْ سيرتُهم على كلّ لسانٍ؟!

أنا أخبركَ، السَّببُ هو أنَّ سيرتَهم غدتْ على كلّ لسان!

العربُ كانتْ ترى أنّه من العار أن تُزوِّجَ بناتها لمن شبَّبَ بهنّ، أي قال فيهنّ غزلاً جرى بين النَّاس!

لهذا إنّ الذي منع الشُّعراء من حبيباتهم هم الشُّعراء أنفسهم ولا أحد غيرهم!

القصيدة الأولى التي قيلتْ في الحبيبة كانت بمثابةِ طلاقٍ بائنٍ!

كان الشَّاعرُ يعرف أنه إذا تغزَّل بحبيبته فإنَّه قد رمى عليها يمين الطَّلاق، ومع هذا كان يتغزَّل!

العربُ كانتْ، وما زالتْ، ترى أنَّ السّتر على الحبيب من مكارمِ الأخلاقِ، وأنَّه ليس من المروءة أن يعرضَ الرَّجلُ زوجته على النَّاسِ وهي زوجته، فمن باب أولى ألا يعرض حبيبته وهي عرضِ النَّاسِ ما زالتْ! وما زلنا نرى من آفات المحبّين أن يعرف بالأمر كلّ النَّاسِ وكأنَّ بينهما عشرة من الأولاد على سُنَّة الله ورسوله، وما بينهما إلا حبٌّ دخلَ في باب المجاهرة، والإساءة للحبيبة قبل الإساءة لأهلها، وهذا من غرائب عُشَّاق هذا الزَّمان الذين ربَّتهم المسلسلات الهابطة، وسمَّمت أفكارهم الرِّوايات الماجنة، ولم يطَّلعوا لا على مروءة الجاهلية في الحُبّ، ولا على أخلاق الإسلام في الهيام!

ومن جميل ما يُروى في هذا الباب، ما حكاه ابنُ الجوزيّ في كتابه ذمُّ الهوى، وابنُ القيّم في كتابه روضة المحبين:

عن رجل من الأغنياء قال: بينما أنا في منزلي ذات يوم، إذ دخل عليّ خادم لي وقال: رجل بالباب معه رسالة!

فقلت: أُدخِلْهُ، أو خُذ الرِّسالة، فأخذ الرِّسالة فإذا فيها:

شكوتُ بناتَ أحشائي إليكم

وما يشتكينَ إلى ظَلُومِ

وعندكَ لو مننتَ شفاءُ سُقمٍ

لأعضاءٍ دَمِينَ من الكلومِ!

فلما قرأتُ الأبيات، قلتُ: هذا والله عاشق!

وقلتُ للخادم: أدخله!

فخرج فلم يجده، فارتبتُ من أمره، وجعلَ الفِكرُ يتردّدُ في قلبي، فجمعتُ جواريَّ كلّهُنَّ، ثم قلتُ لهنَّ: ما قصّة الرّسالة؟

فحلفنَ لي، وقُلنَ: يا سيّدنا ما نعرفُ لهذا الكتاب سبباً، فمن جاءك به؟

فقلت: قد فاتني من جاء به، وما أردتُ سؤالكنّ إلا أنّي ظننتُ له هوىً في إحداكنّ، فمن عرفتْ منكُنّ أنّها صاحبته، فهي له، فلتذهبْ إليه، ولتأخذ كتابي إليه!

وكتبتُ رسالةً أشكره على فعله، وأسأله عن حاله، ووضعتُها موضعاً من الدّار، فبقيتْ أياماً لا يأخذها أحد!

فاغتممتُ غمًّا شديداً، وقلت: إنَّ هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع، وقد قنِعَ ممن يُحِبُّه بالنَّظر!

فمنعتُ جوارِيَّ من الخروج، فما كان إلا يومٌ وآخر، إذ دخل عليّ الخادمُ، ومعه رسالة، ففتحها، فإذا فيها:

حجبتَ من كان تحيا عند رؤيتها

روحي ومن كان يشفي ترائيها

لولا الحياءُ بُحنا بالذي كتمتْ

بنتُ الفؤاد وأبدينا تمنّيها!

فعجزتُ، وقلتُ: لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرّجل، وأمرتُ الخادم أن لا يأتيه

أحدٌ برسالةٍ إليّ إلا أمسكَه وأدخله عليّ!

ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك، وبينما أنا أطوفُ بالكعبة، أقبلَ فتىً نحوي، وجعل يطوف إلى جنبي، وينظرُ إليّ، فلما قضيتُ طوافي، خرجتُ، فتبعني، وقال لي: يا هذا، أتعرفني؟

قلتُ له: لا، ولستُ أنكرك لسوءٍ، ولكني لا أعرفك فعرِّفني نفسك!

فقال: أنا صاحب الرِّسالتين!

فما تمالكتُ نفسي أن قبّلتُ رأسه، وقلت له: بأبي أنت وأمي، والله قد شغلتَ قلبي، وأطلتَ غمّي بشدّة كتمانكَ لأمركَ، فهل لك فيما سألتَ وطلبتَ؟

فقال لي: بارك الله لك، وأقرّ عينك، وإنما أتيتُ أستحلُّك من نظرةٍ كنت نظرتها على غير الكتاب والسُّنة، والهوى داعٍ إلى كل بلاء، وأستغفر الله العظيم!

فقلتُ له: يا حبيبي، أحبّ أن تمضي معي إلى منزلي، فآنس بك، وقد وهبتها لك، ومعها مئة دينار، ولك في كل سنة مثلها!

فقال: باركَ الله لك فيها، فلولا عهود عاهدتُ الله عليها، ما كان في الدُّنيا شيءٌ أحبّ إليّ من هذا الذي تعرضه علي، ولكن ليس إلى ذلك سبيل!

فقلت له: فإذا أبيتَ أن تقبلَ منّي هذا، فأخبرني من هي حتى أكرمها لأجلك ما بقيتُ!

فقال: ما كنت لأذكرها لأحدٍ! ثم قام ومضى!

أرأيتَ أخلاقهم ونُبلَهُم إذا عشقوا، كان أحدهم يُغلقُ قلبه على حبيبه فلا يعلمُ ما في قلبه إلا الله! وهذا عاشقٌ قد بلغ من مكارم الأخلاقِ مبلغاً، فقد أحبَّ من طرف واحد، والجارية لا تعرفه ولا تعرف حبّه لها، وليس بينهما عهدٌ ولا ميثاق، ولكنّه كتم سرّها، وأخفى أمرها، ولم يذكرها لسيّدها حتى بعد أن طُويتِ الحكاية. حبٌّ عفيف مكتوم، بدأ في القلب وبقي فيه، ولك أن تقارن هذا بما تراه من عشّاقِ هذا الزمن حتى تعلم كم تغيّرَ النّاسُ، وكم هم بحاجةٍ إلى من يقولُ لهم: انتبهوا يرحمكم الله،

ولعلّ هذا أحد الأهداف التي أردتها من الكتاب، فلم أكتبه تنظيراً، ولا لأزدادَ به في عدادِ كتبي كتاباً، ولكن والله يسرّني أن أرى الحبّ نظيفاً، والمحبّ عفيفاً، فلا شيء في الدُّنيا أجمل من حبٍّ وقعَ في قلبٍ زيّنته مكارم الأخلاق!

وإن كنت قد رأيتَ في قصّة هذا الشاب الذي كتم حبّه عجباً، فما ستقرأه الآن أعجب، فإنّ الأول إنّما كتم وما كان لقاءَ كتمانه عقوبة، ولكن الثّاني كان مستعداً أن تُقطعَ يده ولا يُفشي سرَّ حبيبته، ولا أن يفضحها بين أهلها والنّاس، لعمري كانوا أقواماً أحبّوا بصدقٍ، فلما بلغتنا أخبارهم لم نحبّ الحبّ فقط، ولكن أحببناه من الطّريقةِ التي جعَلوه فيها في أعيننا، فنِعمَ المحبين كانوا!

قال الأصمعيّ: دخلتُ البصرةَ وأميرها يومذاك خالد بن عبد الله القسريّ، وكان صديقاً لي، فكنتُ في مجلسه يوماً، إذ جاء قومٌ قد تعلّقوا شاباً ذي جمال وكمالٍ وأدبٍ، بوجهٍ زاهرٍ حسن الصُّورة، طيّبِ الرّائحة، بهيّ الثّيابِ، فقدّموه إلى الأمير، فقال لهم: ما شأنكم وشأنه؟

فقالوا: هذا لصٌّ أصبناه البارحة في منزلنا!

فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته، فقال: خلّوا عنه. ثم أدناه منه وسأله عن قصّته.

فقال: إنّ القولَ ما قالوه، والأمرَ على ما ذكروه!

فقال له: ما حملك على ذلك وأنتَ في هيئةٍ حسنةٍ وصورةٍ جميلة؟

فقال: حملني الطّمعُ في الدُّنيا، وبهذا قضى الله سبحانه وتعالى! فقال له الأمير: ثكلتكَ أمك، أما كان في جمالِ وجهكَ وكمالِ عقلكَ وحسن أدبكَ زاجرٌ لك عن السّرقة؟

فقال: دعْ عنك هذا أيها الأمير، وأنفِذ ما أمركَ الله به، فذلك بما كسبتْ يداي، وما الله بظلّامٍ للعبيد!

فسكتَ الأميرُ ساعةً يتفكّرُ في أمره، ثم أدناه وأسرّ له بينه وبينه فقال: إنّ

اعترافك على رؤوسِ الأشهادِ قد رابني، وما أظنُّكَ سارقاً، وإنَّ لك قصَّةً غير السَّرقة فأخبرني بها!

فقال: أيُّها الأمير، لا يقعْ في نفسكَ غير ما اعترفتُ لك به، وليس عندي قصّة أشرحها لك غير أنّي دخلتُ دار هؤلاء فسرقتُ منها مالاً فأدركوني وحملوني إليكَ!

فأمرَ الأميرُ بحبسه، وأمرَ منادياً ينادي في البصرة: ألا من أحبَّ أن يشهد عقوبة فلانٍ اللص، وقطع يده، فليحضُرْ من الغد!

فلما انتهى الشّاب إلى السجن، تنفّسَ الصُّعداء، وأنشد يقول:

هدّدني خالد بقطع يدي

إن لم أبُح عنده بقصّتها

فقلتُ: هيهاتَ أن أبوحَ بما

تضمَّنَ القلبُ من محبَّتها

قطعُ يدي بالذي اعترفتُ

أهون للقلبِ من فضيحتها!

فسمعه حُرّاس السّجن، وأخبروا الأمير بذلك، فلما جنَّ الليلُ أمر بإحضارِه إليه، وحدَّثه، فوجده أديباً عاقلاً لبيباً ظريفاً، فأُعجبَ به، وأمر له بطعامٍ فأكلا وتحادثا ساعة!

ثم قال له خالد: قد علمتُ أنَّ لك قصَّةً غير السَّرقة، فإذا كان الغد، وحضر النَّاس والقضاةُ وسألتك عن السَّرقة فأنكِرْها، واذكُرْ فيها شبهاتٍ تدرأُ عنك القطع، ثم أعاده إلى السَّجن!

فلما أصبح النَّاس لم يبق بالبصرةِ رجلٌ ولا امرأةٌ إلا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى، وركب خالد ومن معه، ثم أمر بإحضارِ القضاة والفتى، فأقبل يجرُّ قيوده، وبكتْ عليه النساءُ لوسامته وظرفه وأشفقنَ قطع يده!

ثم قال له خالد: إنّ هؤلاء القوم يزعمون أنّك دخلتَ دارهم، وسرقتَ مالهم، فما تقول؟

فقال: صدقُوا أيُّها الأمير، دخلتُ دارهم، وسرقتُ مالهم!

فغضبَ خالد، وقام إليه بنفسه، وضربه على وجهه!

ثم دعا بالجلاد ليقطعَ يده، فحضرَ وأخرج السّكين، ومدّ يده ووضعَ عليها السّكين، فخرجتْ جاريةٌ من صفِّ النّساء، فصرختْ ورمتْ نفسها عليه، ثم أسفرتْ عن وجهٍ كأنّه البدر، ونادتْ بأعلى صوتها: هذه رسالة إلى الأمير!

ففتحها خالد فإذا فيها:

أخالدُ هذا مستهامٌ متيّمُ

رمته لِحاظي من قسيّ الحمالقِ

أقرّ بما لم يقترفه لأنّه

رأى ذلك خيراً من هتيكة عاشقِ

فلما قرأ الأبيات تنحّى واعتزل النّاسَ وأحضرَ المرأة، ثم سألها عن القصّة فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي كذلك، وأنّه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه، فرمى حجراً في الدّار، فسمع أبوها وأخوتها صوت الحجر، فصعدوا إليه، فلما أحسَّ بهم، جمع ما وجدَ من مالٍ ومتاعٍ وجعله في صُرّةٍ، فأخذوه، وقالوا: هذا سارق! وأتوا به إليك، فاعترف بالسّرقة، وأصرَّ على ذلك كي لا يفضحني بين إخوتي، وهانَ عليه قطع يده كي يستر عليّ، وكل هذا لغزارة مروءته وكرم نفسه!

فقال خالد: إنّه خليق بذلك، ثم استدعى الفتى إليه، وقبّلَ رأسه، وأمر بإحضار أبي الجارية، وقال له: يا شيخ، إنّا كنا عزمنا على إنفاذِ الحكم على هذا الفتى بالقطع، وإن الله عصمه من ذلك، وقد أمرتُ له بعشرةِ آلاف درهم لبذله يده، وحفظِه لعرضِك وعرضِ ابنتك، وصيانته لكما من العار، وقد أمرتُ لابنتك بعشرة آلاف درهم، وأنا أسألك أن تأذن لي بتزويجها منه!

فقال الأب: قد أذنتُ بذلك أيُّها الأمير!

قصصٌ واللهِ أقرب إلى الخيال، ولولا أنّي كنت أجدُ القصّة الواحدة في كتب كثيرة لقلتُ هذا تأليف كاتب، ولكن ما كان للنّاسِ أن يتواطأوا جميعاً على اختلاق شيءٍ جميل، والناظر في مكارم أخلاقهم كلّها لا يستغربُ أبداً أن يكون نبل الحبِّ فيهم! فهذه هي قيم القومِ سادتهم وعوامهم وهذا ما يدعو للعجبِ أكثر!

ولم يكن الواحد منهم يحفظُ شأن قلبه فقط وإنما شؤون قلوبِ النّاسِ أيضاً، فإن عجبتَ كيف لحُرٍّ أن يخاطرَ بقطعِ يده لحفظ عرضِ امرأةٍ هي حبيبته، فاسمع لابنِ حزمٍ وهو يُحدّثك في طوق الحمامة:

وإنّي لأعلمُ امرأةً موسرةً ذات جَوارٍ وخدم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتىً من أهلها ويعشقها، وقيل لها إن جاريتك فلانة عندها خبر الجارية وحبيبها، فاستنطقيها تخبرك بأمرهما!

فاستنطقتها فأبت أن تخبرها بشيءٍ، فاغتاظت منها، فأذاقتها من أنواع الضّرب والإيذاءِ ما لا يصبر عليه الأشدّاء من الرجال، رجاء أن تبوح لها بشيءٍ مما تعلمه عنهما، فلم تخبرها بذلك أبداً!

ليس النُبلُ يا صاحبي أن نحفظ أسرارنا فقط، وإنّما النُبلُ في أن نحفظ أسرار النّاسِ أيضاً! الأعراضُ عوراتٍ، فما كُشِف منك فغطّه، فإنّ هذا من مكارم الأخلاق، ومن علامات الإيمان، فإنّ المؤمنين أشفق النّاسِ قلوباً، وأكثرهم إحساساً بالنّاسِ، وأشدّهم حرصاً على السّتر!

يقولُ ابنُ حزمٍ في طوقِ الحمامة: وإنّي لأعلم امرأةً جليلةً حافظةً لكتاب الله، ناسكةً مُقبلةً على الخير، قد ظفرتْ برسالةٍ من فتىً إلى جاريةٍ كان يحبُّها، وكانت في غير ملكها، فأخبرته بالأمر، فحاولَ الإنكار فلم يستطعْ!

فقالت له: ما لك، ومن ذا عُصِم؟ فلا تبالِ بهذا، فوالله لا أطلعتُ على سرّكما أحداً، ولو أمكنني أن أبتاعها لكَ من مالي، ولو أحاط به كلّه، لجعلتُها لك!

تأمّلْ قولها: من ذا عُصِم؟!

لا أحد له سلطان على قلبه، الحبُّ سلطانُ القلوب، وله كلمته على النَّاسِ جميعاً، وإنّ المرء لا يُؤاخذُ على ما في قلبه، وإنَّما يؤاخذ على فعله، فاحمِ سرَّك بأهداب عينيك، واكتُمْ أمركَ في قفصِ صدرك، فإنَّما الناس أعراض، وإنّ النّبيلَ من النَّاسِ لا يرضى لعدوّه الفضيحة في عرضه، فكيف يرضاها الحبيبُ للحبيبِ؟!

القانون الخامس: اِعشقْ ولا تتملّك!

كثيراً ما يخلطُ النّاس بين الحُبّ، وبين حبّ التملك! رغم أنّ المسافة بينهما كما بين المشرق والمغرب! فالحبُ هو محاولةٌ حثيثةٌ لإسعادِ شخصٍ، بينما حبُ التّملكِ هو محاولةٌ مستميتةٌ لامتلاكِ شيءٍ، وإن كانت هذه المحاولة مغلّفة بالعاطفة، ومن هنا أتى الخلطُ بينهما! والمتملّك إنّما يهتمُّ بقدر ما يشعرُ هو برضىً ولذّةٍ، ولا يعنيه أبداً ما لهذا الرّضى وهذه اللذة من ضررٍ على الشّخصِ الذي يتملّكه!

كثيراً ما يخلِطُ النَّاسُ بين الحُبِّ، وبين حبِّ التملك! رغم أنَّ المسافة بينهما كما بين المشرق والمغرب! فالحبُّ هو محاولةٌ حثيثةٌ لإسعادِ شخصٍ، بينما حبُّ التَّملكِ هو محاولةٌ مستميتةٌ لامتلاكِ شيءٍ، وإن كانت هذه المحاولة مغلَّفة بالعاطفة، ومن هنا أتى الخلطُ بينهما!

روى ابنُ حِبَّانَ أنَّه قد قيلَ لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب ما رأيتِ من النَّبيِّ ﷺ.

فبكت، وقالت: وأيّ شأنِه لم يكن عجباً؟! أتاني ليلةً فدخلَ معي في فراشي، حتى مسَّ جلدي جلدَه، ثم قال: يا ابنةَ أبي بكرٍ، ذريني أتعبّدُ ربّي!

فقلتُ: إنّي أحبُّ قربكَ ولكنّي أُوْثِرُ هواكَ!

ولو قيلَ لي: ما أجمل ما قيلَ في الحُبِّ على مرِّ التَّاريخ؟

لقلتُ: هو قولَ عائشة، إنِّي أحبُّ قربكَ ولكنّي أُوْثرُ هواكَ!

فهكذا هو الحبيب، يعشقُ ولا يتملَّكُ، يربطُ حبيبه من قلبِه، ولكنَّه يرخِي له ليسعد! يُقدّمُ سعادة حبيبه على سعادته، وهوى حبيبه على هواه! وما الحبّ إلا أن تسعد إذا رأيت حبيبك سعيداً، أن تبتهج إن سلطتْ عليه الأضواءُ ولو كنتَ في الظلِّ، أن تغتبطَ إن رأيتَ على وجهه ابتسامة ولو كان في قلبكَ غصّة!

أما حبُّ التَّملكِ فهو تعاملٌ مع شيءٍ أكثر منه تعامل مع شخصٍ، والمتملِّكُ إنَّما يهتمُّ بقدر ما يشعرُ هو برضىً ولذَّةٍ، ولا يعنيه أبداً ما لهذا الرِّضى وهذه اللذة من ضررٍ على الشَّخصِ الذي يتملَّكه!

تصلني يومياً عشراتُ الرِّسائلِ في مواقع التَّواصل، وأحياناً أشعرُ أنَّ النَّاسَ تحتاجُ إلى فضفضةٍ أكثر من حاجتها إلى حلول، يريدُ الواحد منَّا أن يُلقي أحمالاً على كتفه إلى شخصٍ ما، يريدُ أن يصرخ ولو بطريقةٍ لبقةٍ كأن يكتب كلاماً فيه غصّة! شاركني النَّاس بعض همومهم، أطلعوني على بعض جروحهم، وتخففوا من أثقالٍ على أكتافهم، وعلى الرَّغم من أنّي قليل التفاعل مع هذه الرَّسائل لكثرتها ولضيقِ وقتي، ولاقتناعي أنّي لا أملك حلولاً لكلِّ المشكلات، أو لاقتناعي أنَّ بعض المشكلات ليس لها حلّ!

ولكن فكرة أن يتحدّث المرء، أن يشعرَ أنّ ثمّة من يسمعه هي فكرة مريحة، ولهذا السبب لم أغلق صندوق الرسائل! وعلى مدار سنوات اقتنعتُ أنّ حبَّ التّملّك موجود فعلاً وقد كنتُ من قبل شاكًّا فيه، إذ كنت أعتبره تعبيراً متطرّفاً عن الحبّ ليس إلا! ولكنّ الحقيقة في غير هذا تماماً!

حين يخرج الزّوجُ مع أصدقائه وترسل إليه زوجته مرّةً لتطمئنّ عليه، وتعرف أنّ أموره بخيرٍ هو حبٌّ بلا شك، ولكن حين تتصلُ عليه في السّاعةِ الواحدة خمسين مرّةً، وترسل له مئةَ رسالة، وحين يكون بين يديها لا تُظهر شيئاً من هذا الاهتمام فهذا هو حبُّ تملُّكٍ، إنّها هنا لا تُعبّرُ عن حبّها وإنّما تطمئنُّ عن شيئها!

وحين يرافقُ الزّوجُ زوجته إلى بيت أهلها، أو يصحبها لتقضي حاجاتها من السّوق فهذا حبٌّ لا شك، ولكن حين يحبسها في بيتها، بل وبعضهم يُقفِل عليها باب البيت ويأخذ المفتاح معه، فهذا ليس حبًّا، إنّه تعاملُ صيّادٍ مع عصفوره، ما دام هو في القفص فهو مطمئن، فتح بابِ القفص يُربكه!

نصيحةُ الزّوجِ لزوجته في إدارة مالها، وتشاركهما الرّأيَ والحوار في موارد الأسرة المشتركة، أو في مال كل واحدٍ منهما دلالة على علاقة سليمة طيّبة، ولكن محاولة إدارة الواحد منهما الآخر بجهازٍ تحكّمٍ تحت ذريعة الحماية فهذا هو أحد مظاهر حبّ التّملّك!

الاهتمامُ شيءٌ جميلٌ جداً، ولا يبقى شيءٌ من الحبّ إن غاب الاهتمام، ولكن الاهتمام النابع من حبِّ التّملّك أشبه بحبلِ المشنقة يخنقُ ولا يسعِد! وغيرة كلّ من الزوجين على الآخر من المشاعر العذبة التي تستهوينا جميعاً، ولكن الغيرة في الحبّ غيرة متعقّلة دون الشّكِ والوسوسة! أما غيرة حبّ التّملّك جحيم لا يُطاق، لا أحد يستطيع أن يعيش وهو متّهم، عليه أن يثبتَ دائماً أنّه بريء!

لا شكّ أنّ أكبر مساحة في حياة أحدنا يجب أن تكون لشريك عمره، ولكن ما لا نقاشَ فيه هو أنّه يجب أن تكون لكلّ واحدٍ منهما مساحته الخاصّة، ولستُ أبالغ إذ أقول إن هذه المساحة الخاصّة لها أثر طيّبٌ على علاقة الزّوجين ببعضهما وإن كان كل واحد منهما يعيشها وحده، لأنّ هذه المساحة تساعد على السّلام النّفسيّ،

والاستقرار العاطفيّ، ومتى ما حصل المرءُ عليهما كان أقدر على تقديم الحبِّ، أمّا الإنسان المضطرب، المخنوق، الذي يعيش كأنّه سجين مُراقَب يستحيل أن يقدّم عاطفةً جميلةً وصادقةً!

جميلٌ جداً لو كان للزَّوجين هواية مشتركة، ولكن ما المانع أن يكون لكلِّ واحدٍ منهما هواية يتنفَّس بها الصُّعداء، ما دام يمارسها بتعقُّلٍ دون المساس باهتمامه بشريكِ حياته! ما المشكلة لو أحبَّ الزَّوجُ الصَّيد وخرج مع أصدقائه في يوم عطلةٍ، وأحبَّتِ الزَّوجة الأشغال اليدويّة وأعطت لها ساعةً من نهارٍ؟!

ما المشكلة في اللحظة التي يكون فيها الزَّوجُ شغوفاً بكرة القدم، ويريد مشاهدة مباراة هامة مع أصدقائه، أن تقرأ الزوجة لأنها تحبُّ ذلك، أو أن تتسوَّق!

على الأقل سيكون لدينا أشياء نخبرها ونتحدَّث عنها، وإبداء الاهتمام بتجارب الشريك شيءٌ ساحرٌ وفتّان، بالمقابل إنَّ التَّعاطي باستخفافٍ مع هواياته واهتماماته يقتل الحبَّ، ومخطئٌ من يعتقد أنَّ الحبَّ يبقى على وتيرةٍ واحدةٍ، لا، هو يزيد وينقص بالمعاملة! الكثير من الزَّواج التَّقليديّ صار عشقاً بالاهتمام وحسن الخُلق والعِشرة، والكثير من الزَّواج الذي كان ثمرة حبٍّ انتهى بالطَّلاق وهذه حقيقة مُعاشة لا تحتاجُ إلى كثير نقاش!

أسوأ ما في حبِّ التَّملكِ هي كميَّة الأذى التي تطالُ الشَّريك!

كان الطبيب النَّفسيُّ «ملتون إريكسون» أعجوبةً في مجاله، وذات يوم قصدته امرأةٌ تشتكي زوجها الذي يبتزُّها عاطفيًا بادِّعاء مرض القلب، كي يبقيها في حالة استنفارٍ دائم، ويسيطر عليها بشتى الطُّرق، وقد قال الأطباء إنَّ قلب الزَّوج لا يشكو من أيِّ عيبٍ!

كان الزَّوجُ يعيش الحالة تماماً، ولا يكفُّ عن القول إنه سيموت بسكتةٍ قلبيَّةٍ!

وكانت الزَّوجة تشعرُ بالقلقِ والغضبِ والإحساسِ بالذَّنبِ طوال الوقت.

طلب منها الطبيب أن تستمرَّ في إبداء التعاطف مع زوجها، ولكن المرَّة المقبلة التي يتحدَّثُ فيها عن السَّكتةِ القلبيَّةِ عليها أن تقول له بكلِّ تهذيبٍ إنَّها بحاجة إلى

ترتيب البيت! ثم تقوم بوضع كُتيِّباتٍ إعلانيّةٍ تكون قد جمعتها من دور دفن الموتى وتوزّعها في البيت! وحين يأتي على ذكر السّكتة القلبيّةِ مجدداً تجلس إلى المكتب وتبدأ بالقيام بالحسابات المتعلّقة ببوليصة التأمين على الحياة!

في البداية ثارت ثائرة الزّوج، ولكنّه سرعان ما بدأ يخشى رؤية الكتيّباتِ وسماع صوت الآلة الحاسبة!

وفي نهاية المطاف توقّفَ عن التّحدث عن قلبه، وأُجبر على التعامل مع زوجته بصورة مباشرة!

الأمراض الجسديّة يعاني منها المريض وحده، وقد يتعاطفُ من حوله معه، أمّا الأمراض النّفسيّة فعلى العكس تماماً، المريضُ لا يشعر بمرضه، والذين معه هم الذين يُعانون!

المريضُ بالبخِل مثلاً لا يشعر أنّ المال بالنّسبة إليه إله معبود، أكثر ما يشعر به أنّ في نفسه حاجتين يجب أن تُشبعا: الحصول على المال وعدم إنفاقه! لهذا فإن مشكلة البخيل ليست نابعةً من علاقته بالآخرين، وإنّما من علاقته بنفسه، ثمّة تهديدٌ يطالُ تركيبته النّفسيّة إذا طُلبَ منه المال! وفي سبيل الحصول على استقراره النّفسيّ يعاني من يعيش معه!

أحبّوا ولكن برفقٍ، اهتمّوا ولكن لا تخنقوا شركاءكم، غارُوا ولكن لا تكونوا موسوسين، القيود لا تُبقي أحداً معك إنّها تؤذيه فقط، لا شيء يُقيّد النّاسَ كالحبّ الحقيقيّ! دع شريك عمرك يحبّكَ وأطلقه، فهو لك حيثما كان، قيّده واخنقه فهو ليس لك ولو جمعكما قفص صغير لا بيت!

القانون السّادس: الطّبعُ مِفتاحُ الحبيبِ،

إِخصَلْ على مفَاتيحِكَ!

الطّبعُ أشبه ما يكون بدليلِ استخدام الأجهزة الكهربائيّة، أنت حين تشتري جهازاً كهربائيًا جديداً فإنّكَ تقرأ دليل الاستخدام، لأنّكَ تعلم أنَّ فيه معلوماتٍ مفيدةً ستساعدك في أمرين هامين جداً: الأول: الحصول على أفضل النتائج منه، والثّاني: عدم إتلافه!

لهذا فإن الذي يفهم طبع شريك حياته جيداً هو أقدر من غيره على الاستمتاع برحلة العمر بينهما، الكثير من المشكلاتِ سيتمُّ تجنُّبها، والكثير من الودّ سيتمُّ الحصول عليه!

الطّبعُ مفتاحُ المرء، ومن امتلكَ المفتاح سَهُلَ عليه الدُّخول، ومن أضاع المفتاح ما يلبثُ أن يكسَر البَاب!

في كلِّ واحدٍ منّا طباع، ونحن نألفُ أولئك الذين يشبهوننا في الطّباع، أو أولئك الذين يتعاملون معنا وفق طباعنا! فإن كانت الأولى خِلقةً ولا سبيل لاكتسابها، فإنَّ الثّانية مُتاحة، وما زال بالإمكان مراعاة طباع النّاس! فالذي يعرفُ طباع الناس الذين يتعامل معهم يُهوِّن على نفسه وعلى الآخرين فسادَ المودّة، تماماً كالطبيب الذي إذا شخّص المرض سَهُلَ عليه وصف العلاج، فلا يمكن لأحدٍ أن يتعاملَ مع شيءٍ لا يفهمه!

الطّبعُ أشبه ما يكون بدليلِ استخدام الأجهزة الكهربائيّة، أنت حين تشتري جهازاً كهربائيًّا جديداً فإنّك تقرأ دليل الاستخدام، لأنّك تعلم أنَّ فيه معلوماتٍ مفيدةً ستساعدك في أمرين هامين جداً:

الأول: الحصول على أفضل النتائج منه!

الثّاني: عدم إتلافه!

لهذا فإن الذي يفهم طبع شريك حياته جيداً هو أقدر من غيره على الاستمتاع برحلة العمر بينهما، الكثير من المشكلاتِ سيتمُّ تجنُّبها، والكثير من الودِّ سيتمُّ الحصول عليه!

طبعاً نحن نحتاج إلى معرفة طباع كل الذين نتعامل معهم عن قرب، الأهل، الأصدقاء، زملاء العمل، ولكنّنا أحوج ما نكون لمعرفة طبعِ شريك العمر، لأنَّ الطبعَ مفتاح المرء، ومن امتلكَ المفتاح سهل عليه الدخول، ومن أضاع المفتاح ما يلبثُ أن يكسر الباب! ولستُ أبالغُ إذ أقول إنَّ معرفة طباع الآخرين يجعلك قادراً على التّحكم بأفعالهم وردّاتِ أفعالهم أيضاً، أو على الأقل يجعلك قادراً على توقُّعها، كلُّ تصرُّفاتنا في هذه الحياة منساقةٌ مع طباعنا!

في القرنِ الثّاني عشر هاجم المغولُ بقيادة «جنكيز خان» الصّين، واحتلوا مدناً كثيرة، وكانوا كلما احتلوا مدينةً أبادُوا سكّانها، وكان جنكيز خان همجيًا لا يقدّر قيمة الحضارة، ولم يكن يرى في الصّين غير بلادٍ شاسعةٍ تصلح لرعي خيوله، لهذا عزم على قتل الصّينيين جميعا! ولكن رجلاً واحداً يُدعى «شو أوستاي» استطاع إنقاذ بلدٍ

كبيرٍ كالصِّين!

لم يكن صينيًا، ولكنّه تربّى فيها وأحبّها كأنها بلده، وكان خارق الذكاء، واستطاع أن يصل بذكائه إلى مرتبة مستشارٍ عند «جنكيز خان»!

اقترح عليه أوّلاً ألا يدمّر المدن ولا يقتل سكانها، ولكن أن يحتلها، ويفرض عليهم جزيةً وبهذا تزدادُ أمواله!

وعندما توجّه «جنكيز خان» إلى مدينة كايفنغ، وتمكن من احتلالها بعد حصارٍ طويلٍ، قرّر أن يقتل الجميع فيها. ولكنّ «شو أوستاي» قال له: إنّ أفضل مهندسي الصِّين وحرفييها ومفكريها قد هربوا إلى المدينة، وأنّه بدل قتلهم من الأفضل أن يستخدمهم لتوطيد أركان ملكه!

ومرّةً أخرى اقتنع «جنكيز خان» وأظهر رحمةً لم تكن معروفةً عنه، وقرّرَ الإبقاء على سكان المدينة!

في الحقيقة كان «شو أوستاي» يعرفُ أنّ «جنكيز خان» آخر ما يهتمُّ له هو بناء حضارة، وأنّه همجيٌ لا يرتوي إلا بتدميرِ البلاد، وقتلِ العباد!

Telegram:@mbooks90

ولكنه كان يعرفُ الطَّبعَ المسيطر عليه، الطَّمعُ لا غير!

لهذا أقنعه أن يعفو عن المدن والنَّاسِ عبر دغدغةِ طبعِ الطَّمعِ فيه!

الأسلوب الذي ينفع مع إنسانٍ قد لا ينفع مع غيره، والحكيم هو الذي يعرف مفاتيح الأشخاص الذين يتعامل معهم! أمّا افتراض أنّ الأسلوب سيؤتي نفس الثّمار مع جميع الأشخاص، فهذه حماقة تُشبه علاج المرضى جميعاً بدواءٍ واحدٍ، وتوقُّع أن يشفوا! ونحن وإن كنّا بحاجة إلى فهم طباع كلّ الذين نتعامل معهم ليسهلَ علينا التّعامل معهم، فإنّ أكثر من نحتاج لفهم طباعهم هم أولئك الذين تربطنا بهم محبّةٌ ومودّةٌ، أولئك الذين ربطنا مصائرنا بمصائرهم، أعطيناهم بعهد الله وميثاقه ما لم نُعطِ غيرهم، وكنّا معهم إلْفَين، قلبٌ ونبضُه، جفنٌ يعانقُ جفناً مع كلّ رمشةِ عين، ويدٌ بيدٍ نهوّنُ على بعضنا مشقّةَ الطّريق!

روى الشَّيخانِ في صحيحهما عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها، قالت: تزوَّجني الزُّبيرُ وما له في أرضِه من مالٍ ولا مملوك ولا شيءٍ غير ناضحٍ/ جمل يُستخدم للسقاية، وفرسه!

فكنتُ أعلفُ فرسه، وأستقي الماء، وكنتُ أعجن، ولم أكن أحسِن أن أخبز، وكان يخبزُ لي جاراتٌ من الأنصار، وكُنَّ نسوة صدقٍ!

وكنت أنقل النَّوى من أرض الزُّبير على رأسي، وهي منِّي على ثُلثي فرسخ!

فجئتُ يوماً والنَّوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني ليحملني خلفه، فاستحييتُ أن أسير مع الرِّجال، وذكرتُ الزُّبير وغَيرتَه، وكان أغير النَّاس!

فعرفَ رسولُ الله ﷺ أنِّي قد استحييتُ فمضى.

فجئتُ الزُّبيرَ فقلت: لقيني رسولُ الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخَ لأركبَ، فاستحييتُ وذكرتُ غيرتكَ! فقال: واللهِ لحملك النَّوى على رأسك كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه!

مراعاة طباع شريك العمر لها علاقةٌ به وبك فقط، وليس بالنَّاسِ الذين بينكما!

راعتْ أسماء بنت أبي بكر طبع زوجها شديد الغيرةِ، ولم تركبْ خلف النَّبيِّ ﷺ وهو أطهر مخلوقٍ في تاريخ البشريَّة، فإن كان من وفاءٍ فهوَ، وإن كان من خُلقٍ فهوَ، وإن كان من حياءٍ فهوَ، ومع هذا لم تركبْ أسماء!

عندما يُخبركِ زوجكِ أنَّ أمراً ما يُضايقه تجنَّبيه، هذا مقام الاحتواء والطَّاعة، لا مقام الفلسفة، العنادُ يقتلُ الحُبّ! وعندما تخبركَ زوجتُكَ أنَّ أمراً ما يزعجها، أيًّا كان هذا الأمر، فعليكَ أن تتجنَّبه لا أن تجلس لتشرحَ لها كيف ترى الأمر من زاويتكَ!

لا شكَّ أن الحوار مطلوب، والنِّقاش دليل عافيةٍ في العلاقة، ولكن مراعاة الطَّبع شيءٌ لا بدَّ منه لاستمرارِ العلاقة حيَّةً معافاة، فكثيرٌ من العلاقات قائمةٌ بالظَّاهرِ ولكنَّها ميتة في الحقيقة، فالعلاقات لا تموت بانتهائها وإنَّما تموت حين يموتُ ما بين

الشّريكين!

القانون السّابع: جميعنا نكسِرُ قواعدنا لشخصٍ ما!

غريبٌ هو العشق، واللهِ غريب، وإنّك لترى الرّجل الحازم الذي له عقلٌ يزِنُ بلداً، فتقول: ما للعشقِ على هذا من سبيلٍ! ثم تطرحه عينٌ كحيلةٌ بالضّربةِ القاضية، فتسلبه نومَه وزُقَادَه! ويفتكُ به رمشٌ، فيقلبُ حياته رأساً على عَقِب!

وإنّك لترى المرأة المُتّزنة، العفيفة، الثّقيّة، تروحُ وتجيءُ، فتقولُ في نفسك: ما لهذه المرأة من قلبٍ! فإذا ما مسّها الحُبُّ، لم يترُكْ فيها شيئاً ساكناً!

في داخل كلِّ واحدٍ منّا إنسانٌ آخر لا يعرفه النّاس، وأحيانا لا نعرفه نحن! فإذا جاء من يستطيع إخراجه من قمقمه عرَفَه النّاس فينا، وعرفناه نحن معهم، الحُبُّ يُعرِّفنَا أنفسَنَا!

الكثيرُ من الفتياتِ وهُنَّ في بيوت أهاليهنَّ كان فيهنَّ طباع لا تُبشِّر بأنهنَّ قادرات على الارتباط وتكوين أسرة، لربما كُنَّ فظَّاتٍ قليلاً مع إخوتهنَّ، حتى إنَّ الأمَّ لتقول: كيف ستعيش هذه في بيت رجلٍ؟!

وبعضهنَّ كنَّ لا يتنازلنَ ولا ينصَعْنَ، لا يقبلنَ النَّصيحة فضلاً عن أن يتقبَّلنَ الإملاءات!

ولا تستغربْ حين أقولُ لك إن بعضهنَّ قد صرَّحنَ غير مرَّةٍ أنهنَّ غير راغباتٍ في الارتباط، ولا يرينَ الزَّواج مشروعاً ناجحاً!

ثم في يومٍ وليلةٍ، تغيَّرتِ الكثير من القناعات، وتحوَّلَ الرَّفضُ الصَّارم إلى قبول!

ومع الأيَّام تفاجأ الجميع أنَّ هؤلاء الفتياتِ قد تحوَّلنَ فعلاً إلى أُخريات!

تلك التي كانُوا يستغربُون كيف ستعيشُ في بيت رجل ها هي تعيش آمنةً مطمئنَّةً!

وتلك التي كانت فظَّةً قليلاً مع إخوتها، ظهرَت فيها أنوثةٌ ورِقَّةٌ لم تعرفها حتى هي من قبل!

وذلك العناد والشَّخصيَّة القويَّة ما لبثت أن تروَّضت فصارت شيئاً عذباً مستأنساً، فإذا هي هيِّنةٌ ليِّنةٌ وتتركُ طوعاً وبكاملِ رضاها أشياءَ كثيرة ما كانت تتركها من قبل!

ولا تستغربْ حين أقول لك إنَّ الكثير من الشَّبابِ كانوا وهم في بيوت أهاليهم فيهم شِدَّةٌ وحزمٌ فوق العادة، وقد عاملوا أخواتهم في البيتِ بشيءٍ من هذا، فكأنَّهم لا يُفرِّقُون بين طبعِ الأخِ وطبعِ الأخت، حتى مزاحهم كان مؤذياً شيئاً ما نظراً للفارق في القوَّة الجسمانيَّةِ بين الشَّاب والفتاة، وإنَّك لتقول كيف لمثل هذا أن يعامل امرأةً في المستقبل؟

ثم جاء المستقبلُ فرأيتَ منه رِقَّةً ما كنتَ تعتقدُ أنَّها فيه، وهذا ليس له علاقة بأنَّها

تحكمه أو تُديره، ذاك موضوع آخر تماماً، لا هو الآن سيِّد بيته وحياته، ولكنَّه الآن غير ذلك الذي كنت تعرفه!

وكم من شابٍّ كان فيه من يباسةِ الرَّأسِ أنه لا يسمع إلا رأيه، ولا يقبلُ ملاحظةً فضلاً عن أن يقبل إملاءً، ثم جاء الحبُّ، فإذا ذلك الأسد الشَّرِسُ قد صار مستأنساً! وكم من شابٍّ رأيت عزَّةَ نفسه حتى أنَّه من فرطها قلتَ في نفسك إن نقلَ جبلٍ من مكانه أسهل عليه من أن يعتذر! ثم جاء الحبُّ، فإذا به يعتذرُ ويلينُ ويُراضي!

وكم من شابٍّ كان له رأيٌ غريبٌ في النِّساءِ لا تعرفُ من أيِّ متخلِّفٍ اكتسبَه، فهو يُصرِّحُ ليلاً نهاراً أنَّه ضدّ فكرة الارتباط، وأنَّ الأمر لا يستحقُّ، وأنَّ النِّساءَ جنسٌ من المخلوقاتِ لا يمكن ربط المصيرِ بهنَّ، ثم جاء الحبُّ، فإذا بامرأةٍ كسرتْ كلَّ قواعده، وأصبح الارتباط بها أمنيته الوحيدة في هذه الدنيا!

فإن قيلَ لك إنَّ جميعنا نكسرُ قواعدنا لشخصٍ ما فصدِّقْ!

كان توفيقُ الحكيمِ رافضاً رفضاً قاطعاً لفكرةِ الزَّواج، إلى درجة أنَّه عندما تزوَّج تفاجأ الجميع! كان الأمر ملفتاً جداً كانقلابِ شاحنةٍ في وسط الطَّريق، غريباً كمنظرِ فقمةٍ في وسط الصَّحراء، ومتناقضاً كأن يُقرِّر أكبر محاربي التَّدخين أن يشتري علبة سجائر ويدخِّن!

الرَّجلُ الذي طالما ردَّدَ أنَّه ضد فكرة إنشاء أسرة، قرَّرَ أن يُنشئَ أسرة!

والكاتب الذي كان يعتبرُ المرأة قيداً قرَّرَ أن يُقيِّد نفسه!

لا أحد استطاعَ أن يفهم ما حدث، وأنا شخصيًا أعتقد أنَّ توفيق الحكيم نفسه لم يفهم بداية الأمر ما حدث! كان يشعر بالأمر في أعماقه ولكنَّه يستميتُ في تجاهله وإنكاره، يمشي خطوةً إلى الأمام ويرجعُ خطوتين إلى الوراء، كان يفزعه أن يسقط بالضَّربة القاضية، لهذا حاول الهرب!

فُتِنَ توفيق الحكيم بجارته الحسناء، ورؤيتها كلَّ يوم كانت تهدم أفكاره القديمة، ثمَّة أحاسيسُ لم يعرفها من قبل، ثمَّة حبٌّ ضربه كالبرقِ وقد كان من قبل يُنكر وجوده!

هروبه كان في شروطه الصّعبة التي وضعها على جارته حين طلبَ يدها للزّواج، أرادها أن ترفضَ ليُريحَ ويستريح!

لقد اشترطَ عليها أن يبقى الزّواج سرًّا فلا يعرف بأمره غير عائلته وعائلتها، وأن يسافرَ وحده كي لا ينتبه أحدٌ إلى الأمر، وأن لا يستقبلا ضيوفاً في بيتهما، وألا يصحبها إلى مكانٍ عام، وألا يتدخَّل في تربية الأولاد ومشكلاتهم لأنّه يريدُ أن يقرأ ويكتبَ فقط، وأن ينام كل واحد منهما في غرفة!

ولكن المفاجأة كانت في أن جارته الحسناء وافقتْ على كلِّ الشُّروط، حتى أنها لم تكترثْ إلى أنه يكبرها بعشرين عاماً!

وتمَّ الزّواج، وشيئاً فشيئاً كانت بدهائها وأنوثتها، وحبّها في قلبِه، تسلبه تلك الشروط شرطاً شرطاً، حتى كتب نهاية المطاف مقالةً في الجريدة أعلن فيها الخبر، وكان ممّا قاله: الحبُّ، ليس غير الحبِّ بإمكانه أن يجعل حياتك أفضل!

وقع توفيق الحكيم أرضاً بالضَّربةِ القاضيةِ، لا أمام لكمةٍ قويَّةٍ، وإنَّما أمام نظرةٍ رقيقةٍ! هو الحبُّ ليس غيره مُليّنُ الرِّجال القُساة، وخالع أبواب القلوبِ المقفلة!

يحسبُ المرء منّا أنّه مُحصّنٌ تماماً ضدّ الحبِّ، وأنه ليس له فيه، وأنَّ كل ما يقال عنه إنّما هو كلام رواياتٍ، وخيالاتُ ناس، فإذا ما صار عاشقاً تحوّلَ شاعراً!

غريبٌ هو العشق، واللهِ غريب، وإنَّك لترى الرَّجل الحازم الذي له عقلٌ يزِنُ بلداً، فتقول: ما للعشقِ على هذا من سبيلٍ! ثم تطرحه عينٌ كحيلةٌ بالضَّربةِ القاضية، فتسلبه نومه ورقاده!

وإنَّك لترى الرَّجلَ المزدحمة أيامه فلا وقت لديه ليحكَّ رأسه، فتقول: هذا آلةُ عملٍ! وما من شيءٍ قادرٍ على أن يُغيّره. ثم يفتكُ به رمشٌ، فيقلبُ حياته رأساً على عَقِب!

وإنَّك لترى الرَّجلَ له ثغرٌ يحرسه، وطريقٌ يمشيها، ومجدٌ يصنعه، وخطورةٌ يشيِّدها، فتقول: ما للحبِّ على هذا حُكمٌ ولا قضاءٌ! فإذا ما عشقَ وجدته شغوفاً حتى

ليتفاجأ هو من نفسه، وكأنّها قاعدة أنّ الرّجال كلما ازدادوا خطورةً ازدادوا شغفاً!

وما على المُحبّين من سبيلٍ ولا جريرةٍ، وسبحان من يَحُولُ بين المرءِ وقلبه، وإنّما الجريرةُ على الفعلِ لا على المشاعر، فادخلوا البيوت من أبوابها أو تعفّفوا، فإنّ العفّةَ جهادٌ، واللهِ جهاد!

ومن غريبٍ ما يُحكى في باب أنّ جميعنا نكسرُ قواعدنا لشخصٍ ما، ما جاءَ في ديوان الصّبابةِ لشهاب الدّين بن أبي حجلة، إنّ يزيد بن عبد الله بن مروان كان متيّماً بجاريةٍ له، وعلى كثرة جواريه، كانت هي محظيّته الأولى، ملكت عليه قلبه، وكان لا يطيق فراقها، وكان ينشغلُ عن الدّنيا كلّها لأمور الحُكمِ ولا ينشغلُ عنها!

فخلا يوماً في لهوٍ معها، وقال: لأكذّبنّ اليوم قول من قال: إنّ الدّهر لا يصفو لأحدٍ يوماً!

فنادى على حاجبه، وقال له: لا تأذنْ لأحدٍ أن يدخل عليّ، ولا تُعلمني بخبرٍ ولو كان فيه زوال مُلكي!

وأقام معها في أهنأ بالٍ وأحسن حالٍ، فتناولت رمّاناً، فشرقت به، وماتت!

فلم يستوعبْ فكرة موتها، ومنعَ النّاس من دفنِها، وتركَها على السّريرِ ينظرُ إليها يومه والذي بعده، حتى بدأت تتغيّرُ كما يتغيّرُ الميّت بعد وفاته، وما رضي بدفنها إلا بعد أن دخل عليه وجوه بني أمية يلاطفونه ويعظونه في دفنها إلى أن أجابهم إلى ذلك، وقال يخاطبها:

فإن تسلُ عنكِ النّفس أو تدعِ الهوى

فباليأسِ تسلُو عنكِ لا بالتجلّدِ!

فإن كان من غنيٍّ عن التّعلقِ فأغناهم الخليفة عنه، فإن لم تشغله الدّولةُ والرّياسة، لشغلته كثرة الجواري، وقد كُنّ في ذاك الزمان سلعاً يُبعن في الأسواق، ولكنّه الحبُّ وحده الذي له سلطانٌ على الجميع حتى على السّلاطين!

القانون الثّامن: إنّما الحبُّ ما ثَبَتَ!

الحبُّ مواقف لا كلماتٍ!

في الرَّخاء كلُّ النَّاسِ يستطيعون أن يكونوا عشّاقاً، أمّا عند الشّدائد والظّروف الصّعبة فليس لها إلا العشّاق الحقيقيين!

الحبُّ الحقيقيُّ أشبه ما يكون بالإيمان، ما وقرَ في القلبِ وصدّقه العمل!

بعد مضيّ أكثر من ألفٍ وأربعمئةِ سنةٍ على زواجهما، ما تزالُ قصّتُهما واحدةً من أروعِ قصص الحبّ في التّاريخ! إنهما أبو العاص بن الربيع وزينبُ ابنةُ النّبيّ ﷺ!

كانا ابنا خالةٍ، فأمُّه هالة بنت خويلد أخت أمّنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، تزوّجا قبل البعثة الشّريفة، ولمّا نزلَ الوحيُ على النّبيّ ﷺ كانت زينب من أوائل المؤمنين بأبيها، فذهبتْ بذلك القلب المليء بالإيمان وكلّها أملٌ أن يكون زوجها وحبيبها من المصدّقين برسالة نبيِّها ووالدها!

فما نهرَهَا حين علِمَ بإيمانها، ولا حاول أن يُثنيها عن قرارها، بل قال لها بلسانِ المحبّ، ونبرة الكريم: واللهِ ما أبوكِ عندي بمتّهمٍ، وليس أحبّ إليّ من أن أسلك معكِ يا حبيبة في شِعْبٍ واحدٍ، ولكنّي أكره أن يُقال إنّ زوجكِ خذلَ قومه وكفر بدين آبائه إرضاءً لامرأته، فهلّا عذرتني يا زينب!

فتقبّلتْ قراره برحابة صدرٍ، وقلبٍ متفهّمٍ ومتأمّلٍ أن يأتي اليوم الذي يكون فيه زوجها في صفوف المسلمين!

وجعلت قريشٌ تدعو أبا العاص لمفارقة زينب، كما دعتْ أبناء أبي لهبٍ لتطليقِ رقية وأم كلثوم، فأمّا ابنا أبي لهبٍ فأجابا وطلّقا زوجتيهما، وأمّا أبو العاص فقال لهم: لا والله، إنّي لا أفارقُ صاحبتي، وما أحبُّ أنّ لي بامرأتي كلَّ نساء قريشٍ!

فبقيتْ زينب عند زوجها كلٌّ على دينه، ولم يكن قد جاء في شريعة الإسلام حينها التفريق بين الزّوجةِ المؤمنة والزّوج المشرك!

وتأتي الهجرة، ويهاجرُ النّبيُّ ﷺ إلى المدينة، ويلحقه كلُّ أهله، إلا زينب بقيتْ وحيدة في مكة رفقة زوجها، لا تتراجعُ عن قرارها في ملازمته، وإن كان قلبها ممزقاً بين الأب والنّبيّ من جهةٍ، والحبيب والزّوج من جهةٍ أخرى!

ولكن هذا لم يكن شيئاً أمام اللحظة التي حمل فيها زوجها السّلاح لقتالِ أبيها، فقد توجّه جيش قريشٍ لنجدة قافلةِ أبي سفيان في بدرٍ، وكان أبو العاص ممن خرج في غمار هذا الجيش!

وانتهت المعركة بنصر المسلمين بعد أن قُتل من قُتل من قريشٍ، وأُسرَ منهم من

أسرَ، وكان أبو العاص من بين الأسرى!

وبعث أهل مكّة في فداء أسراهم من النّبيّ ﷺ، وترسلُ زينب في فداءِ زوجها قلادةً كانت أمها قد أهدتها إيّاها ليلة زفافها! فلمّا رأى النّبيّ ﷺ قلادةَ خديجة عرفها، ورقَّ لها رِقّةً شديدةً، وقال للصّحابة: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا!

فقالوا: نعم يا رسول الله!

ويطلِقُ النّبيّ ﷺ سراحَ أبي العاص بعد أن طلب منه أن يبعث زينب إلى المدينة، فقد نزل الأمرُ الإلهيّ بالتّفريقِ بين المشرك والمسلمة!

ويعده أبو العاص أن يجيب طلبه، ويعود إلى زينب فيجدها بانتظار عودته بقلبٍ راجفٍ وعينٍ دامعةٍ، ويعود هو إليها مثقلاً، ممزقاً بين قلبه ووعده، ولكنّه يقفُ عند كلمته ووعده، ويقول لها: لقد طلب أبوك أن أردّكِ إليه لأنّ الإسلام يُفرّق بيني وبينكِ فلا تحلّين لي! وقد وعدته أن أدعكِ تسيرين إليه، وما كنتُ لأنكثَ عهدي!

فما كان من زينب إلا أن ربطتْ على قلبها، وأطاعتْ أمر الله ورسوله!

وبعثها أبو العاص مع أخيه إلى خارج مكة حيث زيد بن حارثة بانتظارها ليصحبها إلى المدينة على الوعد الذي اتفقوا عليه. وهنا تقطع قريشٌ طريقهما لتمنع هجرتها إلى المدينة فقد كانتْ تستضعفُ من بقي من المسلمين في مكّة!

وكان لزينب خصوصيّتها، كيف لا وقريشٌ لها ثأرٌ شخصيٌّ عند أبيها، وكان أوّل من لحق بهما هو «هبّار بن الأسود» فروّعها برمحه.

فهبّ كنانة أخو أبي العاص للدّفاع عنها، ونثرَ سهامه بين يديه، وصاح فيهم: والله إنّكم لتعلمون أنّي أرمي فلا أخطئ، ولا يدنونّ منّي رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهماً!

فأقبلَ عليه أبو سفيان وقال له: أيُّها الرّجل كفّ عنا نَبلك أكلّمكَ!

فكفّ عنهم، فتقدّم إليه أبو سفيان وقال له: إنّك جانبتَ الصّواب إذا خرجت بالمرأة على رؤوس الأشهاد علانيةً، وقد عرفتَ مصيبتنا ونكبتنا، فيظنُّ النّاسُ فينا

الضَّعف والوهن، وأنَّ ذلك من ذلِّ أصابنا، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها حاجةٌ، ولكن ارجِعْ بها حتى إذا هدأتِ الأصوات، وتحدّث النَّاس أن قد رددناها، فاخرج بها سرًّا وألحقها بأبيها!

فكان ذلك، وهاجرتْ زينب إلى المدينة، وافترقتْ عن أبي العاص ما يقارب ستّ سنواتٍ مكثتْ فيها في بيت النُّبوَّة مع ولديها، بينما انشغل أبو العاص بالتِّجارة، ولم يخرج مع قريشٍ يوم أُحدٍ لقتال المسلمين!

وقبل فتحِ مكَّة بقليلٍ خرج في تجارةٍ لقريشٍ، فصادف في طريق العودة سريَّةً من سرايا المسلمين، فأصابوا ما معه، وفرَّ هو منهم، ثم تسلَّل ليلاً إلى زينب مستجيراً بها، فأجارته!

وفي صلاة الفجر وبينما النَّبيُّ ﷺ قد فرغ منها وسلّم، صاحت زينب قائلة: أيهًا النَّاس إنِّي أجرتُ أبا العاص بن الربيع!

فقال النَّبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده ما علمتُ بشيءٍ حتى سمعتُ ما سمعتم، وإنَّه يجيرُ على المسلمين أدناهم!

ثم ذهب إلى زينب وقال لها: أي بُنيَّة، أكرمي مثواه، ولا يخلص إليكِ فإنك لا تحلِّينَ له!

ثم بعث النَّبيُّ ﷺ إلى السَّريَّة التي أخذت مال أبي العاص وقال لهم: إنَّ هذا الرجل منَّا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردُّوه فإنَّا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله، وأنتم أحقُّ به!

فقالوا: بل نردُّه!

فردُّوه كلَّه، ثم ذهب به إلى مكَّة، وأدَّى إلى كلِّ ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحدٍ منكم عندي شيء؟

فقالوا: لا، قد أدّيتَ ما عليكَ!

فقال: فإنِّي أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، واللهِ ما منعني من

الإسلام عنده إلا خوف أن تظنّوا أنّي أردت أكلَ أموالكم!

ثم هاجر إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وطلب من النّبيّ ﷺ ردّ زينب، فردّها إليه، فعاشا على أهنأ ما يعيش زوجان، حتى ماتث زينب، ولم يعش أبو العاص بعدها إلا سنةً، لقي فيها النّبيّ ﷺ مرّةً فقال له: يا رسول الله، إنّي لا أطيق الحياة دون زينب!

كان لدى زينب أسبابٌ كثيرةٌ للتّخلي عن أبي العاص، بل كلُّ الأسباب كانت في وقت ما قد أجمعث على التّفريق بينهما، بَوَصَلةُ الظُّروف كانت تشيرُ إلى الفراق، ولكنّها ظلّت متمسكةً به، لأنّها تحبّه ولأنّه يحبّها، وهكذا نحن حين نحبُّ الآخر أكثر من أنفسنا نفكّرُ فيما يجمعنا به، لا فيما يفرّقنا عنه، حتى وإن كان كل ما يربط بيننا هي روابط القلب فقط بينما روابط الواقع منقطعة تماماً! كانث مؤمنةً وابنةَ نبيٍّ، وكان هو كافراً وكفى بذلك سبباً!

وكانت تُصلّي وتدعو لأبيها، وكان هو يقاتله!

لكنّها صبرت على ذلك لأنّها كانت قادرةً على الصّبرِ على الأذى معه، ولم تكن قادرةً على الصّبرِ على فراقه، خصوصاً أنَّ دينها وقتذلك كان يسمح لها أن تناور في المنطقة الرّماديّةِ وهذا هو الفيصل في البقاء، وإلا فإنّه حين أصبح الفراق واجباً، احتفظث به في قلبها وغادرته!

فالمصلحةُ الشّخصيّةُ تذوب حين تتوحّدُ روح المحبّ بروح حبيبه، لا تعود الأنا موجودة، لا يعود هناك سوى نحن! هذا التّلاحم الذي لا تفصله العقبات بل تزيده مكانةً! ولا يعود ألمنا الشّخصيّ ذا أهميةٍ، بل آلامنا المشتركة هي كل ما يعنينا! فزينب قبل صدور الأمر الإلهيّ بالتّفريقِ كانت ما تزال ترى في أبي العاص حبيباً وزوجاً، وتأمل أن يدخل معها في ذلك الشّعبِ الذي أخبرها يوماً أنّه يسرّه أن يدخل معها فيه!

لم تتمسك زينب وحدها، أبو العاص بقي ممسكاً بها رغم كلِّ شيءٍ، فهو رفض أن يُطلّقها عندما طلبث منه قريشٌ ذلك، كان يرى أن خلاف قريشٍ مع أبيها ﷺ لا علاقة له بقلبه، كان كأنّما يقول لهم: ما بينكم وبينه شأنكم وشأنه أما هذه فهي حبيبتي!

وهو لم يتركها زهداً فيها حين حدث بينهما الفراق لستّ سنواتٍ، وإنّما تركها وفاءً لوعدٍ قطعه للنّبيّ ﷺ، ولولاه ما فارقها أبداً!

وكذلك يُحسَبُ لأبي العاص أنّه طوال فترة ابتعاده عن زينب لم تملأ عينَه ولا قلبَه امرأةٌ سواها! فقد بقي على عهده وحبِّه لها ولم يتزوج، كانت هي في معسكرٍ وهو في معسكرٍ، ولكنه احتفظ بها في قلبه، فإنّما الحبُّ ما ثَبَتَ!

قصّة حبّ أبي العاص بن الربيع وزينب تُريكَ بجلاءٍ عظمةَ هذا الدِّين وإنسانيَّته، وتُريكَ رحمة هذا النَّبيّ العظيم! فهو لم ينكر على زينب استمرارها في حبِّ زوجها وإن كان كل واحدٍ منهما قد أصبح على دينٍ، كان يعلم جيِّداً أن المرء يملك أحشاءَه ولكنَّه لا يملكُ قلبَه!

ولم ينكز عليها فداءها له وإن كان مقاتلاً في صفِّ العدوِّ، بل إنِّي أجزم أنّه قد عدّه من الوفاء الذي يقف لأجله النّبيلُ إجلالاً وقد كان نبيًّا نبيلاً تُعجبه مكارم الأخلاق!

إنَّ الحبَّ لم يكن يوماً عيباً ليُستَر، أو ذنباً ليعاقب مقترفه، إنَّه شأن القلب الذي بين إصبعين من أصابعِ الرَّحمن، ولكن للحبِّ آدابه، وللإسلام حرمته!

وقد كانت زينب تعرف جيِّداً ما لها وما عليها، وتحمي حبَّها بقدر ما يسمح به دينها، فالحبُّ والإيمان كانا يعيشان في ذات القلب، ولم يكن ثمَّة تعارضٌ بينهما، لأنَّ الحبَّ هو نوع من الإيمان أيضاً! وإخلاص زينب لحبِّها لم يمنعها من الإخلاص لربِّها!

كان يمكن لزينب أن تتخذ زوجاً بعد فراق أبي العاص، ستُّ سنواتٍ كانت فترةً كافيةً لتنسى وتبدأ من جديدٍ، ولكنَّه الحبُّ الذي يجعل كل من على الأرض متشابهين، عدا شخصاً واحداً يعيش في القلب، الحبُّ الذي يجعلنا لا نرى سواه كأنَّه كل أهل الأرض! يجعل الخيارات الكثيرة خياراً واحداً!

يجعلك تجد لمن تحبّ المعذرة في الخطأ، والتَّفهم في كل تصرُّفٍ، والانتظار مع كل فراقٍ، والأمل الذي تصمد به في انتظارك وإن كانت كلُّ الإشارات تدلُّ على اليأس!

وأبو العاص كان زوجاً لزينب حتى بعد انفصالها عنه، زوجاً لروحها وقلبها، لذلك بقيت له حتى عاد!

الحبُ مواقف لا كلماتٍ! في الرّخاء كلُ النّاسِ يستطيعون أن يكونوا عشّاقاً، أمّا الشّدائد والظّروف الصّعبة فليس لها إلا العشّاق الحقيقيين!

الحبُ الحقيقيُ أشبه ما يكون بالإيمان، ما وقرَ في القلب وصدّقه العمل!

في الشّدائدِ قد يتخلى المتحدّثُ الفصيح، صاحب التّعبيراتِ المؤثّرةِ، والكلماتِ الرّنانة، بينما يتمسّكُ الصّامتُ الذي لم يكن يبوح إلا بما في قلبه وإن على استحياءٍ، لأنّ ما في قلبه أكبر من أن يُقال!

ولكن عليك أن تعرف ما يستحقُ انتظارك، عليك أن تعرف إذا كان القلبُ على القلبِ حقًّا، لا أن تقف كالأبله خلف الأبوابِ التي لا تُرحّب بك بانتظار أن تُفتَحَ لكَ!

الكثيرون لا يريدون من الحبّ إلا اللذة التي يأخذونها منه، لا الشّخص الذي منحهم هذا الحبَ، هؤلاء يجدون ضالَّتهم في كلِّ عابرٍ، وإني أعيذك باللهِ أن تكون ضحيّةَ أحدهم!

القانون التّاسع: انتبِهْ جيّداً لفارقِ السّنِّ!

لا يمكن القول بأنّ تقارب السّنّ بين الشّريكين يكفي لإقامة زواجٍ ناجحٍ، ولكنّه مُعينٌ! وكذلك لا يمكن القول بأنّ الفارق الكبير في السّنّ بين الشّريكين يكفي لهدمِ الزّواج، ولكنّه مُعينٌ أيضاً!

ولكن ما يمكننا قوله إنّنا نحاولُ أن نوفّر أكبر قدرٍ من الأسباب المعينة على إنجاح العلاقة، لأنّنا نعرف ما يعين على إنجاحها! وكذلك نحاول أن نتجنّبَ أكبر قدرٍ من الأسباب التي تؤدّي إلى فشل العلاقة، لأننا نعرف ما يؤدّي إلى فشلها!

ولطالما كان الفارق الكبير في السّنّ بين الشّريكين من أكبر أسباب نهاية العلاقات، أو ما هو أسوأ، أن تبقى حيّةً في الظّاهر، ميتةً في الحقيقية!

لا يمكن القول بأنّ تقارب السّنّ بين الشّريكين يكفي لإقامة زواجٍ ناجحٍ، ولكنّه مُعينٌ! وكذلك لا يمكن القول بأنّ الفارق الكبير في السّنّ بين الشّريكين يكفي لهدمِ الزّواج، ولكنّه مُعينٌ أيضاً!

ومن عدالة القولِ أنْ نعترفَ جميعاً أنّه لا يوجد قانونٌ واحدٌ يحكم كلَّ العلاقات، فما يتوفّرُ هنا لإنجاحِ علاقةٍ، قد يتوفّرُ هناك ولا تنجحِ العلاقة!

والعكس صحيحٌ، فقد تنهدمُ علاقةٌ وتستمرُّ أُخرى رغم أنّها أُصيبت بذات السّبب!

ولكن ما يمكننا قوله إنّنا نحاولُ أن نوفّر أكبر قدرٍ من الأسباب المعينة على إنجاح العلاقة، لأنّنا نعرف ما يعين على إنجاحها! وكذلك نحاول أن نتجنّبَ أكبر قدرٍ من الأسباب التي تؤدّي إلى فشل العلاقة، لأننا نعرف ما يؤدّي إلى فشلها!

وعلى رغم اقتناعي بأنّ فارق السّنّ الشّاسعِ بين الزّوجين من أكثر الأسباب التي تؤدّي إلى انتهاءِ هذا الزواج، إلا أنّي أخبرك أنّ النّبيّ ﷺ قد تزوّج خديجة بنت خويلدٍ رضي الله عنها، وكانت تكبره بخمسة عشرَ عاماً، وكان واحداً من أنجح الزّيجات في التّاريخ، ولعلّ من نافلةِ القول أنْ تعلم أنّ النّبيّ ﷺ لم يتزوّج غيرها حتى ماتت، ثم بعد ذلك عدّدَ على كلّ نسائه، وما زال هذا دأبه حتى نُهي!

وبينما كانت خديجة رضي الله عنها أكبر منه سنًا، فقد تزوّج عائشة رضي الله عنها وكان يكبرها بأكثر من أربعين عاماً، وكلُّنا نعرفُ أنّه كان زواجاً رائعاً، لم يكن مستمرًا فقط، بل كان نابضاً بالحبّ، ومواقف الحبّ بين النّبيّ ﷺ وبين عائشة لا يكفيها كتاب لسردها كلّها!

ولكن ذاك نبيٌّ لا يشبهه أحدٌ، ثم إنّ ذاك زمنٌ غير هذا الزّمن!

لاحظ أنني لستُ أنهى ولا أُحرّمُ زواجاً لفارق السّنّ ولو بلغ مئة عام، وإنما أُعمِل قلمي فيما أنا مقتنع به!

قبل مئة عام كنتَ تشعرُ أنّ ابن الأربعين لو جلس مع ابنِ العشرين فإنّه يمكن تذويب فارقِ السّنّ هذا، كانت الحياة تسيرُ ببطءٍ، أما الآن فتشعر أنّ ابن الأربعين يرى ابن العشرين صبيًا لم ينضج بعد، وابن العشرين يرى ابن الأربعين ينتمي لحقبةٍ عفا

عليها الزّمن!

لهذا فمن باب أولى أنّ ابنة العشرين اليوم لا ترى في ابن الخمسين مثلاً أكثر من رجل على مشارفِ الشيخوخة! وكذلك فإن ابن العشرين يرى ابنة الخمسين عجوزاً لم يُبقِ منها الزّمنُ شيئاً!

هذه النّظرة لم تكن قديماً في النّاس بهذه الحِدّة، ولكن هذا لا يعني أبداً أنه حتى في غابر الزّمان لم تكن الفتاة الشّابة تميل إلى الشّاب، والشّابُ يميل إل الفتاة التي تصغره قليلاً، أو هي في مثل سنّه!

هذه فطرة في النّاسِ، وما فُطِرَ عليه النّاسُ لا سبيل إلى عناده، أما الحلال والحرام فهذا أمر اللهِ تعالى ولا سبيل لأحدٍ أن يتطاول عليه، أو أن يحشرَ نفسه فيه، وما وسّعه ربُّنا على النّاسِ فليس لي أو لغيري أن يُضيِّقه عليهم، وإنّما حديثنا يأتي في تلك الزاوية التي تحمي هذا المباح والحلال من أن يتحوّلَ إلى كارثة!

فإن قلت لي: وهل تقارب السّنّ بين الزّوجين يحمي العلاقة من ألا تتحوّلَ إلى كارثة؟

لقلتُ لك: السّنُّ وحده سواءً كان متقارباً أم متباعداً يتعلّقُ أوّلاً وأخيراً برغبة الشّريكين في الاستمرار والعيش، ولكنّك تعلم كما أعلم أنّه عنصرٌ هامٌّ ومؤثّرٌ!

يقول داود الأنطاكيُ في كتابه تزيين الأسواق في أخبار العشّاق:

قرأتُ في الشّهنامةِ الفارسيّةِ أن «أبرويز» أحد ملوك الفُرسِ، قد تزوّج امرأةً بديعةً في الحُسن، صغيرةً في السّنّ، وكان هو قد بلغ ثمانين سنةً، فوجدَ بها وجداً، وعشقها عشقاً، وكانت هي تُظهرُ حبّه وتُخفي بُغضَه!

وكان له ابنٌ في مثل سنّ امرأته، فهويته وهويَها، واشتدّ ميلُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الآخر!

وقد علمَ الملكُ بما بينهما وكاد أن يموت قهراً وكمداً لذلك! وعلمَ أنّه إن أظهر لهما أنّه قد عرف بأمرهما، فستأمر زوجته ابنه بقتله!

فعمد إلى الحيلة، فأخذ كتاباً، ووسمَ أوراقه بالذّهب، ورصّعه بالجواهر، وأودعه صندوقاً، وجاء إلى المرأة وقال لها: قد علمتِ ما حوث يدي من الذّخائر والنّفائس، غير أنّه لم يكن يعدل نفسي إلا هذا الصّندوق فاحتفظي به!

وعلم يقيناً أنّها ستُطلِع ولده عليه، فلما خلت به أخبرته بالقصّة!

فقال: عليّ بالصندوق!

فأحضرته، ففتحته، فلم يجد فيه إلا الكتاب، فحاول فتحه، فوجد ورقه متعلّقاً بعضه ببعضٍ، فجعل يبلُّ إصبعه من ريقه، ويتصفّح الأوراق، فلعبَ السمُّ فيه، فعلم بالحيلة، وخرج بالسّيفِ فضرب أباه فسقطا ميّتين!

تعمّدتُ أن أبدأ بهذه القصّة لأنّ فيها تتجلّى فطرة ميلِ الرَّجل إلى المرأة التي في مثل سِنّه، وميل المرأة إلى الرّجل الذي في مثل سِنّها، فالقومُ كانوا وقتذاك مجوساً يعبدون النّار، فمِا من دِينٍ يمنعُ، وما من جنّةٍ تُعزّي، وما من نارٍ تردع! وإنّها الجِبلّة البشريّة في أبسطِ صُورها!

امرأةٌ شابّةٌ كانت ترى في الزّواج من رجلٍ في الثمانين استباحةً وانتهاكاً لأنوثتها، وجدث شابًا في مثل سِنّها، وفيه ما ليس في أبيه من النّضارةِ والشّباب، فوقع في قلبها، ووقعت كذلك في قلبه، ولا تتوقعْ أنّك إذا وضعتَ عود ثقابٍ في كومة قشٍّ ألا تشتعل النّار!

وأيُّ امرأةٍ في الدّنيا مكانها ستشعر بما شعرث هي به! صحيح أنه لن يكون تعبير جميع النّساء على هذا الشُّعور كما عبّرث به زوجة الملك، ولكنّي أتحدّثُ عن هذا الشُّعور فحسب ولا علاقة لي بما بعده، ولكن العاقل لا يفتح باباً يعرف ما وراءه، فهو إن سلِمَ من ردّةِ الفعل، فلن يسلمَ من الشُّعور!

وصحيحٌ جدًا أنّه لن يفعل كلُّ الرِّجال ما فعله ابنُ الملك، ولكن ما من رجلٍ يتزوّجُ امرأةً في مثل سنّ أمّه أو أكبر منها، إلا وسيستفيقُ ساعةً ليسأل نفسه: ما الذي فعلته بنفسي!

ولا تستغربْ إن ألقى برخلٍ قلبه عند أوّلِ امرأةٍ يجري فيها ماء الشّبابِ، لا سبيل

إلى معاندة الفِطرة!

مثل هذه الحالات تبدأ نعم، ليس هنا السّؤال، السّؤالُ هو كيف تستمرُّ، والسّؤال الأهمُّ كيف تنتهي؟!

في روضةِ المُحبّين لابن القيّم، وعيون الأخبار لابن قتيبة، ومجمع الأمثال للميدانيّ، قصّة تنهضُ بما نحن فيه!

فقد حكوا أنَّ الحارث بن السّليل الأزديّ خرج زائراً لعلقمة بن حزمِ الطّائيّ، فنظرَ إلى ابنةٍ له تُدعى الرَّباب، وكانت من أجمل النّساء، فأُعجبَ بها، وعشقها عشقاً حال بينه وبين الانصراف إلى أهله!

فقال لعلقمة: إنِّي أتيتكَ خاطباً، وقد يُنكَح الخاطب، ويُدرَك الطّالب، ويُمنح الرّاغب!

فقال له: كفؤٌ كريمٌ، فأقِمْ ننظر في أمرك!

ثم انكفأ إلى زوجته، فقال لها: إنَّ الحارث سيِّد قومه حسباً، ومنصباً، وبيتاً، فلا ينصرفنَّ من عندنا إلا بحاجته، فشاوري ابنتكِ، وأديريها عمّا في نفسها!

فقالت لها: أيْ بُنيّة، أيُّ الرِّجال أعجب إليك؟ الكهلُ الجحجاح، المفضِلُ الميّاح، أم الفتى الوضّاح، الملول الطمّاح؟

فقالت: بل الفتى الوضّاح!

فقالت لها أمها: إنَّ الفتى يغيرك، وإن الشيخ يميرك، وليس الكهل الفاضل، الكثير النّائل، كالحديث السّن، الكثير المنّ!

فقالت: يا أماه، أحبّ الفتى، كحبِّ الإبل أنيقَ الكلأ!

فقالت: أيْ بُنيّة، إنَّ الفتى شديد الحَجاب، كثير العِتاب!

فقالت: يا أماه، أخشى من الشّيخ أن يُدنِّس ثيابي، ويبلي شبابي، ويشمِّت بي أترابي!

فلم تزل أمُّها بها حتى غلبتْها على رأيها، فتزوجها الحارث على مئةٍ وخمسين من الإبل، وخادمٍ، وألفِ درهم! ودخل عليها، وكانت عنده أحبّ شيءٍ في الدُّنيا، وارتحل بها إلى أهله، وإنّه لجالسٌ يوماً بفناء مظلته وهي إلى جانبه، إذ أقبل فتيةٌ يتصارعون بينهم، فتنفّستِ الصُّعداء، ثم أرسلت عينيها بالدموع تبكي!

فقال لها: ما يبكيكِ؟

فقالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفروخ!

فقال: ثكلتكِ أمك، تموتُ الحُرَّةُ ولا تأكل بثدييها، فجرى قوله بين العرب مثلاً، وهو أول من قاله!

ثم قال لها: الحقِي بأهلكِ، فلا حاجة لي فيكِ!

نلحظُ أنّ الحوار الذي دار بين الأمِّ وابنتها، إنّما هو حوارٌ بين الفطرة والمصلحة، أو بين الميلِ الطبيعيّ والصَّفقة!

جواب البنتِ الأوّل هو ما يمثّل البنات في مثل سنّها بلا أقنعةٍ ولا تزيين، وكل ما تلاه من حوارٍ بعد ذلك كان لاقناعها بالعكس، ثم بعد أن تمّ الزَّواج، بقيث هذه الفطرة كامنةً تنتظر لحظة انقضاضٍ، وحين أتيحَ لها هذا انقضّتْ!

وما يُقالُ في حال النّساءِ يُقال في حال الرِّجالِ أيضاً ولا فرق!

فالشّابُ الذي تضطرُّه الظُّروف إلى الزَّواج بمن هي في مثل سِنّ أمه، سيبقى في أعماقه يتوق لمن هي في مثل سِنّه، فالإنسان وإن عاكس قانون الحياة فهذا لا يعني أبداً أنّه لا يعترف به! وسيبقى متحيّناً لحظةً سانحةً لتصحيح الأمور، وللأسف فإنّ غالب التّصحيح لهذه القرارات الخاطئة يكون بالحرام، فالإنسان قد يجد نفسه عاجزاً عن هدم هذا الواقع، فيسعى لإحداث واقعٍ بديلٍ يسير بموازاةٍ مع واقعه الحقيقي، وهكذا يجمع عليه الحرام والحبّ الملوّث!

ما أردتُ قوله بالتّحديد هو المحاولة قدر الإمكان لتجنب واقعٍ كهذا قدر الإمكان، لأنّ الوقاية خير من العلاج، ولأنّه لا يمكن التنبؤ إلى أين يمكن أن تصل الأمور!

والإنسان في ظرفٍ كهذا هو أحد شخصين لا محالة:

فهو إمّا الشّخص الأكبر سنًا والذي سيبقى معتقداً أنه قد حصل على صفقةٍ رابحةٍ جدًا، وإمّا هو الشّخص الأصغر سنًا والذي سيبقى يعتقد أنّه قد حصل على أسوأ صفقةٍ ممكنة!

فللأول أقول: إنّ الارتباط لا ينتهي بعقد القران، ولكنه يبدأ لحظة عقده، ولا شكّ أنّه ينتج عن الزّواج علاقةٌ جسديّةٌ، وفي حال الفارق الشّاسع في العمر يحدث كثيراً ألا يستطيع الطّرفُ الأكبر سنًا مجاراة الأصغر سنًا منه، وإن جاراه فلمدةٍ محدودةٍ ثمّ سيحدث النُّفور، خصوصاً أنّ الإنسان مسكون بالمقارنة! والفتاة الشّابة لها صديقاتٌ بمثل عمرها قد تزوّجنَ بمن هم في مثل أعمارهنّ، والأحاديث تدور، والحسرة تتضاعف! وكذلك فإنّ الشّابّ الذي تزوج بمن تكبره بسنواتٍ كثيرة له أصحاب في مثل عمره، ولهم زوجاتٌ في مثل أعمارهم، ولا سبيل من أن ينظر الإنسان إلى نفسه حين ينظر للآخرين، ولرُبَّ كلمةٍ عابرةٍ تقال تهدمُ أيّاماً طويلةً من الصّبر!

فإن كنتَ الأكبر سنًا بسنواتٍ طويلةٍ فما لك ولسباقٍ لا تعرف ما هي نتائجه، والخسارة فيه شيءٌ مُذلٌّ!

وإن كنتَ الأصغر سنًا بسنواتٍ فلا تفكّر في اليوم الذي أنت فيه فقط، انظر لنفسك أين أنت بعد سنوات!

الرّفضُ من أوّل الطّريق أيسر كثيراً من قضاء العمر حسرةً، ومحاولة ترميم ما لا يمكن ترميمه!

في كتابي طرائف العرب، أوردتُ قصّةً مفادها أنّ رجلاً من بكر بن وائلٍ قد خطب ابنة رجل من مُراد، فهمّ الأبُ أن يجيب الخاطب إلى طلبه.

وبينما الجاريةُ يوماً تلعب مع الجواري، إذا جاء الخاطب، فقلنَ لها: هذا خاطبك!

فلما نظرتْ إليه فإذا هو رجلٌ كبيرٌ في السّنّ، فقالت: أوَقَدْ رضي أبي به؟!

فقلنَ: نعم!

فدخلت البيت، وأخذت سيفاً، وهجمت عليه، فجعل يهربُ منها وهي تتبعه، فنالته بضربةٍ أحدثت فيه جرحاً، ففرّ إلى أهله!

لا شكّ أن للرّفض أساليب لَبِقَة، وليس كلّ خاطبٍ يُجاب بهذا وإن كان الجوابُ رفضاً، وإنّما العبرة بالمعنى!

ولكن على الرّغم من كل هذا، فلستُ أُنكر أنه وفي حالاتٍ قليلة قد يقع الحبُّ فعلا بين شخصين رغم فارق السّنّ الشّاسع بينهما. فالحبُّ قادرٌ على تذويب الكثير من الفوارق، وهو إن وقع فجبره أولى من كسره، ولكن محاولة إيجادِه من عدمٍ، هو في الغالب محاولة ميؤوس منها، والمعاملة بالحسنى والمعروف شيءٌ، والحبُّ في وجهه الحقيقيّ شيءٌ آخر!

القانون العاشر: بعضُ الحُبِّ مجرّدُ كلامٍ!

الحبُّ إن لم تصدّقه المواقف فهو موضع شكٍّ! ولطالما كان كثير من النّاسِ في وادٍ وكلامهم في وادٍ، حتى ليخيّلُ إليّ أنّ الكلام الجميل ليس أكثر من شبكةِ صيدٍ تُنصَبُ للفرائس، ولطالما كان الصّيادُ أحرص شيءٍ على عدم إثارة فزع الطّريدة، والكلام الجميل باعثٌ على الطمأنينة!

البعض وكأنّ في صدورهم أكثر من قلب، أو لكأنّ القلوب كالأحذية تُنتعل بسرعةٍ وتُخلع بسرعةٍ!

هي التي من أجلها تشرقُ الشّمسُ!

هذه هي أوّلُ جملة غزلٍ موثّقةٍ في التاريخ البشريّ، قالها الملك «رمسيس الثّاني» عن زوجته «نفرتاري»، وما زالت محفورةً في معبد أبي سنبل!

وبعدما قرأ علماءُ الآثار سيرة حياته التي وُجدت في قبره مكتوبة على أوراق البرديّ، اكتشفوا أنه كان متزوّجاً معها أربعاً وخمسين امرأةً!

يبدو أنّ بعض الأشياء لا تتغيّرُ على هذا الكوكب وأنّ بعض الحبّ مجرّد كلامٍ جميلٍ ليس إلا، شيءٌ يسكن اللسان لا القلب، ويخرج من الحنجرة لا من القفصِ الصّدريّ!

الحبُّ إن لم تصدّقه المواقف فهو موضع شكٍّ! ولطالما كان كثير من النّاسِ في وادٍ وكلامهم في وادٍ، حتى ليخيّلُ إليّ أنّ الكلام الجميل ليس أكثر من شبكةِ صيدٍ تُنصَبُ للفرائس، ولطالما كان الصّيادُ أحرص شيءٍ على عدم إثارة فزع الطّريدة، والكلام الجميل باعثٌ على الطمأنينة!

البعض وكأنّ في صدورهم أكثر من قلب، أو لكأنّ القلوب كالأحذية تُنتعل بسرعةٍ وتُخلع بسرعةٍ!

يُحكى أنّه على عهد الرّومان، عاش فيلسوفٌ قد تجاوز السّتين من العمر، وكان له زوجةٌ في التّاسعة عشرة، كانت جميلةً وفاتنةً، وكان يحبّها حبًّا جمًّا، وكانا يعيشان بسعادةٍ وهناءٍ، ولم يكن ينغّصُ عيشهما غير أنّ الفيلسوف قد سيطر عليه هاجسٌ أنّه وبحكم السّنّ سيموت قبلها، بينما ستكون هي في ريعان الشّبابِ وتتزوّج رجلاً غيره!

غير أنّ الفيلسوف لم يكن ليترك هذا الهاجس لنفسه، بل إنّه لطالما حدّث زوجته عنه، ولكنها سرعان ما كانت تقول له: أنا أحبُّك، وجعل اللهُ يومي قبل يومك، ولا بَقيتِ الدّنيا بعدكَ!

هذه الكلمات كانت تشعره بالهدوء، ولكن ليس طويلاً، فما إن يمضي أسبوعٌ حتّى يعود سيرته الأولى، يفاتحها بهاجسه، ويحدّثها عن مدى مرارته حين يتخيّلُ أنّها ستكون لرجلٍ آخر بعده! وكانت هي تعود سيرتها الأولى إذا ما فاتحها بهذا الموضوع

فتخبره أنَّها لن تكون لرجلٍ آخر بعده!

وذات ليلةٍ والفيلسوف عائدٌ إلى بيته، وكانت الطَّريقُ المؤدّيةُ إلى البيت بجوارِ مقبرةٍ، لفتته امرأةٌ شابَّةٌ في مقتبلِ العمر، تحمل بيدها مروحة وتحرِّكُ بها الهواء فوق قبرٍ حديثٍ لم يكن هنا بالأمس، فما زال تراباً، ولم يضعوا له رخاماً كما هي عادة الرُّومان في دفن موتاهم!

وكحال الفلاسفة الذين يملأهم الفضول، قرَّرَ الفيلسوفُ أن يعرف قصَّة المرأة، وما الذي تفعله في المقبرة في هذا الوقت المتأخِّرِ من الليل، وما حاجة الميِّتِ في قبره لامرأةٍ تقف عند رأسه حاملةً مروحةً بيدها وتحرِّك الهواء بها!

اقترب منها وحيَّاها، فردَّث عليه بتحيَّةٍ باردةٍ، فقد بدا أنَّها مشغولةٌ بما هي فيه، ولكن هذا لم يكن ليثني فضوله عن معرفة قصَّتها، فقال لها: سيِّدتي، ماذا تفعلين؟

Telegram:@mbooks90

فقالت: أرجوكِ سيِّدي أن تتركني وشأني، ألا ترى أنِّي منشغلة ولا وقت لديَّ للأحاديث؟!

فقال لها: عفواً، لم أرد أن أشغلك عمَّا أنتِ فيه، ولكن هذا المشهد أثار فضولي، وأنا فيلسوف المدينة، ومستشار الإمبراطور، وسأقوم شخصيًا بأخذِ المروحة منكِ، وأقوم بما تقومين به، ريثما تُحدِّثينني بقصَّتكِ، وهكذا أشبع فضولي، ولا يتوقَّفُ العمل الذي تقومين به!

فقالت له: حسناً، خُذِ المروحة، وتابعِ التَّهوية على القبر!

أخذ الفيلسوف المروحة منها، وبدأ بالتَّهويةِ على القبر بنفس الطَّريقة التي كانت هي تقوم بها، ثم قال لها: حسناً، حدِّثيني! فقالت: هذا الرَّجلُ في القبر هو زوجي، وقد مات البارحة، وكنَّا قد تعاهدنا أنَّه إذا مات أحدنا قبل الآخر، أن لا يتزوَّج الباقي منَّا على الميِّتِ منَّا حتى يجفَّ قبره! وقد خطبني اليوم شابٌ وسيمٌ وثريٌّ، ولا تحصل المرأةُ كلَّ يومٍ على زوجٍ كهذا، فأعلمْتُه بموافقتي، ولكنِّي اشترطتُ عليه أن يمهلني أيَّاماً قليلةً!

فقال لها الفيلسوف: ولِمَ تريدين هذه المهلة؟

فقالت: أريد أن أفي بوعدي لزوجي الميّت، لقد وعدته ألا أتزوج بعده حتى يجفّ قبره، وأنا لا أريدُ للأمر أن يطول، وها أنا أقوم بتجفيفِ القبر!

نزل الكلامُ على رأس الفيلسوف كالصّاعقة، وتذكّرَ زوجته، فقال في نفسه: أتراها تفعلُ معي مثل ما فعلت هذه المرأة مع زوجها، هي أيضاً كانت تحبُّه وأعطته عهداً، وها هي لا تطيقُ انتظاراً متى يجفّ قبره لتتزوّج غيره؟!

ولاحظتِ المرأةُ اندهاش الفيلسوف، وسألته عن سبب دهشته، فقال لها: لا لستُ مندهشاً، أنا فقط أفكّرُ في أمرٍ آخر!

شكرتِ المرأةُ الفيلسوفَ على لطفه ومساعدته لها، وأعطته المروحة التي في يديها هديةً له على معروفه معها، وأخرجت من حقيبتها مروحةً أخرى وعادت للتّهوية على قبر زوجها!

عاد الفيلسوفُ إلى بيته، وفي رأسه ألف سؤالٍ ليس له إجابة!

وعندما وصل إلى البيت استقبلته زوجته بالأحضانِ والتّرحابِ كما هي العادة، ولكنّها لاحظت فيه بروداً لم تعهده منه من قبل، ثمّ انتبهت إلى المروحة في يده، واشتعلت الغَيرةُ في قلبها، وظنّت أنّه كان مع امرأةٍ غيرها! فسألته من أين حصل على هذه المروحة التي يظهر من شكلها أنّها ممّا تحمله الحسناوات في روما عادةً!

وعلى ما يبدو أنّ الفيلسوف كان ينتظرُ أن تسأله ليجيبها، لا ليدفعَ التّهمةَ عن نفسه، بقدرِ ما كان يريد أن يطفئَ النّارَ التي أشعلتها هذه القصّة في قلبه!

قصّ عليها الحادثة بالتّفصيل، فما كان منها إلا أن انهالت على المرأةِ شتماً وقذحاً وذمّا، وأنّها قليلةُ الوفاء، خائنةٌ، وحانثةٌ بالعهدِ!

فقال لها: أنا لم أقل شيئا، فقط أخبرتكِ بما حدث!

فقالت: أعرف، ولكن أنا أخبرك بموقفي منها، ومشاعري تجاهها! على أيّة حالٍ دعك منها، لقد أفسدت علينا ما يكفي من ليلتنا ولا تستحقُّ أن نعطيها من حياتنا أكثر ممّا أخذت!

وبعد أيّامٍ قليلةٍ من هذه الحادثة مرضَ الفيلسوفُ مرضاً شديداً ألزمه الفراش، وسارعتْ زوجته بالإرسال وراء الطّبيب. حضر الطّبيبُ واختلى بالفيلسوف ثمّ خرج ليقول لها: سيّدتي أنا عاجزٌ عن تشخيص مرض زوجك، سأذهب إلى الإمبراطور وأخبره بالأمر علّه يرسل طبيبه الخاص فهو أمهر أطبّاءِ روما، ناهيك أنّ زوجكِ من مستشاري الإمبراطور ومقرّبيه وما أحسبه يرفض أن يرسل طبيبه!

خرج الطّبيبُ من بيت الفيلسوف، وبالفعل ما هي إلا ساعاتٌ حتى عاد برفقة طبيب الإمبراطور، ودخل الطّبيبان إلى غرفة الفيلسوف وأغلقا الباب وراءهما، بينما بقيت الزّوجة تنتظرُ خارجاً! وأخيراً خرج الطّبيبان من عند الفيلسوف، وقال لها طبيبُ الإمبراطور: سيّدتي، حالته ميؤوسٌ منها، لم يتبقَّ له من العمر الكثير، أعتقد هي مسألة يومٍ أو يومين!

فقالت له: هل من دواءٍ يمكن أن يشفيه، نحن نملكُ الكثير من المال؟

فقال لها: سيّدتي الأمر لا يتعلّقُ بالمال، ثمَّ إنَّ الإمبراطور أوصى أن يكون علاج زوجكِ على نفقته، ولكن للأسف لا علاج، كما أخبرتك، زوجكِ يُحتضر!

نزلتْ كلماتُ الطّبيبِ على رأسها كالصّاعقة!

وفي صبيحة اليوم التّالي خرجتِ الخادمةُ من غرفة الفيلسوف وهي تصرخ: سيّدتي، سيّدتي، لقد مات الفيلسوف!

حزنتِ الزّوجةُ على زوجها حزناً شديداً، وطلبتْ من الخدم أن يحملوه إلى مكتبه، ويضعوه على الطّاولةِ التي كان يكتبُ عليها، فهذه كانت وصيّته!

وبعد ساعةٍ قُرِع باب البيت، فذهبت الخادمة لترى من الطّارق، وعادتْ إلى سيّدتها لتقول لها: هذا أحدُ تلاميذ الفيلسوف، وقد جاء لزيارته بعدما سمع من طبيبِ الإمبراطور بمرضه، ولا أعرف ماذا أقول له!

قالت لها: قولي له إنّ الفيلسوف مات!

ذهبت الخادمة لتخبره، ولكنّها عادتْ مسرعةً، وقالت: سيّدتي، ما إن أخبرته بوفاة

الفيلسوف حتى خرَّ مغشياً عليه، وها هو ممدَّدٌ عند الباب!

فقالت لها: خذي معكِ الطّاهي وبعض الخدم وأيقظوه وليذهب في شأنه فلستُ راغبةً في رؤية أحدٍ!

ذهبت الخادمة لتنفِّذَ أمر سيِّدتها، ولكنَّها عادت بعد قليلٍ وقالت: سيِّدتي، عبثاً نحاول إيقاظه، إنَّه يبدو كجثةٍ هامدةٍ غير أنَّه ما زال يتنفَّس، وأخاف أن يحصل له مكروه!

فقالت لها: حسناً، أدخلوه إلى غرفة الضُّيوف وبعد قليلٍ سآتي لأرى ما قصّته!

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى جاءت السيدة إلى الغرفة وخرج الخدم جميعاً، أصيبت السّيدةُ بالذُّهول من وسامةِ تلميذ الفيلسوف، كان وسيماً إلى الحدِّ الذي اعتقدت فيه أن الضَّوءَ في الغرفة يخرج من وجهه ولا يأتي من النّافذة! وقفت تتأمله مندهشة لا تعرف ما تفعل، ولا ما تقول، لا شيء واضحٌ أمامها، وسامته غطّت على كلِّ شيءٍ حتّى أنها نسيت موت الفيلسوف!

وما هي إلا دقائق حتى فتح تلميذُ الفيلسوف عينيه، وحرَّكَ نظره في الغرفة، وعندما التقت عيناها بعينيه شعرت أنَّ قلبها قد سقطَ أرضاً! عيناه جميلتان أيضاً، جميلتان جداً وتأخذان القلبَ والعقل!

جلست بجواره، وأمسكت يده، وقالت له على الفور: اسمعْ، أنت مكلومٌ بفقد أستاذك، وأنا مكلومةٌ بفقد زوجي، حزنِي وحزنك على شخصٍ واحدٍ، ليستريح هذا الشَّخص في قبره، يجب أن تضع حزنكَ على حزني، وأضع حزني على حزنك ونتزوَّج!

فقال لها: كم أتمنّى هذا، على الأقل أحافظ عليكِ وفاءً منّي لأستاذي ومعلمي، لقد تعهّدني بالتّربيةِ والرّعاية، والتّعليم منذ سنواتٍ، ولكنّي لا أستطيع!

فقالت له: ولِمَ لا تستطيع؟!

- أنا مريضٌ كما ترين، إذا حزنتُ كثيراً أقعُ على الأرض كالميِّت، وإذا فرحتُ كثيراً

أقع على الأرض كالميّت، لا أستطيع!

- لا عليك، عرفتُ وضعك وأنا موافقةٌ مهما كان!

- ولكنّي أرفض أن أظلمك معي، لا يمكن أن أوافق على الزّواجِ بكِ وأنا على هذه الحال، أنت تستحقّين شخصاً أفضل مني!

- لا يوجد شخصٌ أفضل منكَ، أريدكَ أنتَ، وسأعالجك ولو كلّفني علاجك أن تذهب أموالي كلُّها، نحن أثرياء كما تعلم!

- أعلم، ولكن دوائي مستحيل.

- لا شيء مستحيل، ما هو دواؤك؟

- دوائي أن آكل دماغ رجلٍ لم يمضِ على موته أكثر من يوم!

- يا إلهي، أليس لك دواءٌ آخر؟

- وهل الدّواء على مزاج المريض يا سيّدتي؟ هذا دوائي!

جلستِ الزّوجةُ واضعةً رأسها بين كفّيها لدقائق دون أن تقول كلمةً واحدةً، ثمّ فجأةً نهضتْ من مكانها، وقالت له: قُمْ معي، دواؤكَ عندي!

ذهبتْ إلى القبو، وأحضرتِ الفأس، وتوجهتْ إلى مكتبة الفيلسوف حيث هو مسجّىً على مكتبه الذي كان يكتبُ عليه كما أوصى، تقدمتْ ببطءٍ، وبخطواتٍ متثاقلةٍ، ثمّ رفعت الفأس، وقبل أن تضرب بها رأس الفيلسوف، فتح عينيه، وقال لها: أليستِ المروحة في يدها أجمل من الفأس في يدك؟!

فانفجر الجميع بالضّحكِ، تلميذ الفيلسوف، والخدم، والطّاهي، فقد كان الفيلسوف قد رتّب كلَّ شيءٍ، ولم يكن هذا إلا اختباراً فشلت الزّوجة فيه، فوقعتْ ميتةً، وكان آخر عهدها بالدّنيا فأس في يديها تريدُ أن تُخرج به دماغ الرجل الذي عاهدته ألا تتزوج بعده!

هذه القصّة لا تتعارضُ مع المبدأ الأوّل الذي بدأتُ فيه الكتاب وهو: أنت تستحقُّ

فرصةً ثانيةً!

فلا يقلْ قائلٌ: ما لك تدعو المرءَ ألا يدفن نفسه بجوار ميِّتٍ، وأن ينطلق ليعيش حياته فإنَّ الحي أبقى من الميت!

ثم ها أنت هنا تناقضُ نفسك، وتلمزُ من فعلَ هذا بالغدر، وبأنَّ حبَّه لم يجاوزْ حنجرته!

إنِّي أعيذكَ باللهِ ألا تدركَ الفارق بين هذا وذاك!

بين أولئك الذين فقدوا أحبابهم، فغشيهم الحزنُ من كل مكان، وما طابَ لهم عيشٌ بعدهم، حزنُوا حتى استوحشُوا، وبكوا حتى نضبوا، ثمَّ نظُروا حولهم فوجدُوا أنَّها حياة عليها أن تمضي وأنَّ ما في القلب في القلب، ولكن على المرء ألا يجلد نفسه بسياطِ الفقد!

وبين هؤلاء الذين بدا لنا فقدانهم لأحبابهم كأنَّه بابُ سجنٍ قد فُتح، أو أغلالٌ قد كُسرت!

في المبدأ الأوَّل قرأنا عن النَّبيّ ﷺ يُرى الحزنُ على وجهه من فقدِ خديجة رضي الله عنها، وهنا نرى امرأةً لم تنتظر الرِّيح أن تجفِّفَ قبرِ زوجها فسارعت لتجفيفِه بالمروحة كي تتزوَّج غيرَه ولم يمضِ على موته أكثر من يوم!

أعيذك بالله ألا تدرك الفارق!

في المبدأ الأوَّل قرأنا عن ابن حزمٍ كيف بقي سبعة أشهرٍ لا يتجرَّدُ من ثيابه حزناً على فقد حبيبته، بل وما زال يذكرها بعد سنواتٍ طوال ويكتبُ عنها، ويخبرك أنَّه لو استطاع أن يفديها بدنياه كلها لما تأخَّر!

وهنا نرى زوجة تريد أن تكسر جمجمة زوجها وتستخرج دماغه منها لتطعمها من تريد أن تتزوَّج به!

الارتباط بعد شريكِ العمر ليس خيانةً، ولكن للفقد أدبه، والقلوب ليست قمصاناً تُخلع وتُرتدى بين يومٍ وليلةٍ!

حتّى الطّلاق الذي يقعُ عن شقاقٍ وخلافٍ له عِدّة، فكيف بالفِراق وقد كان الحبُّ قبله!

القانون 11: في الحبّ، اللّذّةُ بما تمنح لا بمَا تأخذ!

لذّةُ العطاءِ ثوازي لذّةَ الأخذ، بل تتفوّقُ عليها! فالذي يعطي الرّغيف للجائع يشعر بلذّةٍ أكثر من الجائع! والذي يقضي حاجة إنسانٍ يشعر بلذّةٍ أكثر من صاحب الحاجة! في هذه الحياة قيمة كلّ شيءٍ هي ما يمنحه لا ما يأخذه!

والحبّ ليس بعيداً عن هذا المفهوم أبداً، والحبيب الذي يريد أن يأخذ دون أن يعطي لم يفهم الحبّ أبداً! المحبّ الحقيقيّ لذّته في عطائه، وسعادته في منحِه، والحبّ السويّ هو الذي يتسابقُ فيه الاثنان على العطاء، فيا له من سِباق!

لذّةُ العطاءِ تُوازي لذّةَ الأخذ، بل تتفوّقُ عليها! فالذي يعطي الرّغيف للجائع يشعر بلذّةٍ أكثر من الجائع! والذي يقضي حاجة إنسانٍ يشعر بلذّةٍ أكثر من صاحب الحاجة! في هذه الحياة قيمة كلّ شيءٍ هي ما يمنحه لا ما يأخذه!

قيمة الشّمسِ بما تمنح من نورٍ ودفءٍ، وقيمة الشّجرة بما تطرحُ من ظِلّ وثمرٍ، ولولا حبّاتُ القمح لكانت السّنابلُ مجرّد نباتاتٍ هامشيّةٍ، ولكن بما تُعطي من السّنابل صارت أهمَّ نبتةٍ في حياة النّاس!

والحبُّ ليس بعيداً عن هذا المفهوم أبداً، والحبيب الذي يريد أن يأخذ دون أن يعطي لم يفهم الحبَّ أبداً، أو لعلّه ما دخل في قلبه ابتداءً ليفهمه انتهاءً، ولكن النّاس للأسف يُغلّفون الكثير من حاجاتهم بالحبّ ليعطوها شيئاً من النُّبل!

المحبُّ الحقيقيُّ لذّته في عطائه، وسعادته في منحِه، والحبُّ السويُّ هو الذي يتسابقُ فيه الاثنان على العطاء، فيا له من سِباق!

دخل الأحباشُ المسجدَ في يوم العيد يلعبون بالحِراب، فقال النّبيُّ ﷺ لعائشة رضي الله عنها: يا حُميراء، أتحبّين أن تنظرِي إليهم؟

فقالت: نعم!

فقام عند الباب، فجاءت عائشة ووضعت ذقنها على كتفِه، وأسندت خدّها على خدّه، وجعلت تنظر إليهم، فلما مضى وقتٌ، قال لها: حسبُكِ!

فقالت: يا رسولَ الله لا تعجَلْ!

فبقيَ واقفاً لها حتى اكتفت! وما بها حبّ النّظرِ إليهم أكثر، ولكنّها تقول: أحببتُ أن يبلغ النّساءَ وقوفه لي، ومكاني منه!

وإنّك لا تعرف في هذا الحديث ممّن تعجب!

من الرّجل الذي على عاتقه دعوة البشريّةِ كلّها، وعليه قيادة المجتمع في المدينة عسكريًا وسياسيًا واجتماعيًا، فإذا به لا يشغله كلّ هذا في أن يكون زوجاً رائعاً حنوناً، ينظر في سعادة زوجته، ويبادرها بأن يعرض عليها شيئاً غلب على ظنّه أنّها

ستجد فيه سعادةً وفرحاً!

فهو لو انتظرَ حتى تطلب منه هي أن تشاهد عرض الأحباش وهم يلعبون بالحراب في المسجد لبدا الأمر عاديًا. وهذا العاديُّ ليس قليلاً بالمناسبة، فإنّ إجابة طلب الحبيب إلى شيءٍ يحبّه فيه دليل على الحبّ! ولكن الفكرة كلها تكمن في المبادرة! بمجرد أن اعتقد أن هذا سيسعدها سارع بعرضه عليها، فكن مبادراً دوماً، لا تنتظر دائما منها أن تطلب، ولسنا نختلف أنّه لا بأس أن تطلب، ونُبلٌ منك أن تجيب، ولكن المبادرة لها طعمٌ فريدٌ، إنّها تُري حبيبكَ مدى اهتمامكَ، وهذا شيءٌ يأخذ بمجامع القلب!

أم تعجب من عائشة التي لا تخجل في أن تعيش مشاعرها، وأنوثتها، وغَيرتَها كما هي! وتستمتع بعيش هذه اللحظات بعفويّة، لتخبرنا أنّه لا شيء في الدُّنيا أروع من الحبّ الحلال، وأنّ قتل المشاعر، وكبتها باسم الورع ليس من الدّين في شيء! فهذا الدين ما جاء ليكبتَ الغرائز وإنّما ليهذبها، ولا ليحارب المشاعر وإنّما ليوجهها ويضعها في طريق الحلال، ثم يترك للنّاسِ حرّية الاستمتاع بها حلالاً!

حتى أنّها لا تخجل أن تُصرّح بما في قلبها تجاه ضرائرها، فهي اكتفت من المشاهدة سريعاً، وعندما قال لها ﷺ: حسبكِ!

كانت قد اكتفت من المشاهدة، ولكنّها بقيث تقول له: يا رسول الله لا تعجلْ!

لأنها تريد أن يبلغَ ضرائرها وقوف النّبيّ ﷺ الطّويل لها، ومكانتها في قلبه!

المرأة هي المرأة، فلا تتوقع من الإيمان أن يبدّلَ طبيعتها وغريزتها وفطرتها، الإيمان يؤدّبُ الأشياء فقط!

والرّجل هو الرّجل، فلا تتوقعْ من الإيمان أن يبدّل طبيعته وغريزته وفطرته، الإيمان يؤدّب الأشياء فقط!

في هذا الموقف كان النّبيُّ ﷺ هو الذي يجد السّعادة في السّعادة التي منحها لعائشة، ولكنهما لطالما تبادلا الأدوار، كان يسابقُ في رضاها، وكانت تسابقُ في رضاه، فإن لم يكن الحبُّ هكذا، فلا حبّ!

في غزوة تبوك، وقعت القرعة على عائشة ليصحبها معه، وكان من عادة النّبيّ ﷺ إذا أراد السّفر أقرع بين نسائه، فأيّما وقعت القرعة عليها أخذها معه، تطييبا لخواطرهنّ، وأثبت للعدل وإبداءً في أنّه لا يُميّزُ ولا يميلُ لواحدةٍ على حساب الأخريات، وإن كان معلوماً لديهنّ أنّ عائشة كانت أحبّ النّساء إلى قلبه بعد خديجة، ولكنّه من نُبله كان يُقدّم العدلَ على رغبةِ قلبه!

وفي طريق العودة من غزوة تبوك عسكر النّبيّ ﷺ بالجيش في مكان من الصّحراء ليستريحوا، فلما أرادوا الانصراف اكتشفت عائشة أن عِقداً لها قد انقطعَ، فحبسَ النّبيّ ﷺ الجيش عن المسير ريثما تجده!

أرأيتَ من قبل رجلاً يحبس الجيش كلّه مكانه لأجل أن تعثر زوجته على العِقد الذي ضاع منها وكان أثيراً على قلبها؟!

أرأيتَ كيف كان يجد سعادته في سعادتها، ورضاه في رضاها؟!

ولم يكن معسكر الجيشِ يومها على ماءٍ، ولم يكن معهم من الماء إلا ما يكفي ليشربوا، فكيف السّبيلُ وقد حضرت الصّلاة، والنّاس يريدون الوضوء؟!

فأخذ النّاس يلومون أبا بكر رضي الله عنه لما تسببت به ابنته من حبس الجيش على غير ماءٍ، فدخل أبو بكر خيمة النّبيّ ﷺ مغضباً، والنّبيّ ﷺ نائمٌ واضعٌ رأسه على فخذ عائشة، فلم يتكلّم معها، وإنّما جعل يطعنها بإصبعه في خاصرتها وهي تحتملُ منه ولا تتحرّك خشية أن يستيقظ النّبيّ ﷺ!

ثم قام النّبيّ ﷺ، وحضرت الصّلاة، وأنزلَ الله تعالى آية التّيمم فقال أُسيد بن حضير لأبي بكرٍ: ما هي بأوّلِ بركتكم يا آل أبي بكر!

فتيمّمَ النّاس، وصلوا، ولما يئسوا من إيجاد عِقد عائشة، أرادوا الارتحال فحركوا النّاقة التي كانت تركبُ عليها، فإذا العِقد تحتها، فأخذته ومضتْ!

حبس النّبيّ ﷺ الجيش كله ليعلّمنا أن الحنون يبقى حنوناً حتى في أصعب المواقف، وأنّ جبر الخواطر له متّسعٌ مهما كانت الظروف، وأنّ الإحسان إلى الزّوجة

ليس ضعفاً في الشّخصيّة، وأنّ مراعاة مشاعرها ليس تبعيّةً لها، وأنّ فعل ما يسعدها لا يعني أنها تحكمه، وأنّ السّعيَ لإسعادها ليس نقصاً في الرُّجولة، فهو سيّد الرِّجال، ولا يفعل إلا مكارم الأخلاق وتمام الرُّجولة!

فاجعلْ زوجتك ترى كل يومٍ أنّك تهتمُّ لمشاعرها، وافعلْ ما يسعدها، أزِلْ عنها الحزن إذا استطعت، واستغلَّ أصغر الفُرص لتظهر عاطفتك نحوها، أشياء صغيرة جداً يقوم بها الرَّجل تجعله يأسرُ قلب زوجته، فإنَّ إظهار الاهتمام هو إظهارٌ للحبّ!

أما أنتِ، فلعلكِ انتبهتِ كم راعى النّبيّ ﷺ خاطر عائشة، ولكنكِ لم تنتبهي كم راعته هي! أبوها يلومها، ويُعنّفها، ويطعنها بإصبعه في خاصرتها بعد أن أزعجه عتاب النّاسِ له لأنّ حبس الجيش كان بسببها!

لكنّها تكتم وجعها ولا تتحرَّك، ثابتة كالجبل في مكانها وهي المرأة الرَّقيقة، فقط لأنّها تخشى إن تحركت أن يستيقظ زوجها!

قدّمت راحته على راحتها، وهناءه على هنائها، واحتملت هي الوجع كي ينعم هو بالنوم!

فهل راعيتِ أنتِ زوجك كما فعلت أمكِ عائشة؟!

هل نهاكِ عن تصرُّفٍ يزعجه فانتهيتِ شراءً لرضاه؟!

هل نظرتِ في الطعام الذي يحبّه فطبختِه له؟!

هل احتملتِ من أمه ما لا يعجبك شراءً لخاطره؟!

هل أكرمتِ أهله وأقاربه لأنّ ذلك يسعده؟!

إياكِ أن تبحثي عن حقّكِ قبل أن تفرغي من بذلِ واجبكِ! لا أحد منا يحصد الحبّ إلا قبل بذره، والعاقلة من النّساء من تحتمل زوجها، وتسابق في رضاه، وتصون بيتها، ولا توقد بالخلافات ناراً هي أوّل من سيحترق بها!

داري على شمعتكِ تبقى مُتّقدةً طوال العمر، وابذري الحبّ تحصديه، ولا تفني عمركِ في المناكفات حتى إذا صرتِ غريبةً عنه، وصار غريباً عنك، جئتِ لتسألي

كيف مات الحبُ، أنتِ قتلتيه بيديكِ!

القانون 12: الحبُّ يسلبُ العقلَ!

النّاسُ في الحبِّ ليسوا سواءً، فمن النّاسِ من إذا أحبَّ كان كمن ينزلُ إلى البحر لا تبتلُّ منه إلا أقدامه، ومنهم من حاله في الحبِّ كمن ينزل إلى البحر إلى نصفِ ساقيه، ومنهم من يخوضُ غمار الماء حتى إذا بلغ رقبته أمسك نفسه، ومنهم من يُلقي نفسه في البحر حيث لا تسلم منه ذرَّة!

بعض الحُبِّ يسلبُ الإنسانَ عقلَه، فكأنَّ ما أصابه هو مسٌّ من السّحرِ! ولكنّه هذا السّحر العذب الذي لا تُفلحُ معه الرُّقى، ولا يريدُ صاحبه أن يبرأ منه أساساً!

النّاسُ في الحبّ ليسوا سواءً، فمن النّاسِ من إذا أحبّ كان كمن ينزلُ إلى البحر لا تبتلُّ منه إلا أقدامه، ومنهم من حاله في الحبّ كمن ينزل إلى البحر إلى نصفِ ساقيه، ومنهم من يخوضُ غمار الماء حتى إذا بلغ رقبته أمسك نفسه، ومنهم من يُلقي نفسه في البحر حيث لا تسلم منه ذرّة! ولا أحد بأفضل من أحدٍ، وإنّما هي طباعٌ قد فُطِر عليها النّاس، وما من خُلُقٍ إلا ويتفاوتُ النّاس فيه تفاوتاً عجيباً، ففي الكرم مثلاً هناك البخيل الشّحيح، وهناك من يعطي الثمرة، وهناك من يقاسمك رغيفه، وهناك من حُبّبَ إليه الكرم حتى أنّه ليعطيك الرّغيف وينام جائعاً!

في كتاب ذمّ الهوى لابن الجوزيّ، قال دِعْبِل الشّاعر: كنتُ في ثغرٍ من ثغور الجهاد، فنودي بالنّفير، فخرجتُ مع النّاسِ، فإذا بفتىً يجرُّ رمحه بجانبي، فالتفتُّ إليه، فنظر إليّ وقال: أنت دِعبل الشّاعر؟

فقلت: نعم!

فقال: اسمعْ منّي، ثم أنشدني قائلاً:

أنا في أمرَي رَشادِ

بين غزوٍ وجهادِ

بدنِي يغزو عدوِّي

والهوى يغزُو فؤادي!

ثم قال لي: كيف ترى ما قلتُ؟

فقلتُ له: هو واللهِ من جيّد الشّعر!

فقال: واللهِ ما خرجتُ إلا هارباً من الحبّ!

ثم قاتل حتى قُتِل شهيداً رحمه الله!

هكذا هو بعض الحبّ، لا يستطيع الإنسان له وصولاً، ولا يستطيعُ منه خلاصاً، حتّى تضيقُ به الدّنيا، بل يشعر أنّ هذا الكوكب كلّه جاثمٌ على صدره، والنّاسُ في هذا

مذاهب، وأرقاهم خُلقا، وأجملهم طريقةً من فرّ بما في قلبِه إلى الله!

وشرُّ الحبّ هو ما سلب العقلَ، فانقلبَ جرأةً على الله تعالى، وتعدّياً على شرعه، وكان الله في عون من كان امتحانه في قلبه، فإنّه والله امتحانٌ ما بعده من امتحانٍ، ولا قبله من اختبارٍ، وما سُمّي الهوى إلا من الهوان الذي يُنزله على صاحبه!

جاءث أعرابيّةٌ إلى أختٍ لها، فقالث: كيف بكِ من حبّ فلانٍ، فقالت: حرّك واللهِ حبُه السّاكن، وسكّنَ المتحرّك، ثم أنشدث تقول:

فلو أنّ ما بي فلقَ الحصَى

وبالرّيحِ لم يُسمَعْ لهنّ هبوبُ

ولو أنّني أستغفرُ اللهَ كلّما

ذكرتكَ لم تكتُبْ عليّ ذنوبُ

فقالت لها: والله لأسألنّه كيف هو من حُبّكِ!

فجاءته، فسألته عن حبّها، فقال: إنّما الهوى هوانٌ، ولكنّه خُولفَ باسمه، وإنّما يعرفُ ذلك من أبكته حتى مضاربُ خيامِ الحبيبِ!

وعوداً على ذي بدءٍ، إلى أيّ حدٍّ يمكن للحبّ أن يسلب العقل، روى الخرائطيُّ في كتابه «اعتلال القلوب»:

كان في بني اسرائيل راهبٌ يعبد الله، حتى كان يُؤتى بالمجانين يعوذهم فيبرؤون على يديه! وإنّه قد أتي بامرأةٍ ذات شرف في قومها قد جُنّث، وكان لها إخوةٌ أشداء قد تركوها عنده وعادوا ريثما تبرأ! وكانت المرأة آيةً في الجمال، فلما رآها وقعتْ في قلبه موقعاً، ولم يزل الشّيطان يزيّن له حتى وقعَ عليها، فحملث منه، فلما استبان حملها، أخذ الشيطان يُخوّفه، ويزيّن له قتلها، حتى قتلها، ودفنها!

فذهب الشّيطانُ في صورة رجلٍ، حتى أتى بعض إخوتها، فأخبره بما فعل الرّاهب، ثمّ أتى بقيّة إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرّجلُ منهم يلقى أخاه، فيقول: واللهِ قد أتاني آتٍ، فذكر لي شيئاً قد كبُرَ عليّ ذِكره!

فذكر ذلك بعضهم لبعضٍ، حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فساروا إليه حتى استنزلوه من صومعته، فأقرّ لهم بالذي فعل، فأمِر به فصُلِب، فلمّا رُفع على الخشبة، تمثّل له الشّيطان، فقال: أنا الذي زيّنتُ لك هذا، وألقيتُك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك، وأخلّصك!

فقال: نعم!

فقال له الشّيطان: تسجد لي سجدةً واحدةً!

فسجد له، فقتلوه وهو على هذه الحالة!

فهو قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيطانِ إذْ قالَ لِلإنسانِ اكْفُرْ فَلَمَا كَفَرَ قالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إنِّي أخافُ اللّهَ رَبَّ العالَمِينَ﴾!

هذه القصّة تُريك بجلاءٍ أموراً ثلاثة:

الأوّل: ألا تأمن على قلبك، فلا أحد منا قد حُصّنَ ضدّ الحبّ تحصيناً كاملاً فيمكنه أن يمضي عمره وهذا النابض في صدره كحجرٍ يابسٍ لا يلين، على العكس تماماً فإنّ المرء قد يقضي عمره كاملاً يحسبُ أنّ ما للهوى عليه من سلطان، ثم تحين اللحظة التي يغرقُ فيها من رأسه حتى أخمص قدميه!

الثّاني: القصّةُ تُريك إلى أيّ مدىً يمكن للشّيطان أن يلعبَ بالإنسان! فإنّه لعنه الله أسهل مراكبِ عبوره إلى العبد هو الهوى! ونحن إن كنا نتّفقُ أنّه ما على المحبّ إثمٌ ولا جريرة، ولا حتى إرادة في وقوع الحبّ في قلبه، فإنّنا في المقابل نتّفقُ على أنّ الإنسان إن لم يملك قلبه فإنّه يملك تصرّفاتِه وأعماله! ولكن من نافلة القول أنّ نعرف أنّ الإنسان أضعف ما يكون تجاه الشيطان إذا ما دخل الحبّ قلبَه!

الثّالث: القصّةُ تُريكَ عظمَةَ الإسلام، فإنّ الله تعالى ما وضعَ في إنسانٍ غريزةً إلا وجعل لها إلى الحلال سبيلاً، وما بدا باباً مغلقا فهو بابٌ قد أغلقه النّاسُ على أنفسهم! لقد ابتدعوا الرّهبانيّة التي حولتهم من بشرٍ فاضلين إلى آلاتِ عبادة، ولا أحد يستطيع أن يجابه الغريزة والفطرة، فلولا هذه الرّهبانية ما كان أيسر على هذا

الراهب وقد عشق هذه المرأة أن يتقدّم للزّواج منها. ولكنّهم قوم شقّوا على أنفسهم فشقّ الله عليهم! فالحمد لله الذي جعلنا على هذا الدّين، ملّة خليله إبراهيم عليه السلام، سنّة نبيّه الخاتم ﷺ فإذا ما وقع الحبّ في قلوبنا سعينا له حلالاً!

وليس بعيداً عما نحن فيه، فقد روى ابنُ القيّم في كتابه «روضة المحبيّن» أنّ امرأةً من بني إسرائيل يقال لها ميسونة، قد جاءت في خصومة لها إلى حَبرَينِ من أحبارٍ بني إسرائيل، فعشقاها، وكان كلُّ واحدٍ منهما يكتمُ عن صاحبه ما يجدُ منها!

فأُخبرا أنّها عند حائطٍ تغتسلُ، فجاءا، فتسوّرا عليها الحائط!

فلما رأتهما، دخلت غمراً من الماء، فسترت نفسها!

فقالا لها: إنّكِ إن لم تفعلي، ذهبنا فشهدنا عليكِ بالزور!

فرفضت أن تمكنهما من نفسها، فشهدا عليها، فلما قُرّبت ليُقام عليها الحدّ، نزل الوحي على نبيّ الله دانيال بتكذيبهما!

إنّ ما يستفادُ هنا هو نسخةٌ طبق الأصلِ عما ذكرته في القصّة السّابقة، فلا داعي لتكراره، وإنّما كان ذكر هذه القصّة وقبلها ما يشبهها لأنّ القصص إذا تشابهت في مضامينها، كانت آكدَ لتكون قانوناً عامًا، بخلافِ ما يُذكر الخبر الواحد منها، فيتوهّم المرءُ أنها لا تعدو كونها حادثةً فرديّةً، فاللهمّ احفظ علينا قلوبنا وعقولنا!

القانون 13: الحبُ الحقيقيُ لا يتطلّبُ الرّكض!

بعض النّاسِ يستمتعون بكونهم محظ رغبةٍ، وهم لا يحبّون من يحبّهم بقدر ما يحبّون هذا الحبّ الذي يقدّمُ لهم، يجدون لذّةً في أن يكونوا ملاحقين دائماً، وحين يلهث من يحبّهم وراءهم بكلّ ما أوتيَ من رغبةٍ في الوصول، تجدهم كمن يقلّبُ لحماً على النّار، يشويه كلّ لحظةٍ على جهة ريثما ينضج! ولا تستغرب لهذا فهُم حين يُحكِمون سيطرتهم على طريدةٍ ما تلبث أن تصير بالنّسبة إليهم مملولة فيبحثون عن غيرها!

هذا النوع من العلاقات متلفٌ للأعصاب، مهينٌ للكرامة، وعلى الإنسان أن يربأ بنفسه أن يكون هذه الطّريدة، أما الصّياد ففي الغالب مريضٌ نفسيٌ مصابٌ بالنّرجسيّة!

لا شيءَ في هذه الحياة إلا ويتطلّبُ سَعياً، حتى الحبُّ ما زال منذ الأزل وسيبقى للأبد سعيًا محموماً للحصول على الحبيب، ولكن هناك فارقٌ شاسعٌ بين أن يمشي كلُّ واحدٍ تجاه الآخر خطوةً، وبين أن يفرّ أحدهما من الآخر كما تهربُ الطّريدةُ من مفترسها، فإذا ما كانتِ الأمور كذلك عليك أن تتوقّفَ فوراً!

بعض النّاسِ يستمتعون بكونهم محض رغبةٍ، وهم لا يحبّون من يحبّهم بقدر ما يحبّون هذا الحبّ الذي يقدّمُ لهم، يجدون لذّةً في أن يكونوا ملاحقين دائماً، وحين يلهث من يحبّهم وراءهم بكلّ ما أوتيَ من رغبةٍ في الوصول، تجدهم كمن يقلّبُ لحماً على النّار، يشويه كلّ لحظةٍ على جهة ريثما ينضج! ولا تستغرب لهذا فهُمْ حين يُحكِمون سيطرتهم على طريدةٍ ما تلبث أن تصير بالنّسبة إليهم مملولة فيبحثون عن غيرها!

هذا النوع من العلاقات متلفٌ للأعصاب، مهينٌ للكرامة، وعلى الإنسان أن يربأ بنفسه أن يكونَ هذه الطّريدة، أما الصّياد ففي الغالب مريضٌ نفسيٌّ مصابٌ بالنّرجسيّة، وهؤلاء لا يتمُّ علاجهم عن طريقِ الكلام، حتى وإن قرأ أحدهم هذا الكلام، فسيعزفُ له وتر لذّةٍ فيه!

تُعتبر علاقةُ حبّ «نابليون بونابرت وجوزفين» أوضح دليلٍ على هذا النّوع من العلاقات، نابليون كان عاشقاً متيّماً، أما جوزفين فلم تكن أكثر من امرأةٍ لعوب! ويلخّص روبرت غرين هذه العلاقة في كتابه فنّ الإغواء قائلاً: التقى نابليون بجوزفين حين كان في السّادسةِ والعشرين من عمره، كان قد صنع لنفسه صورةً كقائدٍ شجاعٍ أنهى التّمرد في الأقاليم، وأرسى دعائم الدّولة الفرنسيّة، أمّا جوزفين فكانت في الثّالثةِ والثلاثين، أرملة سيّئة الصّيت، ولكن عندما زارته مرّةً لتعرّفه على نفسها، وجد نفسه صريعاً بحبّها!

كانا متناقضين تماماً من حيث الطّباع، كان هو خجولاً يُؤمن بالزّواج، وكانت هي منفلتةً باحثةً عن المتعةِ والنّفوذ!

كان نابليون في أعماقه رافضاً لعلاقة كهذه، ولكنّه بالمقابل لم يكن يفهم هذا الضّعف الذي يشعرُ به تجاه جوزفين! وهو على رغم انضباطه وامتناعه عن السّهر لم

يعرف كيف وجد نفسه يُلبّي دعوتها إلى إحدى السّهرات التي كانت تقيمها في منزلها أسبوعيًا!

كانت جوزفين تتعمّد الإيقاع بنابليون، وبينما هو يقع في غرامها شيئاً فشيئاً كانت هي تستمتع بهذه اللعبة، عدّة مرّاتٍ خلال السّهرة كانت تترك الجميع وتأتي إلى نابليون لتلاطفه، ثم بعد لحظاتٍ تبتعد عنه، وتشعره أنّه لا شيء بالنّسبة إليها!

أخذ يزورها من يومٍ لآخر، وكانت كثيراً ما تتجاهله، فيغادر منزلها وهو في قمّة غضبه، وما إن يصل إلى بيته حتى ترسل له برسالةِ حبٍّ قد رشّت عليها من عطرها! كانت تشويه قليلاً قليلاً، تستمتع باللعبة، بينما كان هو غارقاً فيها!

ارتسمت ابتسامة النّصر على فم جوزفين حين طلب نابليون يدها للزّواج، ولكنّها وافقت بدون أن تبدي حماسةً أبداً! وبعد يومين من الزّفاف غادر نابليون ليقود حملةً عسكريّةً في شمال إيطاليا!

كتب إليها يقول: أنتِ موضوع تفكيري الثّابت! ولكنّها حتى لم تتكلف عناء أن تكتب إليه ردًا على رسالته!

أصبح نابليون مشتت الفِكر، كان يغادر الاجتماعات باكراً، ويمضي وقتاً طويلاً في كتابة الرّسائل إليها دون أن يصله أيّ ردّ منها!

ثمّ أخيراً قررت أن تكتب إليه بعد أن طلب منها أن تنضمّ إليه في رحلته إلى إيطاليا، كانت رسالة باردةً جداً، خاليةً من أيّ عاطفةٍ، وتوّجت ذلك كلة بأن رفضت الالتحاق به!

كان عليه أن ينهي الحرب بسرعةٍ كي يرجع إليها، فأخذ يرتكب الأخطاء نتيجةً لاشتباكه مع العدو بحماسةٍ غير عاديّة. وبقي رغم كل هذا يكتب إليها الرّسالة تلو الرّسالة، هذه الرّسائل ما زالت محفوظةً حتى يومنا هذا، ومن الجمل التي كتبها لها:

- أنا أعيش من أجل جوزفين!
- أنا أعمل لأقترب منك، وأقتل نفسي لأصل إليك!

مضت أشهر ترجّى فيها نابليون جوزفين أن تأتي إلى إيطاليا إلا أنها انتحلت أعذاراً لا حصر لها! ولكنّها أخيراً وافقت على المجيء، وغادرت باريس نحو بريسيا التي كان نابليون اتّخذها مركزاً لقيادته. ولكنّ مناوشةً للجيش حصلت على امتداد الطّريق أجبرتها على الانعطاف نحو ميلان. كان نابليون في المعركة بعيداً عن بريسيا، وعندما عاد وجد أنّها ما زالت غائبة!

اعتبر نابليون أنّ خصمه «الجنرال فورمر» هو المسؤول عمّا حدث، وأقسم على الانتقام منه! وخلال الأشهر القليلة التالية بدا كأنّه يطارد هدفين بنفس القوة: فورمر وجوزفين!

وأخيراً التقى نابليون بجوزفين، ولكنّه كان قد عرف أنها توّجت هذا الإهمال كلّه له بأنها لم تكن مخلصةً له في غيابه!

بردت مشاعره تجاهها، وحاول أن يعاقبها بذاتِ الأسلوب، ولكنّها لم تكترث أبداً، كانت تعرف أنّها تَسيطر عليه تماماً!

قليلٌ من الدّموع، وبعض التّمثيل المسرحيّ، والتّظاهر بالنّدم، كفِلوا أن يبقى كالخاتم في إصبعها!

جعلها إمبراطورةً متوّجةً على فرنسا، ولو ولدت له ابناً، لبقيت إمبراطورةً حتى النّهاية، ولكنّهما في نهاية المطاف افترقا!

عندما استلقى نابليون على فراش الموت، كان آخر كلمة تفوّه بها هي: جوزفين!

أرأيتَ أنّي حين قلت لك إنّ هذا النوع من العلاقات مهينٌ للنّفسِ، ولكنّ المشكلة تكمن في أن الجميع يرى ويشاهد هذه الإهانة إلا الشّخص الذي يُهان!

وبرأيي إنّ سبب هذه العلاقات المريضة عموماً، وعلاقة نابليون بجوزفين خصوصاً، هو الجفاف العاطفيّ، نابليون جاء من أسرةٍ مفكّكةٍ لم يعرف فيها الحبّ أبداً، وفتح عينيه على الدّنيا ليجد نفسه في آتون الحروبِ والمعارك، كان قد نسيَ تماماً أنّ لديه قلباً! لهذا عندما جاءت جوزفين وجدته طريدةً سهلةً!

لهذا أقول: أغدِقُوا الحبَّ على أولادكم، وحتى على شركائكم كي تحموهم من أن يصبحوا طرائدَ سهلة لهؤلاء النّرجسيين المرضى!

البنت حين تشبع من الحبّ في البيت، حين تسمع كلمات الثّناء من أبيها، والمديح من أخيها، وتخبرها أمُّها بأنّها جميلة لن تقع فريسة أوّل جُملةٍ جميلةٍ تُقال لها!

والشّابُ النّاضجُ عاطفيًا، الذي يُنمّي فيه أبوه الثّقة، ويشعره بالأمان، وتغدِقُ عليه أمُّه الحنان، وتشعره بالثّقة، سيكون محصّناً من الوقوع في شبكةِ الصّيد أكثر من غيره ممن يتضوّرُ جوعاً لأدنى اهتمامٍ!

وحتى بعد الزّواج يمكن لأحدِ الزّوجين أن يكون صيداً سهلاً ما دام جائعاً لحبٍّ واهتمامٍ، طبعاً إنّ الحرام لا يبرره شيءٌ، والعلاقاتُ الآثمة تبقى آثمةً ولو كان البيت جحيماً، وإنّما أناقش فكرة إبعاد مصادر النّيران لأنّ هذا أسهل من محاولة احتواء اللهب!

النّرجسيُّون يجدون في الزّوجة المهمّشة عاطفيًا فريسةً سهلة المنال، إنّها تلتقط بمنقارها أوّل حبّةِ اهتمامٍ تُلقى إليها! والنّرجسيّاتُ يجدنَ هذا في الأزواج الذين لا يحصلون على إشباعهم العاطفيّ والجسديّ، وإشباع الجانب العاطفيّ لا يقلُّ أهميّةً عن الجانب الجسديّ!

خلاصة الأمر: إن لم يكن من الأمرِ بدٌّ أن تكون عاشقاً، فكن عزيزاً، إيّاك أن تكون ألعوبةً في يد أحدهم، ودعوا عنكم المغامرات الفارغة خارج رابطة الزّواج المقدّس! هذا الذي يأتيكِ في ثياب المُخَلّصِ لك، لو كان فيه خيرٌ لأعطى هذه العاطفة لزوجته، وهذه التي تأتيك كأنّها ملاكُ الرّحمة والعطفِ لو كان فيها خيرٌ لصبّتْ عاطفتها على زوجها وما كان لديها وقتٌ لك! ولكن للأسف يسهلُ على الفاشلين أن يقوموا بتجارب عديدة، أمّا الأنقياء فموفون بعهدهم إذا عاهدوا!

القانون 14: بعضُ الحبّ وَهم!

الحاجة إلى الحبّ، أخذاً وعطاءً، منحاً واسترداداً، سقياً وريًا، إن لم تُشبع في سياقها الطبيعيّ، تعمَدُ إلى الإشباع بطرقٍ لا تخطرُ على بالٍ، وإحدى أهم هذه الطرق، اختراع الحبّ وعيشه فعلاً!

أحياناً لشدّةِ حاجتنا للحبّ نَلوِي أعناقَ الكلام، ونفهمه على طريقتنا، لنجعله يروي عطشاً فينا! ونُحمّل الأحداث ما لا تَحتمِلُ لنجعلها خُبزاً نفُتّه لعصافير قلوبنا كي تشبع وتزقزق!

كيفَ حالك؟ لا تعني أبداً أنا أحبكَ!

لستُ أبالغُ إذ أقول إنَّ حاجتنا لأن نُحِبَّ أو نُحَبَّ هي أمُّ الحوائج كلِّها، نحن حين نُحِبُّ نخرجُ من قفص أنانيّتنا قليلاً، أو كثيراً! ونلمسُ بأصابع قلوبنا أحد أجمل معاني إنسانيّتنا! وحين نحِبُّ تنبتُ لنا أجنحةٌ ونُحلّق، لا شيء أجمل من أن يشعر الواحد منّا أنّه يعني كثيراً لشخصٍ ما، الحبُّ لا يُعْرِفنا أنفسنا فقط وإنّما يُكسِبنا قيمةً، نحن بعيون أحبّائنا لسنا أنفسنا في عيونِ الآخرين!

الحاجة إلى الحبِّ، أخذاً وعطاءً، منحاً واسترداداً، سقياً وريًّا، إن لم تُشبعْ في سياقها الطبيعيّ، تعمَدُ إلى الإشباع بطرقٍ لا تخطرُ على بالٍ، وإحدى أهم هذه الطرق، اختراع الحبِّ وعيشه فعلاً، وهذا يختلف كثيراً عن الحبِّ من طرفٍ واحد وسنأتي على ذكره في حينه!

أحياناً لشدّةِ حاجتنا للحبِّ نَلوِي أعناقَ الكلام، ونفهمه على طريقتنا، لنجعله يروِي عطشاً فينا! ونُحمّل الأحداث ما لا تَحتمِلُ لنجعلها خُبزاً نفُتُّه لعصافير قلوبنا كي تشبع وتزقزق!

كيفَ حالك؟ لا تعني أبداً أنا أحبكِ!

وكم عمرك؟ لا تعني أبداً أنتِ في سنٍّ مناسبةٍ للزُّواج، فهل تقبلين بي؟!

تصرُّفٌ لَبِقٌ لا يعني أبداً أنّي أهتمُّ لكَ اهتمام حبيبٍ بحبيبه!

فلا تخترعوا مشاعر من الوهم، ثمّ تعيشونها كأنها واقعٌ، وتريدون أن تفرضوا على النّاسِ أن يتعاملوا معكم على أساسها، فإن صدُّوكم اتهمتموهم بالغدرِ والخيانة!

ليس ذنبُ السّرابِ إذا ظنّه النّاس ماءً!

كان الجاحظ يرى في بعض المعلّمين شيئاً من الحُمقِ لكثرة مجالستهم الصبيان، والتّطبع ببعض طباعهم، وكان قد بدأ في تدوين بعض الحماقات التي رآها من بعضهم! ثمّ إنّه قد همّ أن يغيّر رأيه بعد أن عاشر معلّماً أيّاماً، ثم ما لبثَ أن رأى فيه من الحمق ما جعله يمضي فيما بدأ فيه!

وعن هذا يقول: مررتُ يوماً على مُعلِّمِ كُتّابٍ فوجدته في هيئةٍ حسنةٍ، ولباسٍ

جميلٍ، فقام إليّ وأجلسني معه، ففاتحته في القراءات القرآنيّةِ فإذا هو ماهرٌ فيها، وتدارستُ معه شيئاً من النّحو فوجدتُه فيه بارعاً، وتذاكرنا أشعار العرب فإذا هو بها ملمٌ، وتحدّثنا في اللغة فإذا هو فيها على دراية!

فقلتُ في نفسي: والله لقد قوّى عزمي على تقطيع دفتر المعلمين!

وكنت كلَّ يومٍ أزوره وأجالسه، فأتيتُ في بعض الأيّامِ إلى زيارته، فوجدتُ الكتّاب مغلقاً، فسألتُ عنه، فقالوا لي: ماتَ عنده ميّت!

فقلتُ في نفسي: أذهبُ فأعزّيه!

فجئتُ إلى بابه، فطرقته، فخرجتْ إليّ جاريته، وقالت: ما تريد؟

فقلتُ: أريدُ سيّدكِ.

فقالت: سيّدي جالس وحده في العزاء ما يعطي لأحدِ الطريقَ إليه!

فقلت لها: قولي له صديقك فلانٍ يطلبُ الإذن بالدُخول عليك!

فدخلتْ إليه، ثم خرجتْ إليّ، وقالت: تفضّلْ بالدُخول!

فدخلتُ إليه، فإذا هو جالسٌ وحده، فقلتُ له: أعظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول اللهِ أسوةٌ حسنةٌ! وهذا سبيل لا بدّ منه، فعليكَ بالصّبرا!

ثمّ قلتُ له: هذا الذي تُوفِيَ ابنك؟

فقال: لا.

قلت: فوالدك؟

قال: لا.

قلت: أخوك؟

فقال: لا.

قلتُ: فمنْ يكون؟

قال: حبيبتي!

فقلتُ في نفسي: هذه أوّلُ المناحس!

ثم قلتُ: سبحان الله، النّساء كثيرٌ، وتجد غيرها، وتقع عيناك على أحسنِ منها!

فقال: وكأنّي بكَ قد ظننتَ أنّي رأيتها؟!

فقلتُ في نفسي: هذه منحسةٌ ثانيةٌ!

ثم قلت: وكيف عشقتَ من لم تره؟

فقال: كنت في الكُتّاب، وإذا برجلٍ عابرٍ يُنشِد ويقول:

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ الله مكرمةً رُدّي عليّ فؤادِي أينما كانا!

فقلتُ في نفسي: لولا أنّ أمّ عمرو هذه ما في الدّنيا مثلها ما قيل فيها هذا الشِّعر! فهويتها، وملكتْ عليّ نفسي، فلمّا كان بعد يومين مرّ ذلك الرّجلُ وهو ينشد:

إذا ذهبَ الحمارُ بأمِّ عمرٍو

فلا رجعَتْ ولا رجعَ الحمارُ!

فعلمتُ أنّها ماتتْ، فحزنتُ، وقعدتُ للعزاء!

فقلتُ له: قد كنتُ عزمتُ أن أجعل كتاباً في حمق المعلّمين، فلمّا رأيتُكَ فترتْ همّتي، وهممتُ بتقطيعِ الكتاب، أمّا الآن فبكَ أبدأ هذا الكتاب!

لا شكّ أنّ العلم والثّقافة يعينان على فهم الذّاتِ قبل فهم الآخرين، ومتى ما فهم المرءُ ذاته، وفهم الآخرين، كان أقدر على تجنّبِ الكثير من الحماقات، أو التّصرفات الغريبة القادحة في المروءةِ وكمالِ العقل! ولكن هذه ليست بديهيّةً دائماً، إنّ الجفاف العاطفي، وعطش النّاسِ إلى الحبّ قد يفعل بهم الأفاعيل رغم كل ما يعرفونه ويحفظونه! فكم من حاملِ علمٍ إلى غيره هو عاجزٌ أن ينفع به نفسه، كقولِ الشّاعر:

كالعيسِ في البيداءِ يقتلُها الظّما

والماءُ فوقَ ظهورِها محمُولُ!

وإنَّ الذين حرّفوا التّوراة والإنجيل هم القساوسة والرُّهبان، وكانوا أعلم النّاس بها! وإبليس من أعلم الخلق ولكنّه في المقابل أكثرهم حمقاً، فلا تعارض، وقد تجتمعُ الأضّداد!

ما كان لأحدٍ أن يتخيَّلَ وهو يقرأ صفات المعلم في أوَّلِ القِصّة، وتمكّنه من القراءات، ومعرفته بالنّحو، والشّعر واللغة، أن يُفضي به الأمر إلى ما أفضى إليه! فإذا كان هذا هو حال النُّخَبِ فعن عوام النّاسِ حدّثْ ولا حرج!

يحدثُ كثيراً أن يتوهَّم المرءُ شيئاً، ويعيشُه كأنّه حقيقةٌ، بل وإنَّ جسده يستجيب استجابةً كاملةً لما توهّمته نفسه، فالجسدُ نهاية المطاف تابعٌ للنّفس، فتجده قد سمع كلمةً حلوةً لا تخرج عن حدودِ الأدب، فيتفاعل معها كأنّها قصيدة غزلٍ قيلت في محاسنه! وقد يرى تصرّفاً محترماً لا يخرج عن حدود اللباقةِ، فيعيش معه إحساس من عانقه حبيبه، بل وقد تجده إن لم يجد اليوم ما وجده بالأمس عاش ألماً وحسرةً، وأعرض عن الطّعام والشّراب، وجافاه النّوم، كأنَّ له حبيبٌ حقًّا، وأنّه قد خاصمه فعلاً!

إن كان فيك جوعٌ إلى شعورٍ ما، فليس لك أن تفرض على أحدٍ إشباعه لك لمجرّد أنّك استحسنته، قد تكون أنت في وادٍ وهو في وادٍ، وما أنت جائعٌ له هو متخمٌ منه، فلا تفرضْ نفسكَ، ولا تبن من الطّينِ كهيئةِ الطّيرِ ثم تنتظرُ أن يُنفخَ فيه الرُّوح!

لا تكُنْ مثيراً للشّفقة، ولا تشيِّدْ قصراً من الأوهام لأنّه سرعان ما سينهارُ فوق رأسكَ، وستخرج من هذه التّجربة أضعف مما دخلتها، والحماقة التّالية ستكون أكثر فداحةً من الحماقة الحاليّة!

القانون 15: إِعْرِفْ قيمةَ الأشياءِ وهي بين يديك!

إحدى مآسينا أنّنا كثيراً لا نعرفُ قيمة الأشياء إلا بعد فقدِها!

الأشياء يمكن تعويضها، ولكن من العسيرِ تعويض النّاس!

الكثيرون ممن انتهت علاقاتهم يحلمون بالرُّجوع!

والكثيرون ممن وقّعُوا أوراق طلاقهم اكتشفوا لاحقاً أشياء كثيرة جميلة في أزواجهم وزوجاتهم ما كانوا يرونها وهم معاً!

يحدث كثيراً ألا ندرك قيمة ما يفعله الآخرون لأجلنا إلا حين يتوقّفون عن فعله!

إحدى مآسينا أنّنا كثيراً لا نعرفُ قيمة الأشياء إلا بعد فقدِها! لا شيء كالمرض بإمكانه أن يخبرنا كم كان اللهُ تعالى متفضّلاً حين وهبنا الصّحة! وفقدُ الوظيفة يخبرنا أنّنا لطالما كنّا نتأفّف من النّعم! ويحدث كثيراً أن نبكي في الجنائز فيحسبُ النّاس أنّنا نبكي من فقدناه، بينما نحن في الحقيقة نبكي تقصيرنَا معه، وتفريطنَا به، ولكنّ البكاء لا يعيد راحلاً! فإذا أردتَ أن تعرف قيمة ما في يديك فتخيّل أنّه لم يعُد بين يديك!

البيتُ الصّغيرُ سيبدو في عينيكَ قصراً إن خطر على بالك أنّ المطاف سينتهي بكَ إلى أن تنامَ في الطّريق!

والولد الذي تتأفّف منه إذا نزلت درجته في الصّفّ درجةً، تخيّل نفسكَ تُشيّعه، وقتها فقط ستفهم قيمة أن تحبَّ النّاسَ كما هم بدل أن تحاول أن تُخيطَ منهم ثياباً على مقاس طموحكَ!

الرّاتب الذي بالكادِ يكفي الحاجة تخيّل نفسكَ بدونه، تخيّل أن تحتاج أبسط الأشياء ولا تجد أثمانها، وقتها فقط ستعرفُ أنّك أغنى مما تعتقد!

الأشياء يمكن تعويضها، ولكن من العسيرِ تعويض النّاس!

الكثيرون ممن انتهت علاقاتهم يحلمون بالرّجوع!

والكثيرون ممن وقّعوا أوراق طلاقهم اكتشفوا لاحقاً أشياء كثيرة جميلة في أزواجهم وزوجاتهم ما كانوا يرونها وهم معاً!

يحدث كثيراً ألا ندرك قيمة ما يفعله الآخرون لأجلنا إلا حين يتوقّفون عن فعله!

تمسك بأحبابك ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، من النّادر أن يتمّ ترميم العلاقات بعد كسرها، ولكن هذا يمكن أن يحدث، ولكن القاعدة الذّهبيّة تقول: إصلاح الأشياء أفضل من رميها!

يقولُ ابنُ حزمٍ في طوقِ الحمامة: حكايةٌ لم أزل أسمعها عن بعضِ ملوك البرابر: أنّ رجلاً أندلسيًا باع جاريةً كان يحبّها حبًا جمًا لفقرٍ أصابه، لم يكن يظنّ أبداً أنّ

روحه ستبقى عالقةً عندها كل هذا التّعلُّق، فلما صارث عند الذي اشتراها كادث نفس الأندلسيّ أن تفارقه، فأتى إلى الذي اشتراها منه، وحكّمه في كلّ ماله وما يملك على أن يعيدها إليه فأبى عليه ذلك!

فاستشفعَ عنده كلَّ وجهاء البلد، فلم يستطغ أن يُرجعها إليه أحد، وكاد أن يُجنّ ويذهب عقله، فأتى باب الملك، وأخذ يصيح بأعلى صوته، فأمر الملك بإدخاله عليه، فدخل، فأخبرَه بخبره، واسترحمَه، وتضرّع إليه، فرقَّ له الملك، وأمر بإحضارِ المشتري بين يديه، فحضر!

فقال له الملك: هذا رجلٌ غريبٌ وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليكَ!

فأبى الذي اشتراها وقال: أنا أشدّ حبًا لها منه، وأخشى إن أرجعتها إليه أن أستغيث بكَ غداً، وأنا في أسوأ من حالته!

فأرغبَه الملك بِالمال، فأبى ذلك، واعتذر بحبّه لها!

فلما طال المجلس، ولم يروا منه البتّةَ جنوحاً إلى القبول، قال الملك للأندلسيّ: يا هذا، ما لك عندي أبذله غير الذي رأيتَ منّي، وقد سعيث لك بأبلغ سعيٍ، وإنك تراه يعتذر أنّه يحبهُا أكثر منك، وأنّه يخشى على نفسه شرًا ممّا أنت فيه، فاصبز لما قضى الله عليكَ من فراقها!

فقال الأندلسيُ: فما لي بيدكَ حيلة؟

فقال الملك: ما أستطيعُ لك أكثر ممّا فعلث، وإنَّكَ رأيت شفاعتي لك، وبذل المال في شأنكَ!

فلما يئسَ الأندلسيُ في أن تعود الجارية إليه: ركض نحو الشُرفة وألقى بنفسه منها!

ففزع الملك، وابتدرَ إليه الغلمان من أسفل، فعادوا وأخبروه أنّه لم يتأذَ من ذلك الوقوع أذىً كثيراً!

فضعِد به إلى الملك، فقال له: ماذا أُردتَ بهذا؟

فقال: أيُّها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها!

ثمَّ همَّ أن يرمي بنفسِه من الشُّرفة مرَّةً ثانيةً، فمُنِع!

فقال الملك: الله أكبر، قد ظهرَ وجه الحُكْمِ في المسألة!

ثمَّ التفتَ إلى الذي اشترى الجارية، وقال له: يا هذا، إنَّكَ ذكرت أنَّكَ أودُّ لها منه، وتخاف أن تصير إلى مثل حاله!

فقال: نعم.

فقال الملك: فإنَّ صاحبكَ هذا قد أبدى عنوان محبَّته، وقذفَ بنفسه يريد الموت لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ وقاه! فقُمْ أنتَ فأفصِح عن حبِّكَ، وارمِ بنفسك من الشُّرفةِ كما فعل هو، فإن متَّ فبأجلك، وإن عشتَ كنت أولى بالجارية منه، إذ هي بين يديك، ويمضي صاحبُكَ عنكَ، وإن أبيتَ نزعتُ الجارية منكَ رغماً عنكَ ودفعتها إليه!

فامتنعَ قليلاً، ثم قال: أرمي نفسي! فلما اقترب من حافة الشُّرفة، ونظر إلى المسافة رجع!

فقال له الملك: هو والله ما قلتُ لك، فإمَّا أن ترمي بنفسك أو أنزعها منكَ رغماً عنكَ، وأعيدها له!

فهمَّ أن يرمي نفسه ثانيةً، وأخذ يتقدَّمُ ويرجع، فقال الملك لغلمانه: احملوه وارموه!

فلما رأى العزيمةَ منهم، قال أيها الملك: طابتْ نفسي أن أعيدها إليه!

فقال له الملك: باركَ الله بكَ، واشتراها منه، ودفعها إلى بائعها، وانصرفَ الجميع عنه!

كلُّ ما كرهتَ أن تراه في يدِ غيرك فتمسَّك به بيديك وأسنانك! الحياة لا تصفو لأحدٍ، وما من علاقةٍ إلا ولها ما يُنغِّصها، ولو أنَّ النَّاسَ كلَّما مشوا في طريقٍ وتعثَّروا فيه عثرةً رجعوا ما وصل منهم أحد! ولو أنَّ النَّاسَ كلَّما أحبُّوا ووقعت بينهم جفوةٌ أفلتوا أيديهم لأجل هذه الجفوة ما قامتْ لهم بيوتٌ ولا قلوب! من أراد الشَّهد مسَّه

بالضرورة بعضَ وخزِ النّحل، ومن أرادَ أريج الزّهر لم تسلم أصابعه من بعض الشّوك!
وما أجمل قول الرافعي: لا تغضبْ من حماقةِ امرأةٍ تحبُّها، ولا تغضبي من حماقةِ رجلٍ تحبّينه، وإلا فأين تدسّ الحياةُ سمَّها إن لم تدسّه في ألذِّ أطعمتها!

القانون 16: العِنادُ يَذْهَبُ بالحبِّ!

الخِلافاتُ تقعُ دائماً، والعقلاء يتغاضون، فإنّ العلاقات إنّما تستمرُّ بالتّغاضي والتّغافل، لأنّ كسب المواقف في هذه الحالات يعني كسر الطّرفِ الآخر، وتفكيكِ عُرى الأُسرة!

والذي يسعى فيها لكسبِ الجولة دوما سينتهي به المطاف وحيداً، أو أن يقف على أطلالِ حبٍّ باردٍ كان فيما مضى ملتهباً، فأيُّ حربٍ هذه التي يبارز فيها المرءُ نفسَه، ويغرز رمحَه في لحمِه!

لينوا فإنّ اللين أدوم للحبِّ!

ولا تسعوا إلى كسبِ المواقف، لأنّ كسب الحبيبِ أعذب من انتصارٍ فارغٍ في معركةٍ من العيبِ أن تُشهَر فيها سيوف القطيعة!

الإنسانُ ليس نبتةً تعيشُ في فلاةٍ ولا تحتاجُ إلا إلى جذورها، الإنسانُ كائنٌ لا تكتمل إنسانيّته إلا حين يألفُ ويُؤلَف!

ضخّموا لنا مفهوم الأنا حتّى صرنا لا نرى إلا أنفسنا!

وضخّموا لنا مفهوم الكرامة حتى صار أحدنا رأسه أيبس من الصّخر!

تمسّكُوا بأحبابكم، ولِينُوا لهم، إنّ المرء لا يكون خفيفاً إلا بمقدار ما يحمِل من أحباب، فالإنسان الفارغُ من أحبّته قد يبدو أنّه يمشي بخفّةٍ، ولكنّه في الحقيقة أثقل من جبل!

هناك أشخاصٌ لا يتكرّرون دائماً، وهناك أشخاصٌ إن خسرتهم فلن يعوّضك عنهم أحدٌ، والدُّنيا كلُّها لا تصلح أن تكون عزاءً عنهم!

كلُّ الذين أفلتوا أيديهم ومضوا، اكتشفوا في لحظةٍ ما أنّ ألم التّمسُّكِ أرحم مليون مرة من راحة التّخلي، لأنّ الحياة ليست بطولها وإنّما بطعمها، فإن قالوا لك: إنّ الإنسان يعيش دون أحبابه! فقل لهم: صدقتم، لا أحد يموت من فراقِ أحدٍ، ولكن سَلْهُ كيف يعيش!

روى داود الأنطاكيّ في كتابه تزيين الأسواق في أخبارَ العُشّاق:

إن الحَرْثَ المشهور بابن الفرند نشأ وابنة عمّه عفراءِ بنت الأحمر ممتزجين بالألفة إلى أن بلغا، فتزوّج بها، فأقاما مدّةً ينمو بينهما الهوى ويزيد!

إلى أن عزمت ذات يوم على زيارة أهلها، فجهّزها إليهم، فأقامت مدّةً وكلّ واحدٍ منهما يأبى أن يجيء بنفسه، وزادتِ الوحشة بينهما، وحلف أبواهما على أن يأتي أحدهما للآخر مخافةَ أن تزدريه العرب!

فمرضَ الحرثُ على فراقِ عفراء، وكتبَ إليها يقولُ:

صبرتُ على كتمانِ حبّكِ برهةً

ولي منكِ في الأحشَاءِ أصدقُ شاهدِ

هو الموتُ إن لم تأتِني منكِ رقعةٌ

وتقومُ لقلبِي في مقامِ العوائدِ

فكتبتْ إليه تقولُ:

كُفيتَ الذي تخشَى وصرتَ إلى المُنَى

ونلتَ الذي تهوى برغمِ الحواسدِ

والله لولا أن يُقالَ تَظنُّناً

بي السّوء ما جانبتُ فعلَ العوائدِ

فلما قرأ ما في الرُّقعة وانتشقَ ريحها، وكانت عفراء من أعطرِ أهلِ زمانها، غُشيَ عليه فإذا هو ميّتٌ!

فقيل لها: ما كان عليكِ لو أحييتِه بزيارةٍ؟

فقالت: خشيتُ أن يقال صبَتْ إليه، ولكنّي قاتلة نفسي عمّا قريب، فلم يشعروا بها إلا وهي ميتة!

وكما ترى فإنَّ هنا حُبًا قد قتله العناد، بل إنَّه قد قتل أصحابه أيضاً، وما هي إلا عزّة نفسٍ في غير موضعها، ويباسة رأسٍ من غير حاجةٍ، وليس الأبوان هما اللذان فرّقا بين الحبيبِ وحبيبةِ وإن كان لهما في هذا يدٌ لا شكّ، ولكنَّ الحبيبان قد أجريا الفرقة على نفسيهما بأيديهما!

فأين المشكلة أن تذهب الزّوجة إلى بيت أهلها فيشتاقُ إليها الزّوج فيأتي ليرجعها إلى بيتها؟ وأين المشكلة في أن ترجع هي إليه إن لم يأتِ هو؟ إنَّ عنادهما فيما بينهما ابتداءً هو الذي أشاع ما كان بينهما حتى دخل بينهما الأبوان!

وهذا درسٌ بليغٌ على هامش الحديث: لماذا على ما بين المحبّين أن يصبح مُشَاعاً يتناقله الناس؟! ولماذا لا يبقى الذي بيننا فيما بيننا فقط!

ثمّ وما هذه التهُمة الشّنيعة في أن يشتاق الحبيبُ إلى حبيبه فيأتيه؟

وما العار في أن يقال فلانٌ صبٌّ بحبيبه؟!

لا تهمة، ولا عار، ولكنّه العناد!

الحياة لا تحتاج إلى كل هذا العناد، ويباسة الرأس لا تأتي بخير أبداً، ومن الحكمة أن يكون المرء مرناً حتى مع من يكره، والحكمة والحبُّ يجتمعان في أن يكون المرء مرناً مع أحبابه!

يروي «إيسوب» في كتابه خرافات: أنَّ السّنديانة قالت يوماً للقصبة: يا لضعفكِ ولينكِ، لو حطَّ عليكِ عصفورٌ لانحنيتِ، ولو مرّت عليك نسمةٌ لأحنت رأسكِ! أنظري إليَّ كيف أقف قويّةً شامخةً، أتحدّى أشعة الشّمسِ، وأهزم الريح، وما يبدو لكِ عاصفةً، هو كالنَّسيمِ عندي، فلا شيء أبداً يمكنه أن ينال منّي!

فقالت لها القصبة: إنّ خوفي من الرِّيح أقل من خوفك! فعندما تهبُّ، انحني حتى تمرَّ، أما أنت فليباسةِ رأسكِ تتكسّرُ أغصانكِ!

وما كادت القصبة تنهي كلامها، حتى جاءت ريحُ الشَّمالِ أقوى وأعتى ممّا تأتي عليه عادةً!

انحنتِ القصبة كالعادة مع كلِّ هجومٍ للريح، أمّا السّنديانة فكانت تسقطُ غصناً بعد آخر!

يقولُ النّبيُّ ﷺ: ما كان الرِّفقُ في شيءٍ إلا زانه، وما نُزِعَ من شيءٍ إلا شانه!

الحياة مليئةٌ بالمواقف التي تأتِي على شكلِ ريحِ الشَّمال العاتية!

ويجب على الإنسان أن ينحني أمامها حتى تمرَّ، وهذا من حسنِ الخُلق، وأدبِ العِشرة، وطيب الأصل!

تقع الخلافاتُ الزّوجية في كل البيوت، والعناد في هذه المواقف دمارٌ للأسرة، وفرقةٌ للقلوب، ومجلبةٌ للوحشةِ والنُّفور!

العقلاء يتغاضون، فإنّ البيوت إنّما تستمرُّ بالتّغاضي والتّغافل، لأنّ كسب المواقف

في هذه الحالاتِ يعني كسر الطَّرفِ الآخر، وتفكيكِ عُرى الأُسرة!

والذي يسعى فيها لكسبِ الجولة دوما سينتهي به المطاف وحيداً، أو أن يقف على أطلالِ حبٍّ باردٍ كان فيما مضى ملتهباً، فأيُّ حربٍ هذه التي يبارز فيها المرءُ نفسَه، ويغرز رمحه في لحمِه!

لينوا فإنَّ اللين أدوم للحبِّ!

ولا تسعوا إلى كسبِ المواقف، لأنَّ كسب الحبيبِ أعذب من انتصارٍ فارغٍ في معركةٍ من العيبِ أن تُشهَر فيها سيوف القطيعة!

بادروا للصُّلحِ فإنَّ شراء الخاطر لا يعدله شيءٌ في قلبِ الحبيب، وإنَّ كسر الخاطر أليمٌ ككسرِ العظام تماماً وإن لم يُحدِث صوتاً!

القانون 17: قَدْ تُحِبُّ من هُو لَكَ كَارِهٌ!

غريبٌ أمرُ القلوبِ، إنهّا في صدورنا ولكنّنا لا نملكها!

وفي هذه الحياة قد تحبُّ من هو لك كارهٌ، وقد يحبُّك من ليس له في قلبك نبضة شعورٍ، فسبحان من جعل الأرواح جنوداً مجنّدةً، وعوالمَ خفيّةً لا نملك لها تفسيراً، ولا نستطيع معها شرحاً!

غريبٌ أمرُ القلوبِ، إنهّا في صُدورنا ولكنّنا لا نملكها!

وفي هذه الحياة قد تحبُّ من هو لك كارهٌ، وقد يحبُّك من ليس له في قلبك نبضة شعورٍ، فسبحان من جعل الأرواح جنوداً مجنّدةً، وعوالمَ خفيّةً لا نملك لها تفسيراً، ولا نستطيع معها شرحاً!

عدّ الحافظُ ابنُ حَجرٍ أسماءَ الصّحابة في كتابِهِ الإصابة، وكان ممّن عدّهم صحابيٌّ من قبيلة أسد اسمه بِشرٌ، أحبّته امرأةٌ في المدينة قبل مجيءِ النّبيّ ﷺ مهاجراً!

فجعلتْ تكتب إليه الأشعار وهو لا يُجيبها إلى شيءٍ مما قالت، فلم يجد في قلبه لها قبولاً، ولمّا عِلِم أنّها متزوّجة وهي لا تكفُّ عن مراسلتِه، هجر الطّريق التي كان يمرُّ بها بمحاذاة بيتها، وصار يروحُ ويجيءُ من غيرها. فمرضتْ، ولزمتْ فراشها، فأراد زوجها أن يحضر لها الأطبّاء فنهتْهُ، وقالت: أنا أعرفُ عِلّتي!

فلمّا علمتِ الطّريقَ التي يمرُّ منها بِشرٌ، أخبرت زوجها أنّها رأت في نومها أنّها متى سكنت في موضع كذا شُفيت!

فنقلها زوجها من بيتها الأوّل إلى بيتٍ غيره في الطّريق التي يروح ويجيءُ منها بِشرٌ، وفي هذه الأثناء استنارتِ المدينة بقدوم سيّدها ﷺ، وجاء بِشرٌ مسلماً مبايعاً على طاعة الله ورسوله!

وأطلعتِ المرأةُ عجوزاً على سرِّها، وأخبرتها بما تجدُ من حُبِّ بِشرٍ، فوعدتها العجوزُ أن تُدبِّر لها معه لقاءً!

فاعترضته العجوز في الطّريقِ، وطلبتْ منه أن يقرأ لها رسالةً قد أتتها، فوقفَ يقرأ لها، فقالت له: يا بُنيّ إنّك مسحورٌ، وما قلتُ لك هذا إلا عن يقينٍ عندي، فإن أتيتني في يوم كذا رقيتُكَ حتى تشفى!

وأخبرت العجوز المرأة بالخبر، ولما حان اليوم الموعود جاء بِشرٌ فأدخلته العجوز إلى بيت المرأةِ، وأغلقت الباب عليهما، وانصرفتْ!

ولما همّ بالخروج هارباً، جاء زوجها فوجدهما في البيت، فطلّقها، ثم مضى إلى

النَّبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، سَلْ هذا لِمَ دخل بيتي!

فقال بِشرٌ: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا زنيتُ مذ عرفتُك، ولكن القصّة كذا وكذا!

فأدّب النَّبيُّ ﷺ العجوز، وقال لها: أنتِ أصل البليّة!

ثم إن بشراً هويَ امرأةً، فراسلها ليتزوجها فامتنعت، فبقيت في قلبه حتى مات!

ولما علمت المرأةُ الأولى بموتِه جاءت، فلمّا رأته مسجىً سقطت ميتةً!

ثم جاءتِ العجوز إلى النَّبيّ ﷺ معتذرةً تائبةً، وأسلمتْ وحسُنَتْ توبتُها!

كم في النَّاسِ من أمثال هذا في كل عصرٍ!

إنَّ بشراً لم يحدِّثِ المرأة ولم يجالسها، ولكنَّها أحبته وحدها، أحبَّته حبًّا ملك عليها كيانها وهي ذات ِزوج، فأعوذُ باللهِ مما يفعل الهوى بالنَّاسِ!

وعلى كلِّ هذا الحبِّ الذي كان منها، ما وجد في قلبِه شيئاً لها، وصار قلبه من بعد ينبضُ بحبِّ غيرها، وغيرها كانت على غيرِ هواه!

أشياءُ كضربِ الخيال ولكنَّها الحياة!

روى البخاريُّ في صحيحه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعمِّه: يا عبَّاس، ألا تعجبُ من حبِّ مُغيثٍ بَريرةً، ومن بغضِ بَريرةَ مُغيثاً!

وبَريرةُ كانت أمَةً مملوكةً لأناسٍ من الأنصار، وكان لها زوج اسمه مُغيث، وتاقت نفس بريرة إلى الحرِّية، فكاتبت أسيادها لأجلِ العتق، وقصدت أمَّنا عائشة كي تساعدها في سدادِ مبلغ عتقها!

وعندما تنشَّقت بريرة أنفاس الحرِّية الأولى، فكَّرت في أمر زواجها، فهي لم تكن تحبُّ زوجها أبداً، والشَّرع يعطي الأمَة إن تحرَّرتْ خيار أن تبقى مع زوجها أو تفارقه، فقرَّرتْ بريرةُ أن تترك مغيثا، فكان يتبعها في طرقات المدينة يرجوها أن ترجع إليه! ولكنَّها لم تكن ترأف بحاله أبداً!

ولما يئس مغيثٌ أن ترجعَ إليه بريرة، قصد الرّحمةَ المهداة طالباً منه أن يشفع له عندها!

فقال لها النّبيّ ﷺ: يا بريرة، لو راجعته، فإنّه زوجكِ وأبو ولدكِ!

فقالت: يا رسول الله، أفتأمرني؟

فقال لها: إنّما أنا شافعٌ!

فقالت: لا حاجة لي به!

إلى هذه الدرجة يمكن أن يكون ما بين القلوبِ شاسعاً!

إلى درجة أن يحبّ أحدٌ أحداً حتى يشعر أنّه يحتاجه كي يتنفس، بينما صاحبه يشعر بالاختناقِ من وجوده!

ولا تستغربْ إذا علمتَ أن هذا الرّافض هنا قد يكون مرفوضاً هناك! وهذا المسيِئ إليه هنا قد يكون ساعياً هناك! فلا هو قادر على أن يفتحَ الباب لمن هويه، ولا هو قادرٌ على أن يبلغَ من يهواه!

القانون 18: لا تَنْصِب الفِخاخ!

بعض الأشياء تفقد قيمتها إذا طُلبت، والأشياء التي نتلقاها من الآخرين بمبادرة منهم يختلف طعمها كثيراً حين نتلقاها عن طلبٍ منّا!

ولكنّ العاقل من النّاسِ لا ينصِب الفخاخ لأحبابه ليسقطوا فيها، فإنّ هذا من أكثر ما يهدم العلاقات، وما هو إلا حزنٌ وأسى جرّه الإنسان على نفسه وقد كان بالإمكان تفاديه!

العاقل من النّاسِ يضع أقدام الآخرين على الطّريقِ المؤدّية إليه ليُيَسّر عليهم المسير نحوه!

لستُ أنكِرُ أهمّية المبادرة والاهتمام في الحُبّ، هذا شيءٌ نستلذُّه جميعاً، كلُّنا نريد أن نشعر أنّنا على قدرٍ عالٍ من الأهمّية، وأن هناك سباقاً للفوز برضانا!

ونكادُ نتّفقُ جميعنا أنّ الاهتمام مطلبٌ لا يُطلب!

بعض الأشياء تفقد قيمتها إذا طُلبت، والأشياء التي نتلقاها من الآخرين بمبادرةٍ منهم يختلف طعمها كثيراً حين نتلقاها عن طلبٍ منّا!

ولكنّ العاقل من النّاسِ لا ينصِب الفخاخ لأحبابه ليسقطوا فيها، فإنّ هذا من أكثر ما يهدم العلاقات، وما هو إلا حزنٌ وأسى جرّه الإنسان على نفسه وقد كان بالإمكان تفاديه!

العاقل من النّاسِ يضع أقدام الآخرين على الطّريقِ المؤدّية إليه ليُيَسّر عليهم المسير نحوه!

النّساءُ على سبيلِ المثال يُكثِرنَ من فعل شيء خاطئٍ حين يتعلّقُ الأمر بذكرى ميلادهنّ أو زواجهنّ، هنّ يحفظن هذه التّواريخ بدقّةٍ، وينتظرنَ من أزواجهنّ شيئاً مميّزاً فيها، وأغلب الرجال ينسون هذه التواريخ، لا لأنهّم لا يحبّون ما يتعلّقُ بها، على العكس تماماً، ولكن اهتمامات الرّجال مختلفةٌ عن اهتماماتِ النّساء، وفي الغالب يُحضِر الأزواج الهدايا في هذه المناسبات إرضاءً لزوجاتهم، وليس لأنّهم مقتنعون أنّها مناسباتٌ تستحقُّ احتفالاتٍ خاصّة!

ذكرى الزّواج عند الرّجال هو مجرّد يومٍ مهما كانوا سعداء مع زوجاتهم ويحبونهنّ! ولكن الأمر ليس كذلك عند النّساء، هذه الذكريات عند النّساء أشبه بأعياد الاستقلال عند الدّول يجب ألا تمرّ مرورَ الكرام!

فما المانع أن تُلمّح الزّوجة إلى اقتراب ذكرى ميلادها أو زواجها، وقتها ستصل الرّسالة إلى الزّوج، ويتذكر ما كان قد نسيه!

أمّا أن تتذكّرَ الزّوجة التّاريخ، وتُبقي زوجها في اختبارٍ نتيجته قد لا تُسعدها، فما هي إلا محاولة لزعزعةِ الاستقرار، وجرّ الأسى إلى البيت!

لستُ أختلف مع أحدٍ في أن طلب الاهتمامِ جارحٌ، ولكنّي لست أقول أبداً أنّ على الزّوجة أن تقول لزوجها: أحضِرْ لي هديّةً يوم ميلادي!

ما من امرأةٍ إلا وتعرف ألف طريقةٍ التفافية وتلميحيّةٍ لتحصل على ما تريده دون أن تكون مباشرة!

وكذلك الرّجل يمكنه أن يأخذ ما يريد دون أن يطلبه، الحياة يُعقّدها النّاس، وإلا فإنّ بعض الأمور هي من أيسر ما يكون!

في كتاب الأغاني للأصبهانيّ أنّ عمر بن أبي ربيعة كان متعلّقاً بالثُّريا بنت عليّ بن الحارث، وكانت من أجملِ نساء زمانها، وكانت تصطافُ في الطّائفِ كلّ عامٍ، وكان عمر بن أبي ربيعة وهو في مكّة يعمدُ إلى الرُّكبان الذين يحملون الفاكهة من الطّائف إلى مكة فيسألهم عن الأخبار!

فلقيَ يوماً بعضِهم، فسأله، فقال له: ما استطرفنا خبراً، إلا أنّي سمعتُ عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريشٍ نسيتُ اسمها، ولعلّه نجمٌ في السّماء!

فقال عمر: الثُّريا؟

فقال الرجل: نعم!

وكان عمر بن أبي ربيعة قد بلغه قبل هذا أنّ الثُّريا مريضةٌ، فلم يشكّ أنّها ماتت من مرضها، فمضى إلى الطّائف يسابق الريح، وسلك أخشن الطّرقِ وأقربها، حتى انتهى إلى الثُّريا، وقد توقعت مجيئه، فوجدها سليمةً ومعها أختاها، فأخبرها الخبر، فضحكتْ وقالت: أنا أمرتهم بهذا لأختبرَ ما ليَ عندكَ!

فقال لها يُنشدها:

تَشَكّى الكُمَيتُ الجَريَ لَمّا جَهَدتُهُ

وَبَيَّنَ لَو يَستطيعُ أن يَتَكَلَّما

فَقُلتُ لَهُ إن ألقَ لِلعَينِ قُرَّةً

فَهانَ عَلَينا أن تَكِلَّ وَتَسأما

لِذَلِكَ أُدني دونَ خَيلي رِباطَهُ

وَأوصي بِهِ أن لا يُهانَ وَيُكرَما

عَدِمتُ إذاً وَفري وَفارَقتُ مُهجَتي

لَئِن لَم أَقِل قَرناً إذا اللَهُ سَلَّما

هذا فخٌّ من فخاخ الحبِّ نصبته الثُّريا لعمر بن أبي ربيعة!

والثُّريا في النَّاس فكرة أكثر منها شخص! ولستُ أدري لِمَ علينا أن نضع أحبَّتنا في امتحانات لنرى إن كانوا سينجحون بها؟ ولِمَ علينا أن نختلق المواقف التي تظهر فيها المحبَّة؟!

الحياةُ من تلقاء نفسها تضع النَّاسَ جميعاً في امتحانات ليُظهروا ما في قلوبهم وعقولهم أيضاً!

لا تستعجلوا المرضَ فجميعنا نمرض، ولا تستعجلوا الأزمات فلا تخلو حياة إنسان منها!

القانون 19: مِنَ الحُبِّ ما مَلَكَ!

بعض الحبِّ يملكنا، يملكنا حقيقةً لا مجازاً، يصبحُ الحبيبُ فيه كالهواء نختنقُ بدونه، وكالماء نجفُّ بانقطاعه، وكالبيتِ نشعر أنّنا في العَراء بدونه!

والعربُ كانت أُمّةً عاشقةً بطبعها، وما كانوا يعجبون إذا سمعُوا خبر عاشقٍ، وإنّما كان عجبهم ممّن يُذكر ولم يطرقِ الحبُّ باب قلبه!

العربُ بطبعها أمّةٌ عاشقةٌ، ولم يكن القومُ يعجبون إذا سمعُوا خبر عاشق، وإنّما كان عجبهم ممّن يُذكر ولم يطرقِ الحبُّ باب قلبه!

يقول ابنُ القيّم: أحاديثُ العشّاق كانت زينةُ مجالسهم، وروحُ محادثاتهم، ويكفي أن يكون الأعرابيُّ الذي لا يُذكر لا مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال، فيعشقُ، فيُذكر في مجالس الملوكِ والخلفاءِ ومن دونهم، وتدوّن أخباره، وتُروى أشعاره، ويُبقي له العشقُ ذِكراً مخلّداً، ولولا العشق لم يُذكر له اسم!

فلا تعجبْ إذ أخبرتك أنّ علي الطّنطاوي له كُتيّبٌ صغيرٌ لطيفٌ اسمه «غزل الفقهاء» دوّن فيه أشعارهم الغزليّة رحمهم الله!

ولا تعجبْ كذلك إذ أخبرتكَ أنّ الجاحظ ذكر في البيان والتّبيين أنّ ابن شهاب الزهري على عظمة قدره ودينه وفقهه وتقواه قد قيل له: ها هنا نُسّاكٌ يَعيبون رواية شعر الغزل!

فقال: نسكوا نسكاً أعجميًا!

هؤلاء هم العرب يا صاحبي، أرقُّ النّاسِ قلوباً، وأدفأهم أفئدة!

كلُّهم عشّاق، خواصهم وعوامهم، فقيههم وجاهلهم!

كان عروة بن أذنية شيخ الإمام مالك من العلماء الثّقات، أوقفته امرأةٌ مرّةً وقالت له: أنت الذي يقال له: الرّجلُ الصّالح، وأنت تقول:

إذا وجدتُ لهيبَ الحُبِّ في كبدي

عمدتُ نحو سِقاء القوم أبتردُ

هبْني بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره

فمن لنارٍ على الأحشاءِ تتّقدُ؟

وكان محمد بن سيرين ينشد:

إذا خَدِرَت رِجلي وَقيلَ: شِفاؤُها

دُعاءُ حبيبٍ، كُنتِ أنتِ دُعائِيا

بعض الحبِّ يملكنا، يملكنا حقيقةً لا مجازاً، يصبحُ الحبيبُ فيه كالهواء نختنقُ بدونه، وكالماء نجفُّ بانقطاعه، وكالبيتِ نشعر أننا في العَراء بدونه!

روى الخرائطيُّ في كتابه اعتلالِ القلوب، وابنُ القيِّم في نزهة المشتاقين، أنَّ بِشرَ بن مروان كان إذا أمر أحداً من جنده بالذَّهاب إلى الحرب، ثم وجده قد أخلَّ بمركزه، أقامه على كرسيّ، ثم سمَّرَ يديه في الحائط، ثمَّ انتزع الكرسيَّ من تحت رجليه، فلا يزال يتشحَّطُ حتى يموت!

وأنَّه قضى بالبعثِ إلى الحرب على رجل عاشق حديث عُرس بابنة عمِّه، فلمَّا صار في مركزه، كتب إلى ابنة عمِّه يقول لها:

لولا مخافةُ بِشرٍ أو عقوبتِه

وأن يُرى بعد ذا في الكفِّ مسمَارُ

إذاً لعطَّلتُ ثغري ثمَّ زرتكم

إنَّ المحبَّ إذا ما اشتاقَ زَوَّارُ

فلمَّا وصلتْها رسالتُه، كتبتْ إليه تقول:

ليسَ المُحِبُّ الذي يخشَى العقابَ ولو

كانتْ عقوبتُه في فجوةِ النَّارِ

بل المحبُّ الذي لا شيءَ يُفزِعُه

أو يستقرُّ ومن يهواهُ في الدَّارِ

فلما قرأ رسالتَها قال: لا خيرَ في الحياةِ بعد هذا!

وأقبلَ حتى دخل المدينة، فأتى بِشرَ بن مروان في وقت غدائه، فلمَّا فرغ من غدائه، أُدخِل عليه، فقال له: ما الذي دعاكَ إلى تعطيل ثغرك؟ أما سمعتَ النداء؟!

فقالَ له: اسمعْ عُذري، فإمَّا عفوتَ، وإمَّا عاقبتَ!

فقال له بشرٌ: ويلكَ، وهل لكَ من عذر؟

فقصَّ عليه قصَّته، وقصَّة ابنةِ عمِّه.

فرَقَّ بشرٌ له، ونادى: يا غلام، امحُ اسمه من ديوان البعثِ، وأعطه عشرة آلاف درهم!

وقال للرَّجلِ: صحبتكَ السَّلامة، فالحَقْ بابنةِ عمِّك!

أرأيتَ إلى أيِّ حدّ كانوا عشَّاقاً، وإنَّ الأمير من العرب، وطبعه طبعهم، رقَّ له وقد كان من قبل جسوراً شديداً، وعقوبة التَّخلفِ عن الغزو عنده القتل بالطَّريقةِ الشَّنيعةِ التي جاءتْ في القصَّة!

وأمَّا الرَّجل فإنَّ الحبَّ قد ملكَه كما يملكُ السَّيدُ عبدَه! ذهب إلى الغزو فحرَّكه الشَّوق، والشَّوقُ إذا ما تحرَّك لا يتركُ في المرء شيئاً ساكناً! فتفكَّرَ في أمرِه، وتذكَّر العقوبة، فكتب إلى زوجته يخبرها أنَّه لولاها لجاء إليها!

وهي الأخرى ملكَها الحبُّ فشجَّعته على المجيء!

جاء وهو يعلم أنَّه إمَّا مقتولٌ أو معفيٌّ عنه، ويكفيه من الجرأة وصدقِ الحبِّ أنَّه جاء واحتمال أن يُقتل واردٌ جدًّا، بل هو أقرب منه إلى العفو!

واللهِ، لو أنِّي أردتُ أن أكتب كل ما قرأته أو سمعته في هذا الباب لما كفى كتاب بأكمله ليسعَه، ولكنِّي أعمدُ إلى ما يشرحُ القانون الذي أوردته، فأكون فوق الاختصارِ غير الشَّارح للفكرة، ودون الاطناب المخلِّ الذي تتشابهُ الأفكار فيه!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشَّاق لداود الأنطاكيّ، عشقَ عبدُ الله بن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه وعن أبيه عاتكة بنت زيد، وتعلَّق بها حتى كاد يطير عقله، فلمَّا تزوَّج بها أقام سنةً لا يشتغل بسواها، ثم قدم عليه تجارة من الشَّام فخرج ليرى أمرها، فخيِّل إليه حين خرج أنَّه لم ينظر إلى عاتكة!

فعاد في الأثر، وجلس معها وترك التجارة!

فلما كان يوم الجمعة، وهو معها، إذ فاتته الصَّلاة وهو لا يدري!

فجاء أبو بكر فوجدَه عندها، فقال له: أجَمَعتْ؟

فقال: وهل صلَّى النَّاس؟

فقال له: قد ألهتكَ عاتكة عن التِّجارة فلم نهتمَّ في ذلك، ولم نقلْ شيئاً، فها قد ألهتكَ عن الصَّلاة، فطلِّقها!

فطلَّقها تطليقةً واحدةً، فاعتزلت في ناحية من البيت.

ولما كان الليل قلقَ قلقاً شديداً وأنشد:

أعاتِكُ لا أنساكِ ما ذرَّ شارقٌ

وما ناحَ قمريُّ الحمَامِ المطوَّقِ

لها منطقٌ جزلٌ ومنصبٌ

وخُلقٍ سوى في حياءٍ ومصدقِ

فلم أرَ مثلي طلَّق اليومَ مثلها

ولا مثلها في غيرِ شيءٍ يُطلَّقِ

وكان أبو بكر رضي الله عنه على سطح المنزل، فسمعه، فرقَّ له، وأشفقَ عليه، وقال له: أرجعها!

فقال: قد أرجعتها!

فرأى غلاما له فقال له من شدة فرحه: أنت حرٌّ لوجه الله!

هذه القصَّة تُريكَ بجلاء كيف يملك الحبُّ الإنسانَ، فإنَّ عبد الله بن أبي بكر لم يكن يطيقُ فراق عاتكة لحظةً، شغلته عن التجارة عاماً، فما بردَ الحبُّ في قلبه، وما هدأ الشَّوقُ وهو معها، فلما فارقها ليزاول أعماله، شعر أنَّه ما شبع من النَّظر في وجهها ذلك اليوم، فعاد أدراجه، ومكث معها وترك التِّجارة!

ولو كانت أشغلته عن الدُّنيا كلّها لقلنا ما كان يجب، وإنّما قلبُ محبّ نرقُّ له، أمّا أن تشغله عن صلاة الجمعة، فلا يدري الوقت ما هو، حتى أنه ليسألَ باستغرابٍ: هل صلى النّاس!

هنا غضب أبو بكر لله، فهو لم يتدخَّل حين شغلته عن التّجارة، أما أن تصل الأمور إلى الصَّلاة فهذا ما لا سبيل إلى السكوت عنه! فلم يكن الأمر بطلاقها رغبةً في تفريق عاشقين، وإنما أراد أن يحفظ دين ابنه، ثم عاد ورقَّ له، وأمره أن يعيدها إلى عصمته عندما علم أنَّه لا يطيق فراقها!

وما أعذب قول عروة بن حزام خاتمةً لهذا القانون:

بنا من جوَى الأحزانِ في الصَّدرِ لوعةٌ

تكادُ لها نفسُ الشَّفيقِ تذوبُ

وما عجبِي موتُ المُحبّين في الهوى

ولكن بقاءُ المُحبّين عجيبُ!

القانون 20: الحبُّ من النّظرةِ الأولَى!

أكثر طريقتين يأتي الحبُّ بهما إلى النّاس هما:

الأولى: الحبُّ من النّظرة الأولى، حيث يضربكَ الحبُّ كصاعقةٍ تحيلك رماداً، فلا يبقَ فيك شيءٌ ليقاومه، فتستسلم وتنقاد له!

الثّانية: يأتي الحبُّ مع العِشرة، معاملةٌ دائمةٌ وثقةٌ تُبنى على مدار الأيّام، ينتج عنها إعجابٌ، ثم ما يلبثُ أن يصبح الإعجابُ حبًا، تتنبه فجأةً أنّك أحببتَ، لا تعلم متى ولا كيف، ولكنك تعلم أنّكَ قد أحببتَ!

فإن كان النّوعُ الأوّلُ ساحراً وصاخباً، فإنّ الثّاني لذيذٌ وعاقلٌ!

لا أحدَ يعرِفُ كيف يأتي الحُبُّ!

وقد حاولتُ أن أجيبَ عن هذا السُّؤال، فوجدتُ أنَّه أوَّلاً علينا أن نعرفَ ما هو الحبّ، ولمَّا نظرتُ فيه وجدته شيئاً كنفخِ الرُّوح، وحين يتعلَّق الأمر بالرُّوح نقف عاجزين إذ لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً!

ولكن أكثر طريقتين يأتي الحبُّ بهما إلى النَّاس هما:

الأولى: الحبُّ من النَّظرة الأولى، حيث يضربكَ الحبُّ كصاعقة تحيلكَ رماداً، فلا يبقَ فيك شيءٌ ليقاومه، فتستسلم وتنقاد له!

الثَّانية: يأتي الحبُّ مع العِشرة، معاملةٌ دائمةٌ وثقةٌ تُبنى على مدار الأيَّام، ينتج عنها إعجابٌ، ثم ما يلبثُ أن يصبح الإعجابُ حبًا، تتنبه فجأةً أنَّك أحببتَ، لا تعلم متى ولا كيف، ولكنك تعلم أنَّكَ قد أحببتَ!

فإن كان النَّوعُ الأوَّلُ ساحراً وصاخباً، فإنَّ الثَّاني لذيذٌ وعاقلٌ!

وبما أنَّ النَّوع الثَّاني ليس مستغرباً، ولا أعرف – فيما أعرف – أنَّ أحداً ينكره، وإنَّما النّقاش كان دوماً حول النَّوعِ الأوَّل، فلنفرِدْ له سجَّادةَ الكلام!

حكى ابنُ حزم في طوقِ الحمامة، إنَّ يوسف بن هارون الشَّاعر المعروف بالرماديّ، كان مجتازاً عند باب العطَّارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجمع النِّساء، فرأى جاريةً أخذتْ بمجامع قلبه، وتخلَّلَ حبُّها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع، وجعل يتبعها، فلمَّا صارت بين رياض بني مروان المبنيَّة على قبورهم في مقبرة الرَّبض خلف النَّهر، نظرت إليه مفرداً عن النَّاسِ لا يريد غيرها، فالتفتتْ إليه، وقالت له: ما لكَ تمشي ورائي؟

فأخبرها بعظيم بليَّته بها!

فقالت له: دعْ عنك هذا، ولا تطلبْ فضيحتي، فلا مطمع لك فيَّ أبداً، ولا إلى ما ترغبه سبيل!

فقال: فإنِّي أقنع بالنَّظر!

فقالت له: ذلك مباحٌ لك!

فقال لها: يا سيِّدتي، أحرّةٌ أم مملوكة؟

فقالت: مملوكة!

فقال لها: ما اسمكِ؟

فقالت: خَلْوَة!

فقال لها: وممن أنتِ؟

فقالت له: علمُكَ واللهِ بما في السَّماءِ السَّابعة أقرب إليك مما سألتَ عنه، فدعِ المُحَال!

فقال: يا سيِّدتي، وأين أراكِ بعد هذا؟

فقالت: حيث رَأيتني اليوم في مثل تلك السَّاعة من كل جمعة!

ثم قالت: أتمضي أنتَ، أم أمضي أنا؟

فقال: امضي في حفظ الله!

يقول يوسفُ بن هارون: والله لقد لازمتُ باب العطارين والرَّبض منذ ذلك إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر، ولا أدري أسَماءٌ لحسَتْها أم أرضٌ بلعتها، وإنَّ في قلبي منها لأحرُّ من الجمر!

يقول ابنُ حزم: وهي خَلوة التي يتغزَّلُ فيها في كثير من قصائده!

نظرةٌ واحدةٌ كانت كفيلة بأن تُضرِم نار الحبّ في قلبه إلى الأبد، ومخطئٌ من يظنُّ أنّه هيام شعراء، وعبث قصائد، بل وقع الحبُّ من النَّظرة الأولى لأفاضل النَّاس وأتقاهم، وإنّي شخصيًا إن كنت لم أعرف هذا النَّوع من الحبّ، فقد قرأت عنه كثيراً، ورأيته في أكثر من صديق بثَّ لي لواعج قلبه، ونار هيامه، وما أضرم تلك النار إلا شرارة النظرة الأولى، ولكنّنا لا نحبُّ جميعاً بطريقة واحدة!

جاء في صحيح مسلم من حديث عُروة بن الزُّبير، عن خالتِه الصِّديقة بنت الصِّديق عائشة قالت: لمَّا أصاب رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في سهمِ ثابت بن قيس، فكاتبتْ له على نفسها، أي تدفع له ثمن حرِّيتها فلا تكون له أمَةً، وكانت امرأةً جميلةً حلوةً، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتتْ رسول الله ﷺ تستعينه على كتابتها!

واللهِ ما هو أن رأيتها على باب الحُجرة، فكرهتها، وعلمتُ أنَّ رسول الله ﷺ يرى منها ما رأيتُ!

فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيِّد قومه، وقد أصابني من البلاءِ ما لم يخفَ عليك، فوقعتُ في سهم ثابت بن قيس، وقد جئتكَ أستعينكَ!

فقال لها النَّبيُّ ﷺ: فهل لكِ في غير ذلك؟

قالت: وما هو؟

فقال لها: أقضِي كتابكِ، وأتزوَّجكِ!

فقالت: نعم يا رسول الله، قد فعلتُ!

وخرج الخبر إلى النَّاسِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ تزوَّج جويرية بنت الحارث، فقال النَّاسُ: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسَلوا ما بأيديهم!

فلقد أُعتِق بتزويجه إيَّاها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلمُ امرأةً كانت أعظم بركةً على قومها منها!

بأبي هو وأمِّي، سيِّد النَّاسِ جميعاً، أتقاهم وأنقاهم، ولكنَّه من النَّاس، له قلبٌ وعواطف، رأى جويرية فوقعتْ في قلبه من أوَّل نظرة، ولأنَّه نقيٌ كماء زمزم، وطاهرٌ كصفحةِ في المصحف، سلك أقصر الطُّرق وأجملها إلى الحبِّ وهو الزَّواج!

فإن كنت ممن ضربك الحبُّ من أوَّل نظرة فلا تتهم من لم يعرفه أو يعترف به أساساً بأنَّه قاس بليد، فالنَّاسُ فيما يعشقون مذاهبُ!

وإن كنت قد أحببتَ رويداً رويداً، فلا تتهمْ من أحبُّوا من النَّظرةِ الأولى بأنَّهم

ضعاف قلوب ومتسرّعون، لا تلم المشتاق في أشواقه، حتى يكون في أحشائك ما في أحشائه!

وإنّك لو ذهبتَ إلى أكثر طبق شعبيّ يطبخه النّاس لوجدت أنّ لكلّ منهم طريقه ومذهبه، وكذلك الحبُّ، نتّفقُ جميعاً عليه، ونختلف في طريقته، فلا تجعلْ نفسكَ قياساً، ولا تجزمْ بأنّ طريقتك هي الفضلى، ما أدراكَ وأنت الذي لم تجرّب الحبَّ من النّظرة الأولى أنّك لربما تلتقي يوماً بشخص يشطرك نصفين من النّظرةِ الأولى! وما أدراك أنتَ الذي لا ترى الحبَّ إلا في النّظرةِ الأولى أنّك ستنظر يوماً إلى نفسكَ وتجد أنّك قد أحببتَ وستحاول أن تعرف متى وكيف، ولكنّكَ عبثاً تحاول!

القانون 21: القَلْبُ وما يهوَى!

الحبُّ لا يُؤخذُ بالعقل ولا بالفلسفة، وليس معادلةً حسابيّةً حين يقوم النّاس بحلّها ستتطابق إجاباتهم! الحبُّ غير خاضعٍ للمنطقِ أبداً، وما تراه أنتَ يأخذ بالألباب، قد يراه غيرك عاديًا، والعكس صحيح، فما تجده فاتناً جداً قد يكون عاديًا في نظر غيرك، ثم إنَّ الأمر ليس متعلّقاً بالنّظر أساساً، فليس كلُّ جميلٍ سيقع في قلبك، استحسانُ الشّيءِ بالعين لا يعني استحسانه في القلبِ أبداً!

دخلتْ بُثينةُ على عبد الملكِ بن مروان، فقال لها: والله يا بُثينة ما أرى فيكِ شيئاً ممَّا كان يقولُ جميل!

فقالتْ له: يا أمير المؤمنين: إنَّه كان يرنُو إليَّ بعينينِ ليستا في رأسك!

فقال لها: وكيف صادفتِه في عفَّته؟

فقالت: كما وصفَ نفسَه حيث يقول:

لا والذي تسجدُ الجِباهُ له

مـا ليَ بما دونِ ثوبِها خبرُ

ولا بفِيها، ولا هممتُ بها

ما كانَ إلا الحديثُ والنَّظرُ

ودخلتْ ليلى الأخيليَّة أيضاً على عبد الملك بن مروان، وكانت قد كبرتْ في السِّنِّ يومها، فقال لها: يا ليلى، ما رأى توبةُ بن الحُميِّر منكِ حتى عشقكِ؟

فقالت له: ما رأى النَّاسُ منكَ حين جعلوك خليفةً!

فضحكَ عبدُ الملكِ حتى بدتْ له سنٌ سوداء كان يُخفيها!

هاتان اثنتان من أشهر معشوقات العربِ، قيل فيهما شعرٌ عذبٌ ما زلنا نستلذُّه حتى الآن، يفيضُ بلاغةً، وعاطفةً، صورةً وبياناً، والزَّمنُ لا يُحابي أحداً، ولو لم يكن ما قيل جميلاً لما تخلَّد! وعلى هذا دخلتْ كلُّ واحدة منهما على عبد الملك بن مروان على حدة فلم يرَ في أي منهما ذاك الجمال الذي يخطف بألباب الشُّعراء، فضلاً عن أن يقال فيها هذا الشِّعر الخالد!

ولكنَّ الحبّ لا يُؤخذُ بالعقل ولا بالفلسفة، وليس معادلةً حسابيّةً حين يقوم النَّاس بحلّها ستتطابق إجاباتهم! الحبُّ غير خاضع للمنطقِ أبداً، وما تراه أنتَ يأخذ بالألباب، قد يراه غيرك عاديًا، والعكس صحيح، فما تجده فاتناً جداً قد يكون عاديًا في نظر غيرك، ثم إنَّ الأمر ليس متعلِّقاً بالنَّظر أساساً، فليس كلُّ جميل سيقع في قلبك،

استحسانُ الشَّيءِ بالعين لا يعني استحسانه في القلبِ أبداً!

حين كنَّا في الجامعة، كان لي صديق لطيفٌ ظريفٌ، أثيرٌ على قلبي وما زال كذلك، حدَّثني عمن سلبث قلبه من نظرة، لم يجمعهما حديث، ولا تعرفه هي أساساً، ولكنَّها على حدِّ قوله: أجمل امرأة في الجامعة!

لم يكن له من سلوى غير أن ينظر إليها من بعيد، وصادفَ أن جاءني يوماً، فكانت تقف مع زميلاتها قبل أن يصلنِي، فأصرَّ أن يجعلني أراها، فمضيتُ معه من الفضول ليس إلا، أردتُ أن أرى هذه الفاتنة التي لم يَرَ قبلها ولا بعدها! وحين وصلنا أخبرني أيهنَّ هي!

كانت تقف مع خمس نساء، وإنَّه لو قال لي حينها من التي يستحيلُ أن تكون هي من بينهنَّ، لاخترتها هي!

كانت –بعيوني أنا- عاديَّةً جدًّا، بل أقلّ، ولكن سبحان من جمَّلَ بعض النَّاسِ في عيون بعض النَّاسِ!

إنَّ الذي ينظر بقلبه يختلف كثيراً عن الذي ينظر بعينيه!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشَّاق لداود الأنطاكي، كان ذرعة بن خالد العذريّ غلاماً حسن الوجه، عذبَ المنطقِ، سخيَّ الكفِّ، راويةً عارفاً بأيَّام العرب وأشعارها، وخرج يوماً للصَّيد، فوجد نسوةً يغترفنَ الماء عند الغدير، وبينهنَّ جاريةٌ قد انفردتْ تمشِّط شعرها على جانب الغدير وقد أسبلته كأنَّه الليل المظلم، ووجهها من خلاله كأنَّه البدر في تمامه، وحين أبصرها سقطَ مغشياً عليه، فقامت إليه فرشَت عليه الماء، فلما أفاق وأبصرها قال: وهل مقتولٌ يداويه قاتله؟!

فقالت: كُفِيتَ ما تشكو!

فجلستْ وحادثته، فعادت إليه نفسه وقد داخله من الحبّ ما الله به عليم!

فرجع وهو يقول: خرجنا لنصيدَ فاصطادونا، ثم أنشدَ:

فلمّا رماني بالنِّبالِ مسارعاً

رقانِي وهل ميِّتٍ يداويه قاتله؟

ألا في سبيل الحبِّ صبٌ قد انقضى

سريعاً ولم يبلغْ مراداً يحاوله!

ثمَّ إنَّه لزم الفراش أيَّاماً، وأنَّ أمه أقسمت عليه حين سمعته يكرِّر الأبيات إلا أخبرها بحاله!

فأخبرها فعرفتِ الجارية، وهي ظريفة بنت صفوان بن واثلة العذريّ، فمضت إليها، وأعلمتها القصَّة، وقبّلت رجليها على أن تزور بيتهم فعسى أن يشفَى بها!

فقالت ظريفة لها: إنَّ الوشاة كثيرون، ولكن خُذي هذا الشَّعر إليه فإن أمسكه يشفى به!

ثم قصَّت لها شيئاً من شعرها، فلما ذهبت إليه جعل يتنشَّقه فتراجعت نفسه شيئاً فشيئاً حتى اشتهى ما يأكل، فوُضِع له الطعام، فأكل وقام ما به من بأس!

وكان يأتي قريباً من خيامها فيسارقها النَّظر، وتخالسه هي أيضاً، إلى أن فطِن أهلها، فأجمعوا على قتله، وبلغه ذلك فهرب إلى اليمن، وكان كلَّما اشتدَّ شوقه إليها قبّلَ شعرَها، وجعله على وجهه فيستريحُ لذلك!

فلما كان ذات يوم من الأيام وقد خرج لبعضِ حاجته، سقط منه الشَّعر، فلمَّا يئس أن يجده عزم على العودة، فمنعه أصحابه، فقال لهم: دعوني فإنِّي أرجو أن أظفر أو أموت!

فصحبه غلام في طريق عودته، فجعل يُحفِّظه أبياتاً، ويقول له: إذا حاذيتَ موضع كذا فإنَّه خيمتها فارفعْ صوتك فيه منشداً ولك كذا وكذا، وكان ممَّا قاله:

مريضٌ بأفناءِ البيوتِ مطَّرَحُ

به ما به لاعجُ الشُّوقِ يبرحُ

وقالوا لأجلِ اليأس عودي لعلَّ ما

تشكاه من آلامِ وجدكَ يُمسَحُ

وليس دواءُ الدَّاءِ إلا بحيلةٍ

أضربنا فيها غرامٌ مبرِّحُ

إذا ما سألناه نوالاً تُنيله

فضُمُّ الصَّفا منها بذلكَ أسمحُ!

فلمَّا سمعتِ الأبياتَ عرفتْ أنَّها من حبيبها، فرفعتْ صوتها تجيبُ وتسمِعُ الغلام:

رعى اللهُ من هامَ الفؤادُ بحبِّه

ومن كدتُ إليه من شوقِي أطيرُ

لئن كثُرت بالقلبِ أتراحُ لوعةٍ

فإنَّ الوشاةَ الحاضرين كثيرُ

فيمشُون يستشزُون غيظًا وشزَّة

وما منهم إلا أبٌ وغيورُ

فإنْ لم أزز بالجسمِ رهبةَ مصدرٍ

فالقلبُ آتٍ نحوكم فيزورُ!

فرجع الغلام إليه فأنشده الذي قالت، فأغميَ عليه، ثمَّ أفاق ومضى متنكِّراً حتى دخل بيته ولزمه أيَّاماً إلى أن زُفَّت ظريفةُ إلى رجل منهم يقال له ثعلبة، فلمَّا بلغه الخبر اضطربَ ساعةً، ثم أُغمِيَ عليه، فحُرِّكَ فإذا هو ميت! وبلغها ذلك فلزمت البكاء أيَّاماً، ولم تُمكِّن الرَّجل من نفسها، فلمَّا كانت ذات ليلة حتى خرجت بعد انتصاف الليل حتى انتهت إلى نهر فألقت نفسها فيه ولم تخرج إلا ميتة!

قال أبو شُراعة، وهو من الذين عرفوها، لم تكن والله ظريفة بهذا الحُسن، ولكن ذرعة هوِيَها، فوصفها كما هويها!

ولكنْ ذرعة هوِيَها! هنا مربط الفرس، وسرُّ كلّ شيء، الحبُّ ليس غيره هو الذي يجَمِّلُ الحبيبَ في عين حبيبه، وما وصفُ ظريفة الأوّل إلا في عين حبيبها وقد رآها بقلبه، أما وصفها الأخير فهو وصف أبو شراعة وقد رآها بعينيه!

القانون 22: نذالةٌ أن تقتَحِمَ بين مُحِبّين!

مخطئٌ جداً من يعتقد أنّ الوأدَ يشمل الأجسادَ فقط، وأنّه لا وأد إلا حين تحفر حفرةً وتضع فيها إنساناً ثم تهيل التُّراب عليه، الوأد يشمل القلوب أيضاً، أنت حين تأخذ من إنسانٍ حبيبه، وحين تفرِّق بينه وبين من يألفه، تكون قد وأدّته، ما يفعل المرء في حياته حيث يكون مجبراً على أن يمضيَ فيها دون قلبه؟!

في الحياةِ أشخاصٌ تشعر أن لا قلوب لهم، يتعاملون مع الحياة كأنّ في صدر أحدهم حجرٌ أصمٌ لا ينبضُ ولا يحسّ، عندهم التّفريق بين حبيبين أسهل من شربة الماء! ومن النّاس نُبلاءُ لا يطيب لأحدهم أن يفصلَ عصفوراً عن إلْفِه، ولا حتى أن يُبعد كُوبَين متشابهين في خزانة المطبخ!

في رواية «إنّي راحلة» ليوسف السّباعي، جملةٌ من أكثر الجُمل التي قرأتها وجعاً، جاءت على لسان «عايدة» بطلة الرّواية، بعد أن أُجبرت على ترك حبيبها والزّواج من آخر لا تحبّه، حين وُضع خاتم الخطبة في إصبعها قالت: ما ظننتُ قط أنّ الإنسان يمكن أن يُخنق من إصبعه!

لك أن تتخيّل كميّة الوجع في قلبِ هذه المرأة، كانت تشعر أنّ الخاتم في إصبعها أشبه بحبل مشنقة في رقبتها، إلى هذا الحدّ مؤلمٌ إبعاد إلْف عن إلفه، وتفريق حبيب عن حبيبه!

تقولُ إحدى الأمهات: رفضتُ فتاةً يُحبّها ابني، وزوّجته بأخرى، ليته عصاني وحاربني بها، فإنّي لم أستعذ ابني منها أبداً، إنّها تقف كالجبل بيني وبينه، رغم أنّه مرَّ على هذا خمسةَ عشرة عاماً، أراها في عينيه، في حسرتِه على أعتابِ صالات الأفراح، أراها كلّما جاء غاضباً من زوجته، كرهني ابني وأحبَّها!

اتّقوا اللهَ فى بناتكم وأولادكم، ولا تجبروهم على الزّواج ممّن لا يُحبّون، ولا تفرّقوا أيضاً بينهم وبين من يحبّون، لأنّكم بهذا لا تظلمونهم فقط، وإنّما تظلمون أيضاً من أجبرتموهم على الزّواج بهم، النّاس حيث تكون قلوبهم، لا حيث تكون أجسادهم!

ومخطئ جداً من يعتقد أنّ الوأدَ يشمل الأجساد فقط، وأنّه لا وأد إلا حين تحفر حفرةً وتضع فيها إنساناً ثم تهيل التّراب عليه، الوأد يشمل القلوب أيضاً، أنت حين تأخذ من إنسان حبيبه، وحين تفرّق بينه وبين من يألفه تكون قد وأدّته، ما يفعل المرء في حياته حيث يكون مجبراً على أن يمضيَ فيها دون قلبه!

يقولُ ابنُ حزم في كتابه طوقُ الحمامة: حدّثني القاضي يونس بن عبد الله، فقال: أذكرُ في أيام صبايَ جاريةً كان يهواها فتىً من أهل الأدب وتهواه، ويتراسلان، وكان

السّفير بينهما فتىً من أترابه كان يمكنه الوصول إليها، فلمّا عُرضت الجارية للبيع أراد الذي يُحبّها ابتياعها، فسارع الذي كان رسولاً بينهما فاشتراها لنفسه!

فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت دُرجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها، فأتى إليها وجعل يُفتّش الدُرج، وأخرج رسالةً من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمّخةً بالطِّيب!

فغضب، وقال لها: من أين هذا يا فاسقة؟

فقالت له: أنتَ جئتني بها يوماً!

فقال: لعلّه حديثٌ بعد ذلك الحين؟

فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف!

فكأنّما ألقَمَتهُ حجراً، فلم يعرف بما يجيب، وسكتَ!

لك أن تتخيَّل دناءة هذا المرسال السّاعي في البريد بين حبيب وحبيبه، هو يعرفُ الحبيب، وبينهما مودّةٌ وخُلطة، ويعرفُ مدى حبّه للجارية! ويعرفُ الحبيبة أيضاً، ويعرفُ أنّ قلبها متعلّقٌ بصاحبه، ورغم هذا لمّا سنحت له فرصةٌ أن يظفرَ بها دون من يُحبُّها وتحبُّه، سارع فاغتنم هذه الفرصة!

لم يكن فيه شرفٌ ينهاه عن قبيح هذا الفعل، ولا مروءة إذ أقدم على ما فعل وهو يعلمُ أنّ قلبَ كلِّ واحد منهما متعلّق بصاحبه!

ويحدث في زماننا من أشكال هذا الكثير وإن لم يكن بمثل هذه الحذافير.

فما زلنا نرى ذاك الذي يعرفُ أنّ الفتاة لها قلبٌ معلّق بشابٍ فلا يتورّع أن يأتيَها خاطباً!

ولست أناقش الأمر من زاوية الحلال والحرام، وإن كانت هي أمُّ الزّوايا، وعليها قياس الأشياء وقوامها!

ولكن ثمّة خُلُقٌ اسمه المروءة يجب أن يجعلَ المرء زاهداً في إتيان بعض الحلال!

والشّيءُ بالشّيء يذكر: من لطائف ما قرأتُ في التّفسير، قول الإمام القُشيريّ، عن قول سيّدنا سليمان عليه السّلام عن الهدهد ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾!

قال: العذابُ الشّديد أن يُفرّق بينه وبين من يحبُّ، فإنّ الفرقة عن الحبيب تجعل المرء كأنّما يتنفّس من خرم إبرة!

واللهِ إنّ كسر القلوب أليم جداً، أكثر ألماً من كسر العظام، ثمّ إنّ كسر العظام سرعان ما يلتئم أمّا القلوب فلا جبيرة لها!

روى داود الأنطاكيّ في كتابه تزيين الأسواق في أخبار العشّاق، خرج عبد الله بن عجلان يوماً إلى شِعب نجد يَنشدُ ضالةً له، فشارفَ ماءً يُقال له نهر غسّان، وكانت بناتُ العرب تقصده، فتخلع ثيابها وتغتسل فيه.

فلمّا علا ربوةً تُشرفُ على النّهر، ورآهنّ على تلك الحالة، مكث ينظر إليهنّ مستخفياً، فصعدنَ، وبقيت هند بنت كعب النّهديّ، وكانت طوية الشّعر، فأخذت تمشّطه وتسبله على بدنها، وهو يتأمّل شفوف بياض جسمها من خلال سواد الشّعر، ونهض ليركبَ راحلته فعجزَ، وأقعدَ ساعةً، وكان يُقال عنه قبل ذلك إنهم كانوا يضعون له أربع رواحل، فيقفزُ من فوق الثلاث على ظهر الرّابعة! فعند ذلك داخله من الحبّ ما أعجزه وعطّل حركاته، فأنشد يقول:

لقد كنتُ ذا بأسٍ شديدٍ وهمَّةٍ

إذا شئتُ لمساً للثريًا لمستُها

أتتنِي سهامٌ من لِحاظٍ فأرشقتْ

بقلبي ولو أستطيع ردًّا أرددتُها

ثم قال: هذه والله الضّالّةُ التي لا تُردُّ، ثمّ عاد وقد تمكّنَ الهوى منه، فأخبر صديقاً له، فقال له: أكتم ما بكَ واخطبها من أبيها فإنّه يُزوّجك بها، وإن أشهرت عشقها حُرِمتها!

ففعل ما نصحه به صاحبه، فخطبها، وَتَمّ الزّواج، وعاشا معاً على أهنأ حال وأنعم

بال، لا يزدادُ لها إلّا غراماً، ولا تزداد فيه إلا هياماً!

وبقيا على ذلك ثماني سنين لا تنجبُ فيها!

وكان أبوه ذا ثروة، وليس له غيره، فأقسم عليه أن يتزوّج غيرها ليولد له ولدٌ لحفظ النّسب والمال!

فعرض عليها ذلك، فأبت أن تكون مع أخرى، فعاود أباه، فأمره بطلاقها، فأبى أن يُطلّقها، فألحّ عليه وهو لا يُجيبه!

فبلغه يوماً أنّ ابنه سكران، وكان القوم على جاهلية، فرآها الأب فرصةً، وأرسل إليه يدعوه، وقد جلس مع أكابر الحيّ، فمنعته هندٌ وقالت: واللهِ لا يدعوك لخير، وما أظنّه إلا عرف أنّك سكران فيريد أن يعرض عليك الطّلاق، ولئن فعلت لمتُّ، وأظنُّ أنّك فاعل!

فأبى عبد الله إلا الخروج، وجاذبته، ويدها مخلّقة بالزعفران فأثّرت في ثوبه! فلما جلس مع أبيه، وقد عرف أكابر العرب حاله، فأقبلوا عليه يُعنّفونه، ويتناوشونه من كُلّ جانب حتّى استحى فطلقها، فلمّا سمعت بذلك احتجبت منه، فوجد من ذلك وجداً كاد أن يقضيَ عليه، وأنشد قائلاً:

طلقتُ هنداً طائعاً

فندِمتُ بعد فراقها

والعينُ يذرِفُ دمعُها

كالدُّرِّ في آماقها

خود رداح طفلةٍ

ما الفحشُ من أخلاقها

ولقد ألِذُّ حديثها

وأسَرُّ عند عناقها!

فلم يزل شوقه ينمو، ووجده يسمو، حتّى لزِم الفراش، وتوفي قبل عام الفيل بأربعة أعوام، وكان سبب وفاته أنّه قصد هنداً، وقد تزوّجت في نُمير، وهي قبيلة من عامر وكان بينهم وبين بني نهد قومه ثارات ودماء كثيرة، فحذّره أبوه من ذلك، ومنّاه الاجتماع بعكاظ في الأشهر الحُرم حيث تكفُّ العرب عن الحرب!

فأبى، وخرج سرًّا حتّى أتاها، فرآها جالسةً على حوض وزوجها يسقي إبلاً له، فلمّا تعارفا، ركض كلُّ واحد منهما إلى صاحبه، ودنا منه، حتى اعتنقا، وسقطا على الأرض، فجاء زوجها فوجدهما ميّتين!

كسرُ قلب ما كان له من داع، ومشكلة كان يمكن أن تحلَّ بغير طريقة، ولكن في هذه الحياة ستجد من لا يُراعي للقلوب موضعاً، ولا يلتفتُ للحُبّ التفاتاً، فإن كان هنا طلاقٌ قد حدث لأجل مال أو حفظ ثروة، فكم من قلوب كُسرت بالفراق وكان بالإمكان أن تجتمع فلا تُكسر، ولكنّ البعض رأى أنّ فلاناً أو فلانةً ليسوا على قدر المقام!

فنعوذ بك يا الله من أن نكسِرَ قلباً!

القانون 23: القُلُوبُ لَيسَتْ للبَيعِ!

عندما خطب عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فاطمةَ رضي الله عنها من النبيّ ﷺ، قبل النبيُّ ﷺ هذه الخطبة، وقال له: أعطِها شيئاً!

فقال عليٌّ: ما عندي شيء!

فقال له النبيُّ ﷺ: فأين دِرعُك؟

قال: هيَ عندي.

فقال له: فأعطها إيّاه!

هذا هو مهر بنت النبيّ ﷺ، وسيِّدة نساء أهل الجنَّة، درع!

المهرُ حقُّ المخطوبة، وليس ثمنها، علينا أن نُفرِّق بين الأمرين جيِّداً!

ليس في دِيننا ما نخجلُ به، هذا الدّين عظيم كلُّه، شرَعَه ربٌّ حكيمٌ ورحيمٌ وعادلٌ، وكلُّ تشريع فيه غابتْ حكمته عنك فخُذه بالتّسليم، فإنّك نهايةَ المطافِ عبدٌ وهو سبحانه ربّ!

وكلُّ تشريع وجدتَ في نفسك شيئاً منه فراجعْ نفسكَ فيه، واتَّهِمْ عقلك في إدراك جميع جوانبه، فإنّك إنسانٌ محدودٌ في حواسه وتفكيره، إنّك ترى السّرابَ في الصّحراء ماءً، خانتكَ عيناك، فإذا جئته لم تجد شيئاً! وإنّك لتنظر بعين عقلك إلى نفسك واللهُ سبحانه يُشرِّع للنّاس والمجتمع، إنّه العظيم، وأنت الضّئيلُ، فتأدّبْ!

المَهرُ حقُّ المرأةِ على الرّجل المتقدّم للزّواج منها لا خلاف في هذا، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يترك تقدير قيمتِه للنّاس بحسب قدراتهم وإمكاناتهم وعاداتهم، وحين يُسيءُ النّاسُ استخدام هذا الحقّ فهذا ليس خطأ المُشرِّع جلَّ في عُلاه ولكنّه خطأ النّاس!

كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رجلاً مُلهَماً مُحدَّثاً، يرى الأشياء بنور اللهِ، ورأى تنافس النّاس في إغلاء المهور، فأراد تحديدها، لأنّه يعلمُ أنّ هذا سيؤدّي إلى تأخير سِنّ الزّواج، وهذا مقتلة للمجتمع، فصعد المنبر، وخطب في النّاس عن نيّتِه في تحديد المهور، فقامت إليه الشّفاء بنت عبد الله، وهي من عاقلات النّساء، وقالت له: يا أمير المؤمنين، ليس لكَ هذا، إنّ الله تعالى قال: ﴿ إِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

فكيف تريدُ أن تُحدِّدَ ما أطلقه الله؟

فقال عمر: أصابت امرأةٌ وأخطأ عمر!

تَرَاجُع عمر بن الخطّاب عن تحديد المُهور لا يعني أبداً أنّ الأمر ليس بحاجة إلى نظرة تأمُّل، وصوابُ رأي الشّفاء بنت عبد الله لا يعني أبداً أن يأكل النّاس بعضهم بعضاً، حتّى صرنا نشهدُ بعض الشُّروط كأنّها بيعٌ للبنت في سوق النّخاسة، وتحميل الخاطب ما لا يطيق، فليس لكلِّ النّاس الغنى ذاته، وباب التّسابق في رفعِ المُهور إذا فُتحَ لن يُغلق أبداً!

عندما خطب عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمةَ رضي الله عنها من النّبيّ ﷺ، قبل النّبيّ ﷺ هذه الخطبة، وقال له: أعطِها شيئاً!

فقال عليٌّ: ما عندي شيء!

فقال له النّبيّ ﷺ: فأين دِرعُك؟

قال: هيَ عندي.

فقال له: فأعطها إيّاه!

هذا هو مهر بنت النّبيّ ﷺ، وسيّدة نساء أهل الجنّة، درع!

وما يفعله النّاس اليوم من المُغالاة في المُهور، وتكليف الخاطب ما لا يطيق ليس من سُنّة النّبيّ ﷺ، ويعتقدُ الأهلَ خطأً أن رفع المهر هو رفع من قيمة البنت، وهو في الحقيقة فوق أنّه بخلاف هدي النّبُوّة، فهو تسليعٌ للبنات ونوعٌ من التّجارة بهنّ!

والأدهى والأمَرُّ من المُغالاة في رفع المُهور، هو المُغالاة في مراسم الزّفاف، فالخاطب في الغالب موظّفٌ حديثُ عهد بوظيفته، وهو يجمعُ المهر بشقّ النّفس. فيحمّله الأهل مراسم زفاف بالكاد يُطيقها الأغنياء من النّاس: وهذا وذاك فيه جهلٌ بمقاصد الزّواج، والهدف منه، وأثره الطيّب على المجتمع إذا ما حصل باكِراً، ولستُ أبالغ إذ أقول إنّ ثُلثي مشكلات المجتمع الأخلاقيّة والسلوكيّة هي بسبب تأخّر سنّ الزّواج!

وكم من قلوب كُسِرت لأنّ النّاس خلطُوا بين عقدِ الزّواج وبين عقد صفقة تجاريّة، وكم من أحباب تفرّقوا وما فرّقتهم إلّا يدُ الأهل، فاتّقوا الله في النّاس!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشّاق لداود الأنطاكيّ:

أحبّ الصّمّة بن عبد الله القُشيريّ ابنة عمّه ريّا، وكان أديباً شجاعاً عارفاً بأيّام العرب ووقائعها! وكانت ريّا ذات ظرافة وفراسة وجمال، نشأت مع الصّمّةِ صغيرين وكانا يتذاكران الأدب وحلوَ الأشعار، فأُعجب بها وتمكّنت منه، وكان في قلبها له مثل الذي في قلبه لها!

فلمَّا شكا ما يجدُ منها إلى بعض أصدقائه، أرشده إلى أن يتزوَّجها، فخطبها من عمِّه، فوافق عمُّه، واشترط مئة ناقة مهراً، والقوم يومئذ على جاهليَّة!

فمضى الصِّمَّةُ إلى أبيه، فأعطاه تسعاً وتسعين ناقة، فأبى عمُّه أن يُزوِّجه إلَّا على مئة، وحلفَ على ذلك!

فخرج إلى العراق هارباً من جور عمِّه وأبيه، فقالت ريَّا: ما رأيث رجلاً أضاعه عمّه وأبوه مثل الصِّمَّة!

وفي غياب الصِّمَّة، جاء رجلٌ يُقال له غادي بن رشيد، فخطب ريَّا من أبيها على ثلاثمئة ناقة، فزوَّجه بها!

ودخل على الصِّمَّة صاحبٌ له وأخبره بزواج ريَّا، فأنشد:

حنَنْتَ إلى ريَّا ونفسُك باعدث

مزارُكَ من ريَّا وسعياً كما معاً

فما أحسن أن يأتي الأمر طائعاً

وتجزع أنَّ داعيَ الصِّبابة أسمعا

كأنَّك لم تسمعْ وداعَ مُفارقٍ

ولم ترَ شِعْبَي صاحبين تقطَّعا

بكث عيني اليُمنى فلمَّا زجرتُها

عن الجهل بعد الحِلْمِ أسبلتا معاً!

ولمَّا طال مرضه، أحضر له صاحبه طبيباً، فرآه الطَّبيب فقال: ما به إلَّا العشق! ورأى أن يلزمَ النُّزهة ناحية البساتين فلعلَّ ذلك أن يخفِّف عنه!

فبينما هو ذات يوم على شاطىء دجلة، إذ سمع امرأة تُنادي على ابنتها: يا ريَّا! فخرَّ مغشياً عليه، فحملوه إلى بستان قريب، فلمَّا أفاق أنشد:

تعزَّ بصبرٍ لا وجدكَ لا ترى

سنام الحِمى إحدى الليالي الغوابرِ

كان لساني من تذكُّري الحِمى

وأهل الحمى يهفو به ريشُ طائر

وما زال يردّدُ الأبيات حتَّى مات، ولمَّا وصل إلى ريَّا نبأ وفاته داخَلَها من الوَجْدِ ما أمسكت معه عن الطَّعام والشَّراب، ولزِمت الفراش مريضة، وجعلت تبكي حتَّى ماتتْ!

قتلوهُ بناقة، بتناحة ويباسةِ رأس، وما ضرَّ العمُّ أن يقبلَ المهر ناقصاً ناقةً، وما ضرَّ الأبُ أن يدفعَ ناقةً فوق الذي دفع، ولكن هذا هو شأن القلوب دوماً أن تذهبَ دهساً بأقدامِ النَّاس!

العقلاء والنُّبلاء منَ النَّاس لا يقفون في طريق قلوب أولادهم، بل وأكثر من هذا لا يقفون حتَّى في طريق قلوب الغرباء من النَّاس، وإنَّما يعدُّون وصل المحبِّين لبعضهم، والجمع بينهم من فضائل الأعمال، وأجمل القُربات، ولك أن تُقارن القصَّة السَّابقة بما سأقصُّه عليك الآن!

حكى معبدٌ المُغَنيّ قال: بينما أنا جالسٌ إذ طُرِق بابي، فقلتُ للغلام: أخرُج فانظُرْ من بالباب! فخرج وعاد مستأذِناً، فأذِنتُ، فدخلَ غلامٌ، ووضع بين يديَّ ثلاثمئة دينار، وقال غنِّ لي:

بِاللهِ يَا طَرْفِيَ الْجَانِي عَلَى كَبِدِي

لِتُطْفِئَنَّ بِدَمْعِي لَوْعَةَ الْحَزَنِ

الدَّهرُ مِنْ جُمْلَةِ الْعُذَّالِ فِي سَكَنِ

فَلَا أَرَاهُ وَلَو أُدرِجتُ فِي كَفَنِي

فعملتُ للبَيْتَينِ لحناً شجيًّا، وغنَّيتُهُ به، فأُغمِيَ عليه، فنضحتُ عليه الماء، فلمَّا أفاق جعل يُقبِّلُ يديَّ ورجلَيَّ على أن أُعيد الصوتَ!

فقلتُ: أخشى أن تموت!

فقال: ليتَ لي ذلك!

فغنّيتُهُ الصوتَ فخرَّ مغشيّاً عليه، فلم أزل أنضحه بالوردِ والطِّيبِ حتّى أفاق، فوضعتُ الدنانير في يديه، وقلتُ له: خذها وامضِ عنّي!

فقال: لك مثلها إن أعدته!

فقلتُ له: إن أقمتَ عندي وأكلتَ طعامي حتّى تُقوِّي نفسك، وأخبرني بقصّتك، أعدتُه عليك؟

ففعلَ، وحدَّثني أنه خرج مع أصحابه إلى روضة فإذا هم بنساء بينهنَّ فتاةٌ قد فضحتِ الشَّمس بعينين لا يرتدّان إلّا باقتناصِ النَّفسِ، فأوقعت به، وعاد مسلوب العقل، فأقام لا يعرفُ لها خبراً حتّى كاد أن يُقضى عليه! فقالت له قرابتُه: لا بأس عليك، نحن النّساء في طلبها، ولا نعود إلّا بخبرها، فخرجوا جميعاً، فرآها، وقال للنّساء قولوا لهذه الفتاة، لقد أحسن من قال:

رمتنِي بسهمٍ أقصدَ القلبَ وانتنتْ

وقد غادرتْ جرحاً به نُدوباً

فقالت لهُنَّ: قد أحسن من أجاب:

بِنَا مثل ما تشكُـو فصبراً لعلَّـــنا نرى فرجاً يشفى السَّقام قريباً

فأمسكتُ عن الجواب، وتبعتها حتّى عرفتُ المنزل، فكنّا نجتمع ونتحادث إلى أن علمَ أهلها فحجبوها، وخطبتُها فامتنعوا عن تزويجي محتجِّين أنّي شهَّرتُ بها، فها أنا على ما ترى!

يقول معبدٌ: فأتيتُ الخليفة، فغنَّيتُ له الأبيات فطرِب لها، فقلتُ يا أمير المؤمنين إنَّ لهذه الأبيات خبراً!

فقال: حدِّثنا!

فلمَّا أخبرتُه بالأمر، أمر بإحضار أهل الشَّابِّ وأهل الفتاة، وخطب الفتاة للشَّابِّ من أبيها، ودفع هو مهرها!

ومثل هذا ما رواه الخرائطيُّ في اعتلال القلوب قال: مرَّ أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في خلافته بطريق من طُرقات المدينة، فإذا جاريةٌ تطحن، وتنشدُ:

وهويتُه من قبلِ قطعِ تمائمِي

فتماشينا مثل القضيبِ النَّاعم

وكأنَّ نورَ البدرِ سنى وجهه

ينمَى ويصعد في ذوابة هاشم

فدقَّ عليها الباب فخرجتْ إليه، فقال لها: ويلكِ أحرَّة أم مملوكة؟

فقالت: مملوكة يا خليفة رسول الله!

فقال لها: فمن هويتِ؟

فبكتْ، وقالت: بحقِّ رسول الله إلَّا انصرفتَ عنِّي!

فقال لها: وحقِّه لا أنصرفُ أو تُعلِمِينِي!

فأنشدت تقول:

وأنا التي لعبَ الغرامُ بقلبِها

فبكتْ لحُبِّ محمَّدِ بن القاسم

فصار أبو بكر إلى المسجد، وبعثَ إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عن آل بيت النُّبوة جميعاً، وأعلمه بخبرها!

هذا فعل الكرام، فتشبَّهوا، ولا يمضينَّ أحدكم إلى الله وقد كُتِب في صحيفته أنه قد كسر قلباً، أو شتَّتَ شملاً!

القانون 24: أنْ تهونَ الدُّنيا ولا يهونَ حبيبُك!

الخِلافُ مع الحبيبِ شيءٌ، وأن يهونَ عندك حبيبُك وإن اختلفتَ معه شيءٌ آخر، فالأوَّلُ شيءٌ عاديٌّ قابل للحصول، وما أحلى التَّراضي بعد الخلاف، وكم حرَّك الخلافُ من مياهٍ راكدةٍ، وأججَّ ناراً كانت خابيةً، فإذا ما تمَّ الصُّلح، عاد الحُبُّ سيرته الأولى بل أشدّ! وأما الثَّاني فليس من أخلاقِ المحبِّين، وليس حبيباً أساساً من لا يُؤمَن جانبه!

الخِلافُ مع الحبيبِ شيءٌ، وأن يهونَ عندك حبيبُكَ وإن اختلفتَ معه شيءٌ آخر، فالأوّلُ شيءٌ عاديٌّ قابل للحصول، وما أحلى التّراضي بعد الخلاف، وكم حرّك الخلافُ من مياه راكدة، وأججّ ناراً كانت خابيَةً، فإذا ما تمّ الصُّلح، عاد الحُبُّ سيرته الأولى بل أشدّ! وأما الثّاني فليس من أخلاقِ المحبّين، وليس حبيباً أساساً من لا يُؤمَن جانبه!

جاء أبو بكر رضي الله عنه لزيارة النّبيّ ﷺ، وقبل أن يستأذن ويدخل، سمع عائشة رضي الله عنها ترفع صوتها على النّبيّ ﷺ! ثمّ أُذِن له بالدُّخول، فدخل غاضباً وقال لابنته: أترفعين صوتك على رسول الله؟! ثمّ كأنّه أراد أن يجذبها إليه ليعنّفها! فحال النّبيُّ ﷺ بينه وبينها، فلمّا خرج أبو بكر، جعل النّبيُّ ﷺ يقول لعائشة: ألا ترَين كيف حلتُ بينك وبين الرّجل؟!

ثمّ جاء أبو بكر بعدها، فوجد النّبيّ ﷺ وعائشة يضحكان، فقال لهما: أشرِكاني في سِلمِكُما كما أشركتُماني في حربكما!

أَحَبُّ الأحاديث النبويّة إلى قلبي، هي تلك التي تُظهِرُ بشريّة النّبيّ ﷺ، وأَحَبُّ حوادث السِّيرة إليّ هي تلك التي تُرِينا بيوت النّبيّ ﷺ، وبيوت الصّحابة في هيئتها الاجتماعيّة والحياتيّة الطّبيعيّة التي تُشبه حياتنا تماماً! والسبب في هذا أنّ النّاس اعتادوا أن ينظروا إلى حياة النّبيّ ﷺ وحياة أصحابه بعين الحبّ والإجلال حتى كادوا يعتقدون أنّ حياتهم لا مشكلات فيها، ولا هموم، فتأتي هذه القصص والحوادث التي أحبُّها لتضع النقاط على الحروف، وتُخبرنا أنّ النّاس هم النّاس مهما بلغوا من الإيمان عِتِيًّا!

الخلافات بين الأحبة تقع دوماً، تفرضها المعاملة اليوميّة، وهموم الحياة، وتقلُّب النّفس البشريّة من طور إلى طور، وعندما ترفع عائشة صوتها على النّبيّ ﷺ فالأمر لا علاقة له بمستوى الإيمان، ولا مقدار التّقوى، فإنّها الحميراء أمُّ المؤمنين واحدة من أعرق النّساء إيماناً في التاريخ، ولكنّها الحياة، فمهما بلغت زوجتك من الإيمان لن تُدرك عائشة، ومهما بلغتَ من الإيمان لن تبلغ شيئاً من إيمان النّبيّ ﷺ، وها قد حدث بينهما خلاف!

من كان يُمنّي نفسه بحياة زوجيّة وعاطفيّة بلا مشكلات فهو واهمٌ أو حالمٌ، ولكنّ المشكلات إنّما يجب أن تكون سحابة صيف تمرُّ سريعاً، والبيوت يجب أن تُدار بالتّغاضي والتّراحُم، أنتَ تتنازل لها مرّة، وهي تتنازل لك مرّةً، وإلّا صارت البيوت ساحات حرب!

على الفور أعاد النّبيّ ﷺ المياه إلى مجاريها، لقد مازح عائشة قائلاً: ألا ترين أنّي قد حِلتُ بينك وبين الرَّجل؟!

يا لنُبل النُّبوّة إنه يسترضيها أيضاً!

اقلبوا الصَّفحة سريعاً، بعض المواقف لا تحتاج كثيراً من التّناحة، وعِزّة النّفس ليس موضعها بين الحبيبِ وحبيبه!

تزوّج أبو الفرج ابن الجوزيّ امرأةً اسمها نسيم الصّبا، وأقام معها مدّةً فتعلّق قلبه بها، ثمّ وقع بينهما خلافٌ ووحشَةٌ، فتهاجرا وهما في بيت واحد، فاشتدّ به الشّوق إليها، وكانت لا تتركُ مجلسَ وعظه الذي كان يجلس فيه النّاس، فجاءت يوماً فجلست خلف امرأتين تستتر بهما، فلما رآها تنفّس الصُّعداء، وأنشد:

يا جَبَلي نُعمانَ بِاللهِ خَلِّيا

نَسيمَ الصَبا يَخلُص إِلَيَّ نَسيمُها

أَجِد بَردَها أو تشفِ مِنّي حَرارَةً

على كَبِدٍ لم يَبقَ إِلّا صَميمُها

فَإِنَّ الصَبا ريحٌ إذا ما تَنَفَّسَت

على قَلبِ مَحزونٍ تَجَلَّت همومُها

فلمّا سمعت زوجته الأبيات رقَّت له وصالحته!

وهذا يُريك بجلاء إلى أيّ حدّ كانت نفوس الفقهاء سَمِحة، وقلوبهم ليّنة، فلم يهن على ابن الجوزيّ ما حدث بينه وبين زوجته، ولم ييأس أن يراضيها في كل سبيل،

حتّى أنّه قد استغلّ مجلس وعظه، ففهمت هي منه وإن لم يدرِ النّاس ما مناسبة إنشاده للأبيات وهي بالأصل لمجنون ليلى، فانظُر إلى عمق اطّلاعه، وحسن حفظه، وعبقريّة توظيفها في سياقها!

من القصص التي تعجبني في هذا السّياق وإن كان لها منحىً مختلفاً، فأن لا يهون عليك حبيبك ليس بينك وبينه فقط، وإنّما بينه وبين النّاس أيضاً!

وقع الأمير «بيدرو» وريث عرش روسيا في حُبّ الخادمة «إنيسيا» فتزوّجها وأنجب منها أيضاً، ولكنّ والده الملك «ألفونسو» لم يكن راضياً عن هذا الزّواج، وبتحريض من طبقة النّبلاء، أمر الملكُ بقتلها!

فقُتِلت في دير المدينة بدم بارد أمام أطفالها!

ولكنّ «بيدرو» لاحق القتلة واحداً بعد آخر، وكان ينتزع قلوبهم وهم أحياء، ويمزّقها لأنّهم مزّقوا قلبه!

وبعد وفاة الملك، أصبح «بيدرو» هو الملك، فأُخرج جثّتها من القبر ووضعها على العرش، وأمر بمبايعتها ملكةً من قِبل الشّعب!

وعلى فداحة الجريمة، وفداحة الانتقام، إلا أنّه لا يخفى عليك صدق الحُبّ الذي أحبّه بيدرو لإنيسيا، وأنّها لم تهُن عليه حيّةً ولا ميتة، فقد تزوّجها وهو يعرف أن الدُّنيا ستثور عليه، وأنّ التقاليد لا تسمح بذلك! ورغم موتها بقي وفيًا لها، استخرج رفاتها من قبرها، ونصّبها ملكةً ميتةً على العرش، كان كأنّما يقول لها: أنتِ حبيبتي إلى الأبد!

ومن معاني ألا يهون عليك حبيبك، ألا يهون في عِرضه أيضاً، ومن عجيب ما قرأتُ في هذا الباب، ما رواه ابنُ القيّم في روضة المحبّين، وابنُ الجوزيّ في ذمّ الهوى:

إنّ امرأةً جميلة كانت في مكّة، وكان لها زوج، فنظرتْ يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يُفتن به!

فقال: نعم

قالت: من؟

فقال: عُبيد بن عمير عابد مكّة!

فقالت: فائذن لي به، فلأفتِننّهُ!

فقال: قد أذِنتُ لكِ!

فجاءت المرأة عُبيد بن عمير كالمستفتية في أمر، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فكشفت عن وجه مثل فلقة القمر!

فقال لها: يا أمَةَ اللهِ استتري!

فقالت: إنّي قد فُتِنتُ بك!

فقال لها: إنّي سائلكِ عن أمر، فإن أنتِ صدقتني نظرتُ في أمرك!

فقالت: لا تسألني عن شيء إلّا صدقتُك!

قال: أخبريني، لو أنّ ملَك الموت أتاكِ ليقبض روحكِ، أكان يسرُّكِ أن أقضي لكِ هذه الحاجة؟

فقالت: اللهمّ لا!

فقال لها: صدقتِ، فأخبريني، فلو دخلتِ قبركِ، وأُجلستِ للمساءلة، أكان يسرُّكِ أنّي قضيتها لكِ؟

قالت: اللهمّ لا!

فقال لها: صدقتِ، فأخبريني، لو أنّ النّاس أُعطوا كُتُبهم، وأنتِ لا تدرين أتأخذين كتابكِ بيمينكِ أم شمالكِ، أكان يسرُّكِ أنّي قضيتُها لكِ؟

فقالت: اللهمّ لا!

فقال لها: صدقتِ، فأخبريني، لو جيء بالميزان، وجيء بكِ، فلا تدرين أيخفُّ ميزانك أم يثقل، أكان يسرُّكِ أنّي قضيتُها لك؟

فقالت: اللهمّ لا.

فقال لها: صدقتِ، فأخبريني، لو وقفتِ بين يدي الله للمساءلة، أكان يسرُّكِ أنّي قضيتُها لكِ؟

فقالت: اللهمّ لا.

فقال: صدقتِ، فاتقي اللهَ، فقد أنعمَ عليكِ، وأحسنَ إليكِ!

فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعتِ؟

فقالت: أنت بطّالٌ/فاسد، ونحن بطّالون!

وأقبلت على العبادة والصوم، فكان زوجها يقول: ما لي ولعُبيد بن عُمير؟ أفسد عليَّ امرأتي، كانت كلّ ليلة عروساً، فصيَّرها راهبة!

فلا يخفى عليكَ الآن أنّ هذا رجلٌ قليل شرف ومروءة، لا يعرف الحُبّ، ولا الحُبُّ يعرفه، هانت عليه امرأته، وأدخلها في لعبة ورهان لا يليق بمن كان فيه ذرّة كرامة أن يدخل فيها، فكيف بمن كان على دين الإسلام!

إنّما تُقاس الرُّجولة بالغيرة على العرض، وإنّما يُقاس الحُبُّ بأن لا يهون، فمن هان عليه عرضكِ فهو لا يُحِبُّكِ، ومن باب أولى ألا يهون عرضُكِ عليكِ ولو هان على النّاس!

القانون 25: الحبُّ من طَرَفٍ واحدٍ!

يُبتلى المرء أحياناً في قلبه، فيحبُّ من لا يُحبُّهُ، ولا خلاص!

لا هو قريب ليلقاه، ولا هو بعيد ليغادره، ولا الطّريق إليه معبّدة ليأتيه، ولا وعِرة ليفارقه! ليس له فيطمئنّ، ولا ممنوعاً عنه ليخاف!

لا الأرض ضيّقة لتجمعهما، ولا واسعة لتفرّقهما! ولا إن مشى إليه يصل، ولا إن جلس مكانه يبتعد! هكذا هي الأمور شائكةٌ، لا المنطق يُملي على القلب منطقَه، ولا القلبُ يُقنعُ المنطق بضعفِه! وهذه والله لا هي حياة، ولا هي موت!

يُبتلى المرءُ أحياناً في قلبه، وهذا واللهِ من أشدّ البلاء، أن يكون لأحدهم كلُّ المتّسع في قلبك، وليس له شبر متّسع في حياتك! أن تراه الرِّئة التي تحتاجها لتتنفَّس، ولكن شاءت الأقدار أن تختنقَ من دونه! وأن تراه العين التي تحتاجها لترى، ولكن تحرمك الحياة إيّاه، فتمضي عمرك كلّه كالأعمى تتحسّس طريقك!

يقول ابنُ حزم في طوقِ الحمامة: أخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشّاعر، أنّه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وأنّه كان غايةً في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه، فلمّا ابتعدَ، أتت إلى المكان الذي قد أثَّرَ فيه مشيُه، فجعلت تُقَبِّلُه، وتلثم الأرض التي فيها أثر قدمه!

وقد نظمتُ في هذا شعراً أقول فيه:

يلومونني في لثمِ موطئ خُفِّهِ

ولو علموا عاد الذي لامَ يحسدُ

فيا أهل أرضٍ لا تجودُ سحابها

خذوا بوصاتِي تستقلُوا تُحمدوا

خذوا من ترابٍ فيه موضع وطئه

وأضمنُ أنَّ الجذبَ عنك يُبعَّدُ

فكلُّ ترابٍ واقعَ فيه رجله

فذاك صعيدٌ طيِّبٌ ليس يُجحَدُ

كذلك فعلُ السّامِريّ وقد بدا

لعينيه من جبريل إثرٌ مُمَجَّدُ

فصيَّرَ جوف العجل من ذلك الثرى

فقام له منه خُوارٌ مُمدَّدُ

تحبّه كلّ هذا الحبّ وهو لا يدري عنها شيئاً، ولا تُبقي الحُبّ حبيس صدرها، ولعلّها حاولت أن تبقيه فأفلت منها، ليس كلُّ الحُبّ يُحبس، وليست كلُّ الضُّلوع منيعة، يحدثُ أن يتسلَّلَ الحبُّ رغماً عنّا! وهنا حبٌّ قد تسلَّل، ونارٌ كانت عصيّةً على الدّمع أن يُطفئها، وما لا يُطفئه الدّمع فلن تُطفئه كلُّ أنهار الدُّنيا! وها هي تأتي ترقبه خلسةً، تنظرُ أين يمشي، فإذا ما ابتعد، أتت إلى أثر خطوته في الأرض فجعلت تُقبّلها، فرحمتك بالقلوب يا الله إذا أحبّت وحدها!

روى الخرائطيّ في كتابه اعتلال القلوب، قال: قال أبو بكر بن أبي طاهر: رأيتُ غلاماً وجاريةً كلاهما على أحسن ما يكون، فسمعتُ من معاتبتهما شيئاً أجّج في قلبي ناراً، وإذا هي تقول له: لو مسّك ألمُ الهوى لرحِمتَ أهلَ البلاء، ولكنّك قسوتَ، فانقطعَ منك الرّجاء، وما تستأهِلُ ما أجده بكَ غير أنّ الهوى قضى لكَ بالجُور عليّ، وفي خلال ذلكَ دموعٌ تجري!

يا للحُبّ الذي هنا، يا للحُبّ! حبٌّ من طرف واحد، زيّنه العقل، وأضاءته الفصاحة، ولكن القلب وما يهوى!

يُبتلى المرء أحياناً في قلبه، فيحبُّ من لا يُحبّهُ، ولا خلاص!

لا هو قريب ليلقاه، ولا هو بعيد ليغادره، ولا الطّريق إليه معبّدة ليأتيه، ولا وعِرة ليفارقه! ليس له فيطمئنّ، ولا ممنوعاً عنه ليخاف!

لا الأرض ضيّقة لتجمعهما، ولا واسعة لتفرّقهما! ولا إن مشى إليه يصل، ولا إن جلس مكانه يبتعد! هكذا هي الأمور شائكةٌ، لا المنطق يُملي على القلب منطقَه، ولا القلبُ يُقنعُ المنطق بضعفِه! وهذه والله لا هي حياة، ولا هي موت!

روى ابنُ الجوزيّ فى ذمّ الهوى، قال:

بينما عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يسيرُ في طريق من طرقات المدينة، إذ سمع امرأةً تُنشدُ وهي في خدرها:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربُها

أم هل من سبيلٍ إلى نصرِ بن حجّاجِ

إلى فتىً ماجدِ الأعرافِ مقتبلٌ

سهلِ المُحيّا كريمٍ غير ملجاجِ

نمته أعرافُ صدقٍ حيث ينسبه

أفي حفاظ عن المكروه فرّاجِ

فقال عمر: أرى معي النَّصر رجلاً تهتف به النّساء في خدورهِنَّ! عليّ بنصرِ بن حجّاج هذا!

فأُتيَ به، فإذا هو من أحسنِ النّاس وجهاً وعيناً وشعراً!

فأمرَ عمرُ بشعره فحُلِق فلم يزدد نصرُ إلّا جمالاً!

فقال له عمر: والله لا تساكِنُنِي ببلاد أنا بها!

فقال له نصر: ولمَ يا أمير المؤمنين؟

فقال له عمر: هو ما أقول لكَ! ونفاهُ إلَى البصرة!

وخافتِ المرأة التي سمعَ منها عمر أن يُبادر إلى عقابها، فدسّت له أبياتاً لمن يوصلها إليه، تقولُ فيها:

قُلْ للإمام الذي تُخشَى بوادره

ما لي وللخمرِ أو نصرِ بن حجّاجِ

إنّي مُنِيتُ أبا حفصٍ بغيرهما

شربَ الحليب وطرف فاترٍ ساجِ

إنّ الهوى ذمّه التّقوى فخيّسه

حتّى أقرّ بإلجامٍ وإسراجِ

لا تجعلِ الظنّ حقّاً أو تيقّنه

أنّ السبيلَ سبيلَ الخائفِ الرّاجي!

فلمّا سمع عمر بن الخطّاب الأبيات بكى، وقال: الحمد لله الذي خيّستِ التّقوى الهوى! ومضى زمنٌ ونصرُ بن حجّاج منفيٌّ في البصرة، واشتدّ على أمّه غيبة ابنها عنها، فجاءت إلى عمر بن الخطاب بين الأذان والإقامة، فقعدتْ له في الطّريق، فلمّا خرج يريد صلاة العصر قالت له: يا أمير المؤمنين، لأخاصمنّك بين يدي الله تعالى غداً، ابنَاكَ عبد الله وعاصم إلى جنبك، وبيني وبين ابني الفيافي والجبال!

فقال لها: يا أمّ نصر، إنّ عبد الله وعاصماً لم تهتف بهما النّساء في خدورهنّ! وأرسل عمر بن الخطاب بريداً إلى البصرة، فمكث في البصرة أياماً، ثم نادى مناديه: من أراد أن يكتبَ إلى المدينة فليكتب، فإنّ بريد المسلمين خارج:

فكتب النّاس، وكتب نصر بن حجّاج إلى عمر بن الخطاب يقول له: سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين: أما بعد:

لعَمرِي لأن سيّرتني وحرمتني

فما نلتَ من عرضِي عليك حرامُ

أئِنْ غنّتِ الدّلفاءُ يوماً بمُنيةٍ

وبعض أمانيِّ النّساء غرامُ

ظننتَ بي الشّوء الذي بعده

بقاءُ فما لي في الذرى كلامُ

ويمنعني مما تقول تكرُّمي

وآباء صدقٍ سالفون كرامُ

ويمنعها مما تمنّتْ صلاتُها

وحالٌ لها في قومها وصيامُ

فهاتانِ حالانا فهل أنتَ راجِعي

فقد جُبَّ منّا غاربٌ وشِمامُ

فلمَّا قرأ عمر بن الخطاب الأبيات قال: أمَّا وأنا في الإمارة فلا!

وأعطى لنصر في البصرة داراً ومالاً!

وهذه قصَّةٌ أخرى من الحبِّ من طرف واحد، فالمرأةُ التي كانت تهتفُ باسم نصرِ بن حجّاج لا يعرفها نصرٌ، وإنَّما عشقته حين رأته وهو في غفلة عنها، وأحبّته وحدها وهو لا يدري عنها شيئاً، وقد يحدثُ أن يُبتلى المرءُ بقلبه!

أما فِعلُ عمر بن الخطّاب فهو من باب سدِّ الذَّرائع، وإبعاد اللّهبِ عن الحطب فإنَّ هذا أسهل من معالجة إطفاء النَّار بعد ذلك إذا شبَّت!

وبالنَّفي، غلب على ظنِّ عمر بن الخطّاب، أنَّه سيكون هناك غريباً لا يعرفه النَّاس، والغربة أيضاً تكسر النَّفس، فلا يتطاول هناك إلى ما ليس له أن يتطاول إليه! هذا تقديره رضي الله عنه، وجمعنا به خلف حوض النَّبيِّ ﷺ!

وأمَّا رفضه استعطاف نصر بن حجّاج بعد أن نفاه مدَّة، فإنَّ عمر والله كان يرى بنور الله، وعرف أنَّ الأمور قد يعالجها النَّفي، وأنَّ الخطر إذا امتدَّ إلى المنفيّ فهو في الوطن أشدُّ منه مما هو في المنفى، وحدث الذي كان يخاف منه عمر رضي الله عنه! ذلك أنَّ نصر بن حجّاج لمَّا نفاه عمر إلى البصرة كان يدخل على مجاشع بن مسعود السُّلميّ، وكان مجاشعُ به معجباً، وكان لمجاشع امرأة يُقال لها الخضيراء، كانت من أجمل نساء زمانها، وكان لا يُطيق فراقها، وكثيراً ما كانت تجلس معه ونصر بن حجّاج عنده. فالتفتَ مجاشع يوماً فإذا بنصر بن حجّاج يكتبُ شيئاً على الأرض!

فقالت امرأته: وأنا!

فعلم مجاشع أنَّه جواب للكلام الذي يكتبه نصر على الأرض! وكان مجاشع لا يقرأ، وكانت الخضيراء تقرأ، فباعد بينهما، وأحاط بيديه المكتوب على الأرض، وصرفهما

عنه، ودعا كاتباً عنده ليقرأ له، فإذا بنصر بن حجّاج قد كتب لها: إنّي أحبّكِ حبّاً لو كان فوقكِ لأظلّكِ، ولو كان تحتكِ لأقلّكِ!

الحبُّ من طرف واحد من أشدّ البلاء، يحدث ألا يملك المرءُ زمام قلبه، ولكن على الإنسان ألا يفرّط في كرامته! فاطرُقِ الباب بأنامل الحُبّ، متّقياً ربّك، فإن لم تجد صدىً لقلبك، فلا تتسوّلِ الحُبّ! على المرء ألا يُرِيق ماءَ وجهِهِ مهما حدث!

القانون 26: ومن الحُبِّ ما قَتَل!

قاتِلٌ أنيقٌ هو الحُبُّ، تراه من بعيدٍ فتحسَبُ أنَّه من الوداعة بمكانٍ لا يمكنه أن يُصيبَ أحداً بالأذى، ويُخفي خلف وجهٍ بريءٍ يبدو منه، وجهاً آخر مفترساً لا يرحم فرائسه!

الحُبُّ كالماء، يروي العطشان، ويُحيي بأمرِ ربّه الموات، وكما أنَّ الماء قد يُغرِق، فيتحوَّل بهذا من مانح للحياة إلى سالبها، كذلك الحُبُّ، إنَّ بعضه قاتل!

في كتاب مصارع العشَّاق للقاريّ البغداديّ:

عشِقَ رجلٌ من ولد سعيد بن العاص جاريةً مغنّيةً في المدينة، فهامَ بها، وهو لا يُعلمها بشيء من هذا! ثمَّ إنَّه ضجر وقال: والله لأبوحنَّ لها، فأتاها عشيَّةً، فلمَّا خرجت إليه، قال لها: بأبي أنتِ، أتُغنّينَ:

أتُجزُون بالودِّ المضاعفِ مثله

فإنَّ الكريم من جزى الودَّ بالودِّ؟!

فقالت: نعم، وأغنّي أحسن منه، ثمَّ غنَّت:

للـــذي ودَّنا المودَّة بالضعفِ

وفضلُ البادي به لا يُجازى

لو بدَا ما بنَا لكُم ملأ الأرضَ

وأقطار شـــامِها والحِجازَا!

فاتَّصل ما بينهما من الحُبِّ، فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، ولم يكن قد صار الخليفة بعد، فابتاعها له، وأهداها إليه!

فمكثت عنده سنةً ثم ماتت، فبقِيَ بعدها شهراً لا يسكن له دمع، ثم مات حزناً عليها!

فقال أبو السَّائب المخزوميّ: حمزة سيِّد الشهداء، وهذا سيِّد العشَّاق فامضوا بنا حتى ننحر على قبره كبشاً، كما كبَّر النّبيُّ ﷺ على حمزة سبعين تكبيرة!

فلمَّا بلغ أبو حازم الفقيه هذا الخبر قال: ما من محبّ في الله يبلغُ هذا إلا وليٌّ!

ليس كلُّ النَّاس يقدرون على أن يقلبوا الصَّفحة ويكملوا الطَّريق ويتابعوا حياتهم،

البعض حين يحبُّون يكون الحبيب منهم بمنزلة الرُّوح من الجسد، فإذا ما فارقتِ الرُّوح لم يعد الجسد قابلاً للحياة!

يقول ابنُ حزم في طوق الحمامة: وأنا أعرف جاريةً كانت لبعض الرؤساء، وكانت به متيَّمة، فعزفَ عنها لشيء بلغه من جهتها، لم يكن يوجب هذا السّخط كلّه، فباعها!

فحزنت لذلك حزناً شديداً، وما فارقها النُّحول والأسف، ولا بان عن عينها الدّمعُ إلى أن شلَّت، وكان ذلك سبب موتها!

فلم تعِش بعد خروجها عنه إلَّا أشهراً ليست بالكثيرة، ولقد أخبرتني عنها امرأةٌ أثِقُ بها أنها لقيتْها وهي قد صارت كالخيال نُحُولاً!

فقالت لها: أحسبُ هذا الذي بكِ من محبَّتكِ لفلان!

فتنفَّستِ الصُّعداء، وقالت: والله لا نسيتُه أبداً، وإن كان قد جفاني بلا سبب!

وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً!

قاتِلٌ أنيقٌ هو الحُبُّ، تراه من بعيد فتحسَبُ أنَّه من الوداعة بمكان لا يمكنه أن يُصيبَ أحداً بالأذى، ويُخفي خلف وجه بريء يبدو منه، وجهاً آخر مفترساً لا يرحم فرائسه!

Telegram:@mbooks90

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشّاق لداود الأنطاكي: عشق أبو عبد الله الخُبشانيّ جاريةً سوداء يقال لها صفراء، ومرض من حُبِّها حتى لزم الفراش، فقيل لمولاه: لو أرسلتَ بها إليه فعساه أن يجد الشِّفاء!

فدخلتْ عليه، وقالتْ له: كيف أصبحتَ؟

فقال: بخير ما رأيتُكِ!

قالت: وما تشتهي؟

قال: قربُكِ!

قالت:ممَّ تشتكي؟

قال: هجرُكِ!

قالت: فيمَ توصي؟

قال: بكِ!

فقالت: إني أريد الانصراف.

فقال: لا تُفرِّطي بثواب الصَّلاة عليَّ!

فلما رآها ولَّت، شهق شهقةً فمات!

وقد تستغربُ حين أروي لكَ هذه الحكايات، ولا غرابة. فقد كنتُ مثلك أوَّل الأمر مستغرباً، ثمَّ إنِّي وبعد عِشرة طويلة بالنَّاس، معايشةً وسماعاً، آمنت أنَّ القلوب لا تتشابه، وإنَّ النَّاس لا يحبُّونَ بطريقة واحدة، فلا تُصدز حُكماً عقليًا على من لا يرى الأمر إلَّا بعين قلبه؟ ولا تقُلْ: كيف ماتَ فلانٌ بالحُبِّ! فلعلَّه أكثر استغراباً منك بحياتك من استغرابك أنتَ بموته!

في كتاب ذمِّ الهوى لابنِ الجوزيِّ، كان نعيم بن ظريف الفقاريّ من أعظم النَّاس جمالاً وأكثرهم مالاً، وأنَّه قد اقترح على أبيه، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة، أن يُرسله بتجارة إلى بغداد، فمانعه زماناً، وكان يقول له: نحن غير محتاجين إلى اكتساب بالأسفار، فلا تفجعني فيكَ!

فأبى نعيم إلَّا السَّفر، فجهَّز له أبوه جِملاً، وسار به حتَّى دخل بغداد، فأقام بها مدَّة يُتاجر ويكسب!

وأشار عليه بعض أصحابه أن يحضر سوق الجواري، فجاء مع أثرياء التُّجار، وجِيء بجارية بهرت الحاضرين، وأشغلتِ النَّاظرين!

وكانت كلَّما أراد أحدٌ شراءها عابته، حتَّى وقع نظرها على البصريِّ، فأحبَّته، وأطمعته في نفسها، فساوم مولاها عليها حتَّى أخذها بمئة ألف درهم ثمَّ انطلق بها إلى منزله!

فلمّا كان الليلُ إذا بطارق، فخرج فإذا هو صاحب شرطة الحجّاج، فأخذوه حتّى دخلوا به عليه، فقال له: عليّ بالجارية التي اشتريتَها!

فقال: أصلح الله الأمير، إنّها روحي فلا تكنْ سبباً في هلاكي، فأمر بالقبض عليه، وأرسل من جاء بالجارية، فلمّا رآها علم أنّها لن تبقى له إن عرف الخليفة ذلك، فوجّه بها إلى الشّام من ليلتها إلى عبد الملك، وحبس الشّابّ البصريّ!

فلمّا ذهب الشّابُّ إلى دمشق، وأقام بها مدّة متنغّص الحال، فأراد أن يحتال للاجتماع بالجارية، فأخبر الخليفة أنّه رأى رؤيا فيه، وأنّ الخليفة قد طلب من الجارية أن تُغنّي له أبياتاً يطلبها!

فصرف عبد الملك النّاس، وأحضر الجارية، وقال له: اطلُب منها ما رأيتَ!

فطلب منها أن تُغنّي أبياتاً لقيس بن ذُريح، فلمّا انتهت من الغناء، ركض إلى سطح القصر، وألقى نفسه ومات!

فقال عبد الملك: عجِل على نفسه، أكان يظنُّ أنّي أخرجتُ له الجارية ثمّ أعيدها إليّ!

ثمّ نادى على غلامه وقال له: خذها فأعطها لورثته!

فلما نزلوا بها، نظرت إلى حفرة معدّة للسّيل، فجذبت يدها من الغلام، وهي تقول:

من ماتَ عشقاً فليمُتْ هكذا

لا خيرَ في عشقٍ بلا موت!

فاتقُّوا الله في القلوب، ولا تسلُّوا عليها سيوف الفراق فإنّها قاطعة، ليس كلُّ النّزيف يُرى، ولا كلُّ الموتِ يُحدِث ضجيجاً!

القانون 27: وردةٌ في اليدِ خيرٌ من باقةٍ على القبر!

عندما يموتُ المرءُ منّا يُصبح غالياً وعزيزاً على الذين عرفوه، ولستُ أدري ما قيمة الحُبِّ الذي لن يشهدَه صاحبُه؟!

ما فائدة قصائد الرِّثاء وفي حياتنا لم نسمع من هذا الحبِّ شيئاً؟!

أحِبُّوا النَّاس وهم بين أيديكم، إنَّ الغصَّة التي تتركونها في قلوب أحبابكم لن تُكفِّرَها دموع النَّدم عليهم!

عندما يموتُ المرءُ منّا يُصبح غالياً وعزيزاً على الذين عرفوه، ولستُ أدري ما قيمة الحُبّ الذي لن يشهدَه صاحبُه! إنّنا نقضي العمر في نزاع وصراع، وفي هجر وخِصام، فإذا جاء الموتُ ندمنا على الذي كان منّا، وإنّ النّدم لا يُرجِعُ ميتاً، فبئس الحُبُّ ما لم يكن سُلوكاً ومعاملةً!

ما فائدة الأهدافِ التي تُسجّل بعد انتهاء المباراة؟!

وما فائدة النّدم على عدم الدّراسة بعد الخروج من الامتحان؟!

وما فائدة قصائد الرّثاء وفي حياتنا لم نسمع من هذا الحبّ شيئاً؟!

أحِبّوا النّاس وهم بين أيديكم، إنّ الغصّة التي تتركونها في قلوب أحبابكم لن تُكفّرَها دموع النّدم عليهم، ولن تجبرها قصائد الرثاء عليهم، وكما قال الشّاعر:

لا ألفيَنّكَ بعد الموتِ تندُبُني

وفي حياتي ما زوّدتَني زادِي!

يقولُ ابنُ حزم في طوقِ الحمامة، وأنا أخبرك عند أخي أبي بكر رحمه الله، كان متزوّجاً بعاتكة بنت قند صاحب الثّغر الأعلى أيّام المنصور أبي عامر، وكانت لا مرمى وراءها في جمالها، وكريم أخلاقها، ولا تأتي الدُّنيا بمثلها في فضائلها!

وكانا في حدّ الصّبا وتمكّن سلطانه، تُغضِبُ كلُّ واحد منهما الكلمة التي لا قدر لها، فكانا لا يزالان في تغاضُب وتعاتُب مدّة ثمانيةَ أعوام هي مدّة زواجهما! وكانت قد شفَّها حُبّه، وأضناها الوَجدُ فيه، وأنحلها شِدّة كلَفِها به، حتّى صارت كالخيال، لا يُلهيها من الدُّنيا شيءٌ، ولا تُسَر من أموالها على كثرتها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتّفاقُه معها وسلامته لها، إلى أن تُوفّي في الطّاعون الذي وقع في قُرطبة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة! فما انفكّت منذ مات عنها من المرض والذُّبول، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكملَ فيه تحت الأرضِ عاماً! وقد أخبرتني أمُّها عنها، أنّها كانت تقولُ بعده: ما يُقوّي صبري، ويمسكُ رمقي في الدُّنيا ساعةً بعد وفاته، إلا سروري أنّه لا يضمُّه وامرأة غيري مضجعٌ أبداً، فقد أمِنتُ هذا الذي ما كنتُ أتخَوّفُ غيره، وأعظم آمالي اليومَ اللّحاق به!

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، غفر الله لها ورضيَ عنها!

قصّةٌ تفطرُ القلب والله، وحُبٌّ عظيمٌ يقفُ له المرءُ إجلالاً، ولكن إن كان النّاس أحياناً يقِفُون بين الحبيب وحبيبه فهذا شيءٌ واقعٌ، وقد يكون له مبرِّراته، وإن كنت لا أجدُ مبرراً لكسرِ القلوبِ، ولكن ما لا أفهمه لماذا على المحبّين أن يجرُّوا الحزنَ والقطيعة على أنفسهم وقد جمعتهم الدُّنيا معاً؟! رجلٌ يحبُّ امرأةً ولا يلتفتُ إلى غيرها فلا أحد يملأ عينه وقلبه غيرها، وامرأةٌ تحبُّ رجلاً الموتُ عندها أهونُ من أن تراه مع غيرها، فلأيِّ شيء هو التّنافرُ والتّناحرُ؟ الحياةُ أقصر من أن نقضيها بالهجر والخصومة، لا يستقيمُ أن يكون المرءُ حبيباً وجلّاداً في آن معاً، وأيُّ حُبّ هذا الذي يتبادل فيه المحبُّون السّوط، مرّةً تجلده، ومرّة يجلدها، بل وتجدُ أحدهما كريماً مع النّاس فاضلاً، ويحتملُ منهم ما لا يُحتمل، فإذا صار الأمرُ بينه بين حبيبه صار يبحثُ عن نصر في معارك من العار أن تكون أساساً!

في كتابِ اعتلالِ القلوبِ للخرائطيّ، قال أحمد بن معاوية بن بكر الباهليّ: حدّثني رجلٌ من بني عُذرة، قال: كان فينا فتىً ظريفٌ غَزِلٌ، وكان كثيراً ما يتحدّثُ إلى النّساء، فهويَ جاريةً من الحيّ فراسلها، فأظهرت له جفوةً، وقد كان له في قلبها كالذي لها في قلبه!

فوقعَ من جفوتِها وإعراضِها مريضاً ولزِم الفِراش، وشاعَ أمرُه بين النّاس فلم تزلِ النّساء من أهله وأهلها يكلّمونها حتّى أجابته، فمضت إليه عائدةً مُسلّمةً، فلمّا نظر إليها تحدرت عيناه بالدُّموع، وأنشد يقول:

أريتُكِ إن مرّت عليكِ جنازتي

تلوحُ بها أيدٍ طِوالٍ وتُسرِعُ

أما تبتغِين النّعش حتّى تُسلِّمي

على رمسِ ميتٍ في الحُفيرة مودّعِ

فبكت رحمةً لحاله، وقالت له: ما ظننتُ أنّ الأمر قد بلغَ بك كلّ هذا، والله لأساعدنّك وأداومنّ على وصلك!

فانهمرت عيناهُ بالدّموع، وقال لها:

دنتْ وظلالُ الموتِ بيني بينها

ومنّتْ بوصلٍ حينَ لا ينفع الوصلُ

ثمّ شهقَ شهقةً خرجتْ معها روحه، فوقعتْ عليه تلثمه وتبكي، ورُفعتْ عنه مغشياً عليها، فما مكثتْ بعده إلّا أياماً حتّى ماتتْ!

طبعاً لستُ أُنادي بفتحِ بابِ العلاقاتِ على مِصراعَيْهِ معاذَ الله أن أفعل، ولكن نهاية المطاف نحن سنرتبط، ما دامت هذه الفتاة قد علمت ما في قلب الشّاب تجاهها، ولها رغبةٌ فيه، فلتُخبِره أن يأتيَ البيت من بابه!

لأنّ البديلَ هو أنّها عذّبتْ من تعرفُ أنّه يحبُّها، وحرمتْ نفسها من الذي تحبّه! وحتّى إن لم يمتْ فما هو بديل هذا الصدود إلّا أنّه سيرتبط بغيرها وهو لا يحبُّها، وهي سترتبط بغيره وهي لا تُحبّه، والمرءِ لا يعثرُ على حبيب كلّ يوم!

وصحيح أنّها ما علمت أنّ لها كلّ هذا الحبّ في قلبِه وأنّها لمّا علِمت عزمتْ على وصله، ولكنّ الموت عاجلهما، وهذا درسٌ آخرٌ مفاده أنّ الموتَ لا ينتظر، ومؤلمٌ جداً أن يمضيَ المرءُ من الدُّنيا وقلبُه مكسورٌ، وكذلك مؤلمٌ لمن بقيَ بعد حبيبه، سيبقى يشعرُ بالمرارة والذّنب حتّى وهو مع إنسان آخر! أحياناً لا تحتاج الأمور كلّ هذا الصُّدودِ ما دام بالإمكان الاجتماع حلالاً!

وممّا يُروى في هذا الباب أيضاً، ما حكاه الخرائطيُّ في اعتلال القلوب عن عليّ بن تميم الخُزاعيّ قال: كان الحارث بن الشّديد مفتوناً بعفراء بنت أحمد، فبقيَ سقيماً بُرهةً من دهره، وكانت تُحبُّهُ أيضاً!

فلمّا أجهده الأمر كتبَ إليها:

صبرتُ على كتمانِ حبّكِ برهةً

وبي منكِ في الأحشاءِ أصدقُ شاهدِ

هو الموتُ إن لم تأتني منكِ رقعةٌ

تقومُ لقلبي في مقام العوائدِ!

فكتبتْ إليه تقول:

كُفيتَ الذي تخشَى وصرتَ إلى المُنى

ونلتَ الذي تهوى برغمِ الحواسدِ

ووالله لولا أن يُقالَ تظنناً

بي السوءَ ما جانبتُ فعل العوائدِ

فلمّا وصلت الرُّقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شمَّ رائحة يدها وكانت من أعطر النِّساء في زمانها، شهق شهقةً فقضى نحبَه!

فقيل لعفراء: ما كان يضرُّكِ لو روَّحتِ عن قلبه وأجبته بزيارة؟

فقالت: منعني من ذلك قولكم: عفراء قد صَبتْ إلى الحارث!

واللهِ لأقتُلنَّ نفسي على إثره من حيث لا يَعلمُ بي إلَّا الله عزَّ وجلَّ!

فقتلت نفسها!

أعجبني جداً حرصُ عفراء على سمعتِها، المرءُ منّا أوَّلاً وآخراً سمعة، ومن حقِّ كلِّ واحد منّا على نفسه أن ألَّا يُريق سمعتها! وسُمعة المرأة أسرعُ خدشاً من سُمعة الرَّجل، وإن كان المعيب نهاية المطاف مُعيبٌ للرَّجلِ والمرأة، ولكنَّها الحياةُ وما يغفرُه النَّاس للرِّجال لا يغفرونَه للنِّساء! ولكن كلاهما أخطأ، وجرَّ على نفسه عذاباً كان بالإمكان تفاديه، فهو أحبَّها ولم يكن لها زوج، فلِمَ لم يأتِ إلى بيتِ أبيها خاطباً! الكثيرُ من الأمور لا تحتاج كلَّ هذه المسرحيات المؤلمة التي يقومُ بها النَّاس!

يُفهمُ العذاب إذا كان الباب موصداً، والوصول محالاً، وقلب المرءِ ليس بيده!

ولكن حيث تكون الطّريق سالكةً فلأيّ شيء يُعذّبُ المرءُ نفسه؟!

وهي أيضاً أخطأت من حيث أحسنت! يُحسبُ لها أنّها أبث أن تُراقَ شمعتُها، وأن تعصيَ ربّها، وهذا فعل الحرائر المؤمنات من النّساء! ولكن ما دامت تُحبّه، وتعلمُ أنّه يحبُّها، فلتراسله: بابُنا مفتوحٌ، ولا سبيلَ إلينا من غير الباب!

كِلَاهُما قتلَ نفسَهُ وقتَلَ صاحِبَهُ!

القانون 28: الحُبُّ لا يُبَرِّرُ كلَّ شيءٍ!

قد لا يملكُ المرءُ قلبَهُ، ولكن يملكُ تصرُّفاتِه، لهذا فهو ليس محاسباً عمَّا لا يملكه! ولكنَّه مسؤولٌ عمَّا يملِكُهُ! وأسوأ ما نراه في هذه الأيام هو اتِّخاذُ الحُبِّ ذريعةً لكلِّ عملٍ مشينٍ، فقد برَّرُوا الخيانةَ الزَّوجية باسمه، وزيَّنوا الزنى تحت عباءته، وهتكوا الأستار والأعراض في طريقه، والحبُّ بريءٌ من كلِّ هذا!

قد لا يملكُ المرءُ قلبَهُ، ولكن يملكُ تصرُّفاتِه، لهذا فهو ليس محاسباً عمَّا لا يملكه! ولكنّه مسؤولٌ عمَّا يملِكُهُ! وأسوأ ما نراه في هذه الأيام هو اتّخاذُ الحُبّ ذريعةً لكلّ عمل مشين، فقد برّرُوا الخيانةَ الزّوجية باسمه، وزيّنوا الزنى تحت عباءته، وهتكوا الأستار والأعراض في طريقه، والحبُّ بريءٌ من كلّ هذا!

يُعجبني جداً قول علي الطّنطاويّ رحمه الله: ما في الحُبّ من شيء، ولا على المحبّين من سبيل، إنّما السّبيل على من ينسى في الحُبّ دينه، أو يُضيّعُ خُلُقه، أو يشتري بلذّةِ لحظة في الدُّنيا عذابَ ألفِ سنة في جهنّم!

وسبب إعجابي بهذا القول أنه ينصِفُ الحُبَّ من حيث ما هو عاطفةٌ جميلةٌ نبيلةٌ أودَعَها اللهُ قلوبَنا، وفي المقابل هو ضِدُّ كلّ الآفات التي تُرتَكب باسم الحُبّ، وكأنّ وجود هذا الشُّعور النّبيل يبرّرُ كلَّ التّصرُّفاتِ التي تصدر عنه!

روى البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة وابن عمر، أنّ النّبيّ ﷺ قال: خرج ثلاثةُ نَفَر يمشونَ فأصابهم المَطَر، فدَخَلوا في غار في جبَل، فانحَطّت عليهم صَخرةٌ، فقال بعضُهم لبعض: ادعوا اللهَ بأفضلِ عَمَل عَمِلتموه.

فقال أحدُهم: اللهمّ إنّي كان لي أبَوَانِ شَيخانِ كبيران، فكنتُ أخرج فَأرعى، ثم أجيءُ فأحلِب فأجيءُ بالحِلاب، فآتي به أبويّ فيَشربان، ثم أسقِيَ الصّبيَة وأهلي وامرأتي، فاحتَبَستُ ليلة، فجئتُ فإذا هما نائمان، قال: فكرهتُ أن أُوقِظَهما، والصّبية يَتَضَاغَوْن عند رِجلي، فلم يزل ذلك دَأبي ودَأبَهما، حتّى طلَع الفجر، اللهمّ إن كنتَ تَعلَمُ أنّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرُج عنّا فُرجةً نرى منها السّماء. فَفُرِج عنهم!

وقال الآخر: اللهمّ إنّك تعلم أنّي كنتُ أُحبُّ امرأةً مِن بنات عمي كأشَدّ ما يُحبُّ الرجلُ النّساء، فقالت: لا تَنال ذلك منّي حتى تعطيني مائةَ دينار، فسَعيتُ فيها حتّى جَمَعتُها، فلمّا قَعَدتُ بين رِجليها قالت: اتقِ الله ولا تَفُضّ الخاتَمَ إلا بحقّه!

فقمتُ وتركتُها، فإن كنتَ تعلَم أنّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك، فافرُج عنّا فُرجَة. ففُرِج عنهم الثُلثين!

وقال الآخر: اللهمّ إنك تعلَم أنّي استأجَرتُ أجيرًا بفَرَق من ذُرَة، فأعطيتُهم أُجرتهم،

وأبَى ذاك أنْ يأخُذَ، فعَمَدتُ إلى ذلك الفَرَق فزرعتُه، حتَّى اشتريتُ منه بقرًا وراعِيها، ثمّ جاء فقال: يا عبد الله أعطِني حَقِّي، فقلتُ: انطلقْ إلى تلك البقر وراعِيها فإنَّها لك، فقال: أتستهزِئُ بي؟ قال: فقلت: ما أستهزئُ بك ولكنَّها لك، اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرُجْ عنَّا. فكُشِف عنهم!

ما يَعنِينا من الحديث على روعته هو الجزءُ المتعلِّق بالرَّجل الثاني وابنة عمِّه، فقد شغفته حُبًّا، وملكتْ عليه قلبه وجوارحه، وكان يحبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرِّجال النِّساءَ، ولم تكن من عادتها البِغاء كما يظهر من طيَّات الحديث، وشروح العلماء التي قرأتها، ولعلَّ الحاجة ألجأتها إلى هذا، فلمَّا طلبها لنفسه اشترطتْ عليه مئة دينار، فذهب وعمل حتَّى جمعها، فلمَّا قعد منها ما يقعد الرَّجل من المرأة تذكرتْ مقام ربِّها، وعادت إلى فطرتها ودينها إذ لم يكن الأمرُ عندها عادة، فقالت له: اتقِ الله ولا تفضَّ الخاتم إلَّا بحقِّه! فقام عنها وترك لها المال، وهذا عملٌ قد رضيه الله سبحانه وتعالى، وفرَّج عنهم به كربةً عظيمةً من كُرَبِ الدُّنيا!

كان هذا الرَّجل صادقاً في حُبِّه، ولم يكن يريد علاقة بأيِّ امرأة، وإنَّما أراد ابنة عمِّه بذاتها، ولكن صدق المحبَّة لا يُبرر الزِّنى، فلمَّا ذكَّرته بالله تذكَّر، ولمَّا نهتهُ عن الخطأ انتهى.

فاللهُ تعالى لم يُؤاخذهُ على الحُبِّ من حيثما هو شعور، فقد قام عنها وهو يحبُّها، ولعلَّه حين دعا كانت ما زالتْ في قلبِه، فأجاب الله دعوتَه لأنَّه لم يسلُكْ إلى هذا الحُبِّ سبيلاً حراماً!

فإذا هممتَ بسوء بإمكانك أن ترجعَ، وإنَّ الرَّاجع من منتصف الطَّريق حبيبٌ إلى الله، لأنَّ ما منعه عن المعصية وهو قادر عليها إلا مخافةَ اللهِ، وأنَّه لا عفَّة لمن لا شهوة له!

روى ابنُ القيِّم في روضة المحبِّين أنَّ أبا السَّيارة أُولِع بامرأةِ أبي جندب فرَاودَها عن نفسها، فقالت: لا تفعلْ، فإنَّ أبا جُندب إن يعلم هذا يقتلك!

فأبى أن يتركها، فكلَّمت أخا أبي جندب، فكلَّمه، فأبى أن يتركها وشأنها!

فأخبرث بذلك أبا جندب، فقال لها: إني مخبرُ القوم أنّي ذاهب إلى الإبل، فإذا أظلم الليل جئتُ، فدخلتُ البيت، فإن جاءكِ فأدخليه!

فودّع أبو جندب القومَ، وأخبرهم أنّه ذاهبٌ إلى الإبل!

فلمّا أظلم الليل، جاء فكمنَ في البيت!

وجاء أبو السّيّارة، فراودَها عن نفسها، فقالت: ويحك! أرأيتَ الأمرَ الذي تدعوني إليه هل دعوتُك إلى شيء مثله قطُّ؟

فقال: لا، ولكن لا أصبرُ عنكِ!

فقالت: أدخل البيتَ حتّى أتهيّأ لك!

فلمّا دخل البيت، أغلق أبو جندب الباب ثمّ أخذَهُ فدَقّ عُنُقه، وانهَالَ عليه ضَرباً!

فذهبت المرأة إلى أخي أبو جندب وقالت: أدرك الرَّجل فإن أبا جندب قاتله!

فجعلَ أخوه يناشدُه، فتركَهُ، وحمله أبو جندب إلى مدرجَةِ الإبلِ، فألقاه، وكان إذا مرَّ به إنسانٌ وقال له: يا أبا السّيّارةِ ما شأنُك؟

قال: وقعتُ عن ناقة فحطّمتني!

وبلغ الخبرُ عمرَ بن الخطّاب، فأرسل إلى أبي جندب، فأخبره بالأمر، وأرسل إلى أهل المرأةِ فصدّقُوه!

فجلدَ عمرُ أبا السّيّارةِ مئةَ جلدة، وأبطلَ ديّتَهُ!

لعلّ أبَا السّيّارة كان صادقاً في حبّهِ، ولعلّهُ كما وصفَ نفسَهُ لا يصبرُ عنها، ولكن لو أنّ كلَّ رجل أحبّ امرأةً أرادها لنفسه ما قامَ للنّاس بيوتٌ، ولا كان مجتمعٌ، ولا صارت حياةٌ! فالحبُّ لا يبررُ الزّنى، ولا التّطاولَ على أعراضِ النّاسِ، ولا هدمَ بيوتهم!

نعم يُبتلى المرءُ في قلبه، وهو أمام أحد خيارين لا ثالثَ لهما، إمّا أن يكون إلى ما أبتُليَ به سبيل من خلال حلال يسلكه، أو يمسك قلبَهُ عليه ولا يُلوّث أعراض النّاس.

أمّا تبريرُ كلِّ سوء بأنّ الحُبَّ وراءَهُ فهذا أتفهُ ما يُبرر به الخطأ، فإنّ المحبّ لا يُؤذي!

يظهرُ من ثنايا القصّة أن امرأةَ أبي جندب على عفّتها، كانت امرأةً عاقلةً أيضاً، فهي عندما نهتْهُ عن السّوءِ الذي أراده منها باسم الحُبّ، نهتْهُ أولاً بنفسها، وعندما لم ينتهِ عمدتْ إلى شقيقِ زوجها، إذ أرادتْ أن تدفع أبا السّيّارة بأقلّ ضرر ممكن، فإنّ من الحكمة عدم إيصال الأمر إلى الزّوجِ مباشرةً، خوفاً عليه من أن يرتكب ما لا يُحمد عقباه! ولكن لمّا لم ينتهِ أبو السّيّارة عندها أخبرتْ زوجها!

والعاقلةُ تُبرّئُ ساحتَها، ولا تتركِ الأمر لها وحدها إذا لم تستطعْ أن تدفعه بنفسها، لأنّه يُخشى أن يظهر من الأمر ما لا يُحمد عُقباه فتُتّهمُ في عِرضها، والمرأةُ العاقلةُ تقدِرُ أن تضعَ الأمور في موازينها!

القانون 29: يُصبِحُ الحبيبُ مِقيَاساً!

الحُبُّ لم يكن يوماً معادلةً حسابيةً، ولن يكون كذلك أبداً! والجميل في عينيك ليس بالضرورة جميلاً في عينَي غيرِك، والعكس صحيح! وإنَّك لترى الجميلة الفاتنة التي تُحِبُّ من هو دونها في الجمال أضعافاً، فتتعجَّب لما ترى، ولكنَّه القلبُ يا صاحبي! وإنَّك لترى الوسيم الأنيق الذي يحبُّ من هي دونه في الكمال أضعافاً، فتتساءل كيف يحدث هذا؟ فلا تتساءل، فإنَّه القلب وما يهوى!

كان لي صديقٌ أديبٌ ظريفٌ، حُلوُ الرُّوح، عَذْبُ الحديث من السُّودان، تجاذبنا أطرافَ الحديثِ عن بُعدٍ أعواماً إذ جمعنا موقعٌ أدبيٌّ كنَّا نكتبُ فيه معاً، وكان هذا سبباً في تعارفنا، ثمَّ التقينا مرَّةً في المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل السَّلام وأتمُّ التَّسليم بعد أن منَّ الله علينا بأداء المناسك في مكَّة، كنَّا نلتقي في صلاة المغرب، ونجلس بعدها في ساحة المسجد النبويِّ، وحين ننتهي من صلاة العشاء يمضي كلُّ واحدٍ منَّا إلى أهله!

لا أذكر أنَّ شيئاً من أشياء الدُّنيا فاتنا أن نتجاذب أطراف الحديث فيه، هي أعوام، والحديثُ يجُرُّ حديثاً، والإنسان حين يألف يفتحُ قلبه!

كتبَ مرَّةً قصيدةً يتغزَّلُ فيها بامرأةٍ سمراءَ وعرضها عليَّ، تناقشنا فيها يومها، فقال لي وقد بدا وقتَها يتخفَّفُ من ثقلٍ يحمِلُه على كاهِلِه: الصِّدقُ أنَّه لا تستهوينِي المرأةُ ما لم تكن سمراء، لا سمراء فقط هذه التي تسمُّونَها أنتم في بلادِ الشَّام بالحِنطِيَّة، وإنَّما سمراء بمعنى سوداء! ولو اجتمعت شقراوات العالم كلُّهنَّ على صعيدٍ وامرأةٌ واحدةٌ سوداء على صعيدٍ آخر، لم ألتفت إلَّا حيث تقف تلك السَّوداء!

فقلتُ في نفسي: يا سبحان الله!

وكأنَّه لمس في سكوتي تعجُّباً، فأخبرني أنَّ أوَّل امرأةٍ أحبَّها كانت سوداء فلا يميلُ قلبُه الآن إلَّا لمن كان فيها شيءٌ منها!

وقد بقيتُ بعد هذا أعواماً أعتقدُ أنَّ حالةَ صاحبي هي حالةٌ خاصَّةٌ، إلى أن قرأتُ طوقَ الحمامة لابن حزمٍ، فقال كلاماً تذكَّرتُ فيه كلام صاحبي، فعرفتُ أنَّ الحبيبَ قد يُصبِح مقياساً!

يقول ابن حزمٍ: أحببتُ في صبايَ جاريةً لي شقراءَ الشَّعر، فما استحسنتُ من ذلك الوقتِ سوداءَ الشَّعر ولو أنَّه على الشَّمس، أو على صور الحُسنِ نفسه، وإنِّي لأجدُ هذا في أصلِ تركيبي مُذ ذلك الوقت ولا تُؤاتِيني نفسي على سواه، ولا تحبُّ غيرهُ البتَّة! وهذا العارض بعينِه عرضَ لأبي رحمه الله، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله!

وأمَّا جماعة خلفاء بني مروان، ولا سيَّما أولاد النَّاصر، كلُّهم مجبولون على تفضيل

الشُقرَة، لا يختلفُ في ذلك منهم مختلفٌ، وقد رأيناهم فما منهم إلّا أشقر نزاعاً إلى أمّهاتِهم! وهذا ظاهرٌ في شِعْرِ مروان ابن أمير المؤمنين النّاصر، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم، وأكثر تغزُّله بالشُقرِ فقد رأيته وجالسته!

الحُبُّ لم يكن يوماً معادلةً حسابيّةً، ولن يكون كذلك أبداً! والجميل في عينيك ليس بالضرورة جميلاً في عينَي غيرِك، والعكس صحيح! وإنّك لترى الجميلة الفاتنة التي تُحِبُّ من هو دونها في الجمال أضعافاً، فتتعجّب لما ترى، ولكنّه القلبُ يا صاحبي! وإنّك لترى الوسيم الأنيق الذي يحبُّ من هو دونه في الكمال أضعافاً، فتتساءل كيف يحدث هذا؟ فلا تتساءلْ، فإنّه القلب وما يهوى!

نحن نرى بقلوبنا أكثر ممّا نرى بأعيننا، فما أحببناه رأيناه جميلاً ولو قال الآخرون أنّ في جماله وجهة نظر، وما كرهناه استقبحناه ولو اتّفق النّاس على جماله! وإنّ الكثير من الحُبِّ يقع من حُسْنِ المعاملة، وطِيب العِشرة، وليس شرطاً أن يبدأ أول الأمر استحساناً!

ومن العجائب اللّطيفة التي رواها داود الأنطاكيّ في تزيين الأسواق في أخبار العشّاق، ما حكاه الأسديُّ، قال: ضلّتْ لي إبلٌ فطلبتها في قُضاعة، حتّى إذا دهمني اللّيل أمسيتُ إلى بيتٍ، فناديتُ أهله، فأجابتني امرأةٌ كالشّمس جمالاً، وقالت: اِنزل على الرّحبِ والسّعة! وأجلستني عند نارٍ فاصطليتُ، وجاءتني بطعامٍ فأكلتُ وهي تحادثُني، وإذا إبلٌ كثيرةٌ قد أقبلت إلى البيت، وقد أقبل شخصٌ فبادرتْ إليه ومعها ولدٌ تلاعبه، فتناوله وجعل يُقبّلُه، وأنا أظنُّه عبداً لقباحته، حتّى جلس إلى حائطٍ، وقال: ممّن الضّيف؟

فقلتُ: أسديٌّ!

فعلمتُ أنّه زوجها، فجعلتُ أتأمّلُ ما بينهما من المُبَاينَةِ، ففطنَ لذلك!

فقال: كأنّك تعجبُ منّا!

فقلت: إي والله!

فقال: فهل أحدّثك بوصولها إليّ؟

فقلت: ما أشوقني إلى ذلك!

فقال: كنتُ سابعَ سبعةِ أخوةٍ، إذا رأيتني بينهم ظننتني عبدَهم! وكانوا يطرحونني للرَّعي ونحو ذلك، فضلَّ لنا بعيرٌ فقالوا: إمضِ في طلبه!

فقلتُ: ما أنصفتُمُوني!

فقال أبي: إذهبْ يا لُكَع وإلَّا جعلته آخر أيَّامك!

فمضيتُ وأنا على أسوأ حالةٍ من البردِ والجوع، فدفعني المساءُ إلى عجوزٍ عليها سِمَةُ الخيرِ والشَّرف، وإلى جانبها امرأتي هذه، فجعلتْ تسخرُ بي وتقول: هل لكَ إذا نام النَّاسُ أن تدخلَ إليّ فأتحدَّثُ معك، فإنِّي لم أرَ أحسنَ منك!

وأقبلَ أبوها وأخوتها السَّبعة فناموا بإزاء الخيمة، فأغراني الشَّبع والدِّفء، فدخلتُ عليها الخيمة، فلمَّا شعرتُ بي قالت: من تكون؟

فقلتُ: الضَّيف!

فقالتْ: أخرجْ لا حيَّاك الله!

فخرجتُ فزِعاً، فتلقَّاني كلبهم يريد أن يأكلني وأنا أردُّه بعصايَ وأركض حتَّى وقعتُ في حفرةٍ لا ماء فيها!

فجاءت امرأتي، ورأتني على هذه الحالة، فقالت: وددتُ والله أن أجعلها قبرك!

ثمّ أدلت إليّ بحبلٍ وقالت: إصعدْ!

فحين قاربتُ فمَ الحفرةِ انهارتْ تحت أقدامها، فسقطنا جميعاً فيها!

فلمَّا كان الصَّباح وافتقدوها، أقبلوا بالسُّيوف والأحجار على قتلنا، فقال أبوها: إنِّي لأعرفُ من ابنتي ما لا ريبةَ فيه!

فأمسكونا وأخرجونا، فأقبل عليّ أبوها فقال: أفيكَ خيرٌ لأزوِّجك بها اتِّقاء الشُّهرة؟

فقلتُ حين شممتُ الحياة: وهل عندي إلَّا الخير!

فزوَّجني بها على خمسين ناقةٍ وأمةٍ وعبدٍ، ورجعتُ إلى أبي فأخبرتُه بذلك، فذهبَ إليهم وأحضرها، وتزوَّجتُها، وها هي تسمعُ ما أقول!

فقالت المرأة: وهو اليومَ أحسنُ النَّاس عندي وأملكهم لنفسي!

فسُبحان من جمَّل بالحُبِّ النَّاس!

القانون 30: أهرُبْ بِدِينِك!

الكثير من النَّاس يستسهِلُون الحرامَ لأنَّه لذَّةٌ تمضي وتنقضي، ويستثقلون الحلال لأنَّه التزامٌ وله تبعاتٌ! وهؤلاء ليسوا أهل الحُبِّ، ولا لهم فيه شعرة، إنَّما هم أهلُ الغرائز والمُجُون، ولكنَّهم ألبسوا شهواتِهم عباءَة الحُبِّ! ونصبوا باسمه الفخاخ، فإنَّ الحُبَّ فخٌّ يسهلُ الاصطيادُ به!

فمن عرفتَ أنَّ له طريقاً إلى الحلال فلم يسلكه فإيَّاك أن تبقى معه فضلاً عن أن تُجاريه، فإنَّ من استسهلَ الحرامَ معك سيستهله مع غيرك، أُهرب بدينِكَ فإنَّه سيدخلُ قبركَ معك!

هذه الدُّنيا ليست دارنا، نحن فيها في لجوءٍ مؤقَّتٍ، والعاقل من عرف أنَّ الجنَّة هي داره الحقيقيَّة، فعملَ لأجل أن يعود إليها، وكلمَّا فُتح أمامه باب المعصية هرب ولم يدخل فإنَّ الشُّجاعَ من النَّاس هو من يهربُ من المعاصي! وإنَّ الشَّهوة مرتَعٌ خصيبٌ للنَّفس، وأحدُ امتحاناتها الشَّاقة وقد يسهل على الواحد منَّا أن يتورَّع من مال الدُّنيا كلِّه، ولكنَّه عند امتحان الشَّهوة يسقط، والمعصومُ من عصمه الله!

يقول ابنُ حزمٍ: ولقد ضمَّنِي المبيتُ ليلةً في بعض الأزمان عند امرأةٍ من بعض معارفي مشهورةً بالصَّلاح والخير والحزم، ومعها جاريةٌ من بعض قِراباتها من اللاتي ضمَّتها معي النَّشأة في الصِّبا، ثم غبتُ عنها أعواماً كثيرةً، فوجدتُها قد جرى على وجهها ماءُ الشَّبابِ ففاض وانسابَ، وتفجَّرتْ عليها ينابيعُ الملاحة، وقد ظهرتْ منها صورةٌ تُعجِزُ الوُصَّاف!

فبِتُّ عندها ثلاثَ ليالٍ مُتواليةٍ، ولم تُحجَبْ عنِّي على جاري العادة في التَّربية!

فلَعَمري لقد كاد قلبي أن يصبُو ويثوب إليه مرفوضُ الهوى، ويُعاوده منسيُّ الغزل!

ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخولِ تلك الدَّار خوفاً على لُبِّي أن يزدهيه الاستحسان، ولقد كانت هي وجميع أهلها ممَّن لا تتعدَّى الأطماع إليهنَّ، ولكنَّ الشَّيطان غير مأمول الغوائل!

يا لابن حزمٍ ما أصرحه وما أتقاهُ في آنٍ معاً، يُخبرك أيَّ جمالٍ كانت عليه الجارية، وأنَّه استعذب حُسنها أيَّما استعذاب، ولكن انقطع عن تلك الدَّار خوفاً من ألا يملك تصرُّفاته وهذه هي التقوى بعينها! التقوى أن تستحسن وتستعذب، ويقع الأمر في نفسك موضع الرَّغبة والرِّضى، ولكنَّك تتركُه لله!

ويُعلِّمُنا ابن حزمٍ درساً من أهمِّ دروسِ الحياة، وهو ألا يمتحِنَ المرءُ نفسه، ولا يراهن على قدرته على عدم الوقوع في المعصية، فإنَّ حبالَ الشَّيطان كثيرةٌ، وإنَّك متى أفلتَّ من حبلٍ ألقى إليك غيره، حتَّى يأتيَ بك نهاية المطاف مُقيَّداً، فإذا وقعتَ في المحظور، قال لك قولته المشهورة: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

في كتاب صفة الصفوة لابن الجوزيِّ أنَّ رجلاً عشِق جاريةً وزاد حبُّهُ لها ولم

يتمكّن من الوصول إليها! فأرسلها أهلُها بحاجةٍ لهم فتبِعَها وراوَدَها عن نفسها!

فقالت له: إنّي أحبُّ لك منك لي، ولكنّي أخافُ الله!

فقال لها: أتخَافِينَه وأنا لا أخافه؟!

فرجع عازماً على التّوبة، وخرج من القرية، فناله عطشٌ كاد أن يقضي عليه، فلقِيَه رسولٌ من رُسِل ذلك الزّمن، فشكا إليه ما أصابه من العطش في يومه هذا!

فقال له الرّسول: هلُمَّ ندعو أن تظلّنا سحابةٌ حتّى نبلغ القرية.

فقال له: ليس لي عملٌ صالحٌ أدعو بِه!

فقال له: أنا أدعو وأنت أمِّن!

ففعلا، فأظلتهما سحابةٌ حتّى بلغا القرية، فلمّا أرادا أن يفترقا، تبِعث السّحابة الرّجل وتركتِ الرّسول!

فقال له الرّسول: تقول لي ليس لي عملٌ صالحٌ أدعو به وقد تبِعتك السّحابة، فأخبرني ما فعلت!

فأخبره، فقال له الرّسول: التّائب عند الله أحسن من العابد!

من رحمةِ الله بعبده أن يُرسِل له ما يُذكّرُه بالله، وأن يوصِد في وجهه باب المعصية، فإذا أرسل الله إليك من يُذكّرُك فيه فلا تأخذك العزّة بالإثم، فلو لم تكن عزيزاً عنده ما هيّأ لك من ينهاك، فلا تقابل هذا الإحسان بالإساءة!

وإن أغلقَ في وجهِك باب المعصية فلا تطلبها من بابٍ آخرٍ، تخيّلْ ربًّا ليس له بكَ حاجةٌ يُغلقُ في وجهِك بابَ معصيةٍ ليقرّبَك نجيًا، وأنت الذي لك عنده كلُّ الحوائجِ ترفضُ هديّته، وتتسلّقُ الجدران وكان الأجدر بك أن ترجعَ!

في كتاب الحُبّ عند العرب لأحمد تيمور باشا: روى المبرّدُ أنّه كان بالكوفة فتىً جميلُ الوجه، شديدُ التّعبُّد والاجتهاد فنزل في جوارِ قومٍ، فنظرَ إلى جاريةٍ منهم، فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به من الحبّ، فأرسل يخطبها من أبيها،

فأخبره أبوها أنّها مسمّاةٌ لابن عمٍّ لها. فلمّا اشتدّ عليهما ما يقاسيانِه من ألم الهوى، أرسلتْ إليه الجاريةُ تقول: قد بلغني شدّةُ محبّتك لي، وقد اشتدّ بلائِي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهّلتُ لك أن تأتي إلى منزلي!

فقال للرّسول: ولا واحدة من هاتين الخلّتين، ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمدُ لهيبها!

فلمّا أبلغها الرّسول قوله، قالت: وأراه مع هذا يخاف الله! واللهِ ما أحدٌ أحقُّ بهذا من أحدٍ، وإنّ العباد فيه لمشتركون!

ثمّ انخلعت من الدُّنيا، وجعلت تتعبّد، وهي مع ذلك تذوبُ وتنحلُ حبّا للفتى، وشوقاً إليه حتّى ماتت من ذلك!

فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده، ويدعو لها. فغلبته عيناه ذات يومٍ على قبرها، فرآها في منامه في أحسن منظرٍ، فقال لها: كيف أنتِ، وما لقِيتِ؟

فقالت:

نِعمَ المحبّةُ يا سُؤلِي مَحبّتُكم

حبٌّ يقـــودُ إلى خيرٍ وإحسانِ

فقال لها: على ذلك إلى ماذا صِرتِ؟

فقالت:

إلى نَعيمٍ وعيشٍ لا زوالَ لـهُ

في جنّةِ الخُلدِ مُلْكٌ آيسَ الفاني؟

فقال لها: اذكريني هناك، فإنّي لستُ أنساكِ هنا!

فقالت: ولا أنا انساك، ولقد سألتُ مولاي ومولاك أن يجمع بيننا، فأعنّي على ذلك بالاجتهاد!

فقال لها: متى أراكِ؟

فقالت: ستأتينا عمّا قريبٍ فترانا!

فلم يعشِ الفتى بعد الرُؤيا إلّا سبعَ ليالٍ ومات!

ما أجملَ الحُبّ حيث تُزيِّنه العِفّة، وما أجملَ القلب الذي يكون فيه الله سبحانه قبل كل شيء!

حبٌّ ملتهبٌ لا تطفئه أنهار الدُنيا مع هذا لم يكن للحرام فيه موضع قشّة، وكلاهما يُضرب فيه المثل، فهو على عظيم حُبّه لها إلّا أنَّه رفض أن يعصي الله فيها، وسلامٌ على الحبيبِ إن لم يكن هذا! وهي وإن غلبها قلبُها في أوّل الأمر فقد غلبتْهُ في آخره، فمضت من الدُنيا عابدةً عفيفةً، مُحِبَّةً شريفةً! فلا الموتُ أطفأ نارَ المحبّة، ولا أطباقُ الثُرابِ دفنت جميلَ الهوى، وعند الله لا تجتمعُ الخصوم فقط، وإنّما يجتمع الأحبّة أيضاً!

في كتابِ روضةِ المُحبّين لابن القيّم، وكتاب ذمِّ الهوى لابن الجوزيّ:

قال الأصمعيّ: بلغني أنّ فتىً من العُبّاد هوِيَ جاريةً من أهل البصرة، فبعث إليها يخطِبها، فامتنعت، وقالت إن أردتَ غير ذلك فعلت!

فأرسل إليها: سبحان الله، أدعوكِ إلى ما لا إثمَ فيه، وتدعينني إلى ما لا يصلُح؟

فقالت: قد أخبرتُك بالذي عندي، فإن شئتَ فتقدّم، وإن شئتَ فتأخّر!

فأنشد يقول:

وأسألُها الحَلالَ وتَدْعُ قلبي

إلى ما لا أريدُ من الحَرامِ

كداعي آلِ فرعونَ إليه

وهم يدعُونه نحوَ الأثامِ

فظلَّ منعمًا في الخُلدِ يسعَى

وظلُّوا في الجحيمِ وفي السّقامِ

فلمّا علِمت أنّه قد امتنع عن الفاحشة، أرسلت إليه تقول: أنا بين يديك على الذي تُحِبُّ!

فأرسل إليها: لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطّاعةِ، فدعانا إلى المعصية!

اِجعلها قانوناً عندك، لا حاجةَ لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة، فدعانا إلى المعصية!

الكثير من النّاس يستسهِلُون الحرامَ لأنّه لذّةٌ تمضي وتنقضي، ويستثقلون الحلال لأنّه التزامٌ وله تبعاتٌ! وهؤلاء ليسوا أهل الحُبّ، ولا لهم فيه شعرة، إنّما هم أهلُ الغرائز والمُجُون، ولكنّهم ألبسوا شهواتِهم عباءَة الحُبّ! ونصبوا باسمه الفخاخ، فإنّ الحُبّ فخٌّ يسهلُ الاصطيادُ به!

فمن عرفتَ أنّ له طريقاً إلى الحلال فلم يسلكه فإيّاك أن تبقى معه فضلاً عن أن تُجاريه، فإنّ من استسهلَ الحرامَ معك سيستهله مع غيرك، أهربْ بدينِكَ فإنّه سيدخلُ قبركَ معك!

القانون 31: إنَّ القلوبَ تتقلّب!

قالتِ العربُ: إنَّما سُمِّيَ القلبُ قلباً لتقلّبه!

ويحدثُ كثيراً أن يكون الحبُّ لاهباً فينطفئ، ويحدثُ كثيراً أن يولد يانعاً ثمّ يصغرُ ويذبل ويموت! وكما أنَّ الناس لا يُحبُّون بطريقةٍ واحدةٍ، فهم كذلك لا يبقى حبُّهم على حالةٍ واحدة، فسبحان من له الدّوام، ولا تجري عليه تقلُّبات الأيّام!

قالتِ العربُ: إنَّما سُمِّيَ القلبُ قلباً لتقلُّبه!

ويحدثُ كثيراً أن يكون الحبُّ لاهباً فينطفئ، ويحدثُ كثيراً أن يولد يانعاً ثمَّ يصغرُ ويذبل ويموت! وكما أنَّ الناس لا يُحبُّون بطريقةٍ واحدةٍ، فهم كذلك لا يبقى حبُّهم على حالةٍ واحدة، فسبحان من له الدَّوام، ولا تجري عليه تقلُّبات الأيَّام!

تزوَّج ألبرت أينشتاين زوجته «ميلفيا» عن حُبٍّ، ومع مرور الأيام بدأ هذا الحبُّ يبهتُ شيئاً فشيئاً، إلى أن تحوَّل نهاية المطاف إلى كراهية!

فقد وصل أينشتاين إلى مرحلةٍ لم يكن فيها يطيق أن يرى وجهها، أو يسمع صوتها، حتى أنَّه قد وقَّعَ معها اتفاقاً مكتوباً على ورق، ألا تكلِّمه ولا يكلِّمها، ولا تتفاعلُ معه ولا يتفاعلُ معها، وأن يعتبرا بعضيهما أشباحاً لا وجود لأحدهما في حياة الآخر! وبعد مدَّةٍ وصل الأمرُ إلى الطَّلاق، فدفع لها أموال جائزة نوبل كتسويةٍ عن الطَّلاق!

كلُّ الذين كانوا شهوداً على علاقة الحبِّ بينهما، لم يكن يخطر في بالٍ واحدٍ منهم أنَّ هذا الحُبَّ الجارف الذي تتوَّج بالزَّواج يمكن أن ينتهي بهذه الصُّورة المأساويَّة التي انتهى بها!

وقد حاولتُ أن أبحث عن بعض الأسباب التي أدَّتْ إلى هذا فلم أُوفَّق، وعلى أيَّة حالٍ لا تهمُّ الأسباب، ما دمتُ مؤمناً بنتيجةٍ جعلتها قانوناً، وهي أنَّ القلوبَ تتقلَّبُ!

يقولُ الأصمعيُّ: نزلتُ على رجلٍ من بني هُذيلٍ فأكرمني، وأطرفني بلطائف الأخبار، وانقضى ذلك اليوم بالسُّرور.

فلمَّا كان الليلُ فرشَ لي موضعاً، فأخذتُ مضجعي للنَّوم، أما هو فجلس!

فقلتُ له: هل بقيَ لك حاجة في السَّهر؟

فقال: لا، وعافاك اللهُ، نَمْ ودعنِي لما بي!

فعلمتُ أنَّ له خبراً، فأوهمته بالنَّوم، فقام وفتحَ صندوقاً، وأخرج منه كلبةً عليها الحرير وأطواق الذَّهب! فقدَّم لها طعاماً وشراباً، فلمَّا اكتفتْ غسلها بماء الورد

وبخزها بالعود، ثم مكث ساعةً، ونزع ما كان عليها، ورشَّها بالرَّماد والزَّيت وعاقبها طويلاً! وهو مع الفعلتين يبكي بشهيقٍ أخالُ فيه أنَّ نفسه زهقت، ثم أعاد عليها، وأدخلها الصُّندوق، ويجعل ينشدُ:

أأحبابَنا لـــو تعلمـــون بحَالِنَا

لما كانتِ اللذاتُ تشغُلكم عنَّا

تشاغلتُم عنَّا بصحبةِ غيرِنَا

وأبديتُم الهجرانَ ما هكذا كُنَّا

وآليتم أن لا تخونُوا عهودنا

فقد وحياة الحبِّ خُنتم وما خُنَّا

وغدرتم ولم نغدِز وخنتم ولم نخُن

وحِلتُم عن العهدِ القديمِ وما حِلنا

وقُلتم ولم توفوا بصدقِ حديثكم

ونحن على صِدقِ الحديثِ الذي قُلنا!

ودام كذلك حتى طلع الفجر، فجاء ليوقظني فرآني منتبهاً، فلما ودَّعته تفرَّسَ أنَّ في وجهي كلاماً، فقال: أنشدك الله هل رأيتَ من حالي شيئاً أنكرته؟

فقلتُ: اللهُمَّ نعم!

فقال: أتحبُّ أن أُحدِّثك به؟

فقلتُ: أي واللهِ!

فتنفَّس الصُّعداء، وكفكفَ دمعه فلم يملك ذلك، وخنقته الدَّمعة، فأرسلها، وأنشد:

أكفكِفُ جفنَ العينِ والدَّمعُ سافحُ

كشبه غديرٍ فوق خدّي جارياً

فيا ليتَ شِعري ذا البكاءُ إلى متى

وحتّى متى ذا الحزنُ والجِسمُ بالياً

ثم مسح دمعه وقال: يا أخا العرب، كانت لي ابنة عمٍّ لا أملكُ الصَّبرَ عنها، فتزوَّجتُ بها فكانت أبرَّ بي من أمي وأبي، وأقمنا مدّةً على أحسن ما يكون الأزواج، وتعاهدنا على عدم التَّفرق والاستبدال.

ثم دارتْ بي الدُّنيا وافتقرتُ، فتغيرَّتْ عليَّ، وأخذتْ تتحاملُ عليَّ وتتجنبني ما استطاعتْ!

فقلتُ لها: يا فلانة ما تريدين؟

فقالت: أتفعلُ ما أُريد؟

قلت: نعم.

فقالت: طلقني!

فلم تهُن عليَّ نفسي فطلقتها!

فاعتزلتني، فلم أصبز على فراقها، فجئتها وشكوتُ لها ذلك، وذكَّرتُها بالعهود والمواثيق التي كانت بيننا، فطيّبتْ نفسي، وحلفتْ أنَّها لا تتزوَّجُ بعدي، ولا تتزيَّنُ لغيري، ولكنَّها لن ترجع إليَّ!

فقمتُ عنها، ومضتْ عِدَّتُها، وجئتها يوماً فوجدتها على أحسن ما يكون من أنواع الزِّينة والطِّيبِ، فكلَّمتها فلم تجبنِي!

فسألتُ، فقيل لي: قد تزوَّجتْ!

فحلفتُ لها ألا آخذ للبسها وزينتها التي عندي إلا كلبة!

وها أنا على الحال التي رأيتَ، أكرِمُ الكلبةَ حين أشتاق، وأُعاقبها حين أذكرُ فعلها

معي!

النّاس ليسوا سواءً، بعضهم إذا أحبّت قلوبهم تمسّكوا بأحبابهم ولو قضوا العمر يأكلون الخبز بالزّيت! وبعضهم قلوبهم مرتبطةٌ بظروفهم الحياتيّةِ والاقتصاديّة، حبُّهم بادٍ، وودُّهم ظاهرٌ ما دامت الأمور بخير، فإذا انقلبت الأمور انقلبوا معها، وأسوأ ما في الأمر أنّ معادن النّاس لا يمكن اكتشافها إلا في الظّروف الصّعبة، ووقتذاك يكون قد فاتَ الأوان!

لستُ أُنكِرُ أثر الرّخاء على استقرار الحياة، ولكنّي لستُ أفهم ولا بحالٍ من الأحوال أنّ القلب يمكن أن يتقلّبَ بسببها، ولكن هذا يحدث، والنّاس فيهم من الغرائب أكثر مما في قصص الخيال العلميّ!

ولكني حاولتُ أن أتفكّر في الأمر، فوجدتُ أنّ ضيق العيش مع كثرةِ متطلّباته، قد يُؤدّي إلى جدلٍ ونقاشٍ مستمرّ، الأمر الذي ينسحبُ سلباً على العلاقة، مما يُؤدّي نهاية المطاف إلى النّفور، وهذا ليس تبريراً منّي للأمر، ولكنّها محاولةٌ لفهم هذه الظّاهرة!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشّاق لداود الأنطاكي:

كان صخر بن عمرو من أشجع العرب وأكرمهم وأجملهم، وكانت تُحبُّه زوجته سلمى بنت عوفٍ بن ربيعة، وصخر هو أخو الخنساء المشهورة فيه بالشّعر.

وكان عاهد سلمى ألا تتزوّج بعده، وهي كذلك عاهدته، وكان يقول إذا نظر إليها:

لا أكره الموت إلا لأنّه يُفرّقُ بيني وبين هذه!

فلما كان اليوم المشهور بيوم الكلاب، وهو الذي تحاربَ فيه بنو عوفٍ وبنو الحرث، فطعن ربيعةُ صخراً فأصابه في بطنه، فلزمَ الفراش طريحاً سَنةً.

وكانت أمّه تُلاطفه، وأمّا سلمى فظهر منها الجفاء!

وسمعَ صخرٌ امرأةً تسألُ أمّه عنه: كيف حال صخرٍ؟

فقالت: نحن بخيرٍ ما دمنا نرى وجهه!

وسألتِ المرأةُ زوجتَه عنه: كيف حال صخرٍ؟

فقالتْ سلمى: لا هو حيٌّ فيُرجى، ولا ميِّتٌ فيُنعى!

فاغتمَّ لذلكَ!

وجلس يوماً ليستريح من رُقادِه، وفتح الباب ليرى النّاس، فرأى سلمى واقفةً تُحدِّثُ رجلاً من بني عمِّها، وقد وضع يده على ظهرها، فسمعه يقول لها: أيُباعُ هذا الكفل؟ أي متى تتركينه؟

فقالت: عمَّا قريبٍ!

فقال صخرٌ لأمِّه: عليَّ بسيفي لأنظرَ هل هو صَدِئٌ أم لا!

فأتته به، فجرَّده، وهمَّ بقتل سلمى، فلمَّا دخلت رفع السَّيف فلم يستطع حمله، فبكى!

فلمَّا اشتدَّ حزنُه، وطال مرضُه، نشأتْ قطعةٌ موضع الطَّعنة، فقيل له: عليكَ بكيِّها أو ستقتلك!

فاكتوى، فماتَ، وتزوَّجتْ سلمى بعده!

وهذه القصَّة في درسها صورةٌ طبق الأصل عن التي قبلها، وما يمكن أن يُقال هنا قد قيل هناك، فقد تبدَّلَ القلبُ وتقلَّبَ بتقلُّب الحال، وإن كان هناك الذي تقلَّب هو الأحوال المادية، وهنا الأحوال الصحيَّة!

وكلنا نعرفُ قصصاً عن أزواج وزوجاتٍ مرضوا فبقيَ الزَّوج صابراً عليها وفياً لها، وبقيت هي معه صابرةً وفيَّةً له، وصبرُ النِّساء على الرِّجال أكثر من صبر الرِّجال على النساء، هذه حقيقة مُشاهدة، وواقع لا يمكن إنكاره، ولعلَّ مردّه أنَّ الشّرع قد جعل للرجل مخرجاً، فيبقيها معه ويرى غيرها، في حين أنَّ المرأة لا سبيل لها إلى هذا، ومخرج الشَّرع للرجال في هذه الحالة من أسباب إباحة الله تعالى للتعدد، فإنَّ اللهَ وفيٌ ويحبُ الوفاء، والرِّجال لا يصبرون دون زوجة، فلا تُصاب المرأة بالطلاق بعدما أُصيبت بالمرض، وهذا يكفل لها استشفاءً كريماً، فلا تُهان كرامتها!

والنّاس فيهم هذا وذاك، والتّفاوت منهم في حال تقلب الأحوال ظاهر، فإن رأيتَ الوفاء فاشكره، وإن لم تره فلا تتعجب!

ومن عجيب ما قرأتُ في هذا الباب، وهو مما لا نُصدّقه ولا نُكذّبه، وهذه هي الحال عن قصص بني إسرائيل التي لم يأتِ في شرعنا ما يُصدّقها أو يُكذّبها، ما رواه الأنطاكيُ في تزيين الأسواق، أنه كان في بني إسرائيل رجل اسمه عبُود، أحبّ ابنة عمّه حتى كان لا يصبرُ عنها، فتزوّجها، وأقاما معاً مدّةً على أهنأ حال، فماتت، فاشتدّ وجده، وطار عقله!

فمضى إلى المسيح عليه السّلام وسأله أن يُحييها له!

فقال: لا يتيسّرُ إلا أن تهبها من عمرك شيئاً!

فقال: قد وهبتُها نصف عمري!

فأحياها له، ومضيا، وقد لحقَ عبُود تعب شديدٌ فجلسا يستريحان، فوضع رأسه على ركبتها ونام، ومرَّ ملك البلد فرآها فعلقت بقلبه، وهي أيضاً!

فعرضَ عليها أن تكون معه، فأجابته، فحملها معه، وعبود نائمٌ لا يشعر!

فأفاق بعد ذلك فلم يجد أحداً، فوقف مرعوباً، فوجد قوماً من المارّة يصِفُون حُسنها وجمالها، فعرفَ أنها امرأته، فسألهم عنها، فأخبروه أنّها مع الملك!

فلحقها، وجعل يُذكرها بما صنعَ وهي ساكتة!

فقال لها: قد كنتِ متّ، وسألتُ المسيح أن يُحييك بأمرِ ربّه، ووهبتُكِ نصفَ عمري على أن تكوني معي، وحيث أنكِ لم ترضي فردّي عليّ ما وهبتُكِ!

فقالت: قد رددته!

فما خرجت الكلمةُ منها حتى ماتت!

الوفيُ وفيٌ ولو قطعتَ لحمه، والغدّار غدّار ولو أسقيته العسل المُصفّى، وإنّ الظروف لا تُغيّر الناس ولكنها تكشفهم على حقيقتهم! ولكن الحقيقة التي علينا أن

نعترف بها هي أنّ الحبّ في النّاسِ ليس سواءً، ولا كلُّهم يحبّون بالطّريقة ذاتها، إنّ الأمر أشبه ما يكون بالإيمان، بعض الإيمان تهزُّه النّسمة، وبعض الإيمان لا تحرّكه أعتى العواصف!

وفي كتاب اعتلال القلوب للخرائطي: كان بالمدينة جاريةٌ ظريفةٌ، حاذقةٌ بالغناء، فهويث رجلاً من قريشٍ، وكانت لا تُفارقه ولا يفارقها، فملّ منها، وهي تزيدُ في حبّه!

فبليث، وسقمث، وجعل لا يعبأ بشكواها، ولا يرقُّ لها حتى سَعَث على وجهها، وهامث، ومزّقث ثيابها، ووثبث بالضّربِ على جلسائها حتى أفضث إلى أمرٍ عظيم!

فلما رأى ما قد صارث إليه عالجها دون أن يُقرّبها، فكانث تدور في السّكك بالليل، وتبدّلَ حسنها رثاثةً، فلقيها يوماً في الطّريق مع أصحابٍ له، فجعلث تبكي وتقول:

الحبُّ أوّله يكون لجاجةً

تأتي به وتسوقه الأقدارُ

حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهوى

جاءث أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ

من ذا يُطيقُ كما أطيقُ من الهوى

غلبَ العزاءُ وباحتِ الأسرارُ

وكلُّ مَدَار القصّة على كلمةٍ واحدةٍ: مَلَّ منها!

وهذا أخطر ما يَضرِبُ العلاقات، ويصيبُ النّاس، والشّواهد له من الحياة كثيرة، ولقد قرأتُ وسمعتُ وشاهدتُ قصصاً كثيرة من هذا النّوع، صارَ الحبُّ الجارفُ كالماء الرّاكد، آسِنٌ لا يُنتفعُ به بعد أن كان غاية المُنى، وأشدّ الرّجاء، فتعوّذُوا بالله من الملل!

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: إنّ المِلال من سيّء الأخلاق!

القانون 32: بعضُهم سيبقُون ينقصُونَك إلى الأبد!

هناك نِعَمٌ كُتِبتْ لك، وستنالها رغماً عن الدُّنيا كلّها، وهناك حِرمانٌ كُتب عليك، لن تُعوَّضه ولو كان معك الإنسُ والجنُّ قبيلاً!

هذا هو أبلغ درسٍ في حياتك فاحفظه جيّداً.

عظِّم النِّعم التي بين يديك، تراها كافية وتفيض! واستصغِر الحِرمان، تجد الحياة تمضي بدونه، وما دون ذلك همٌّ أنزلته على نفسك!

ولكن هذا لا يعني أبداً أنك ستنسى، بعضُهم سيبقُون ينقصُونك إلى الأبد!

هناك نِعَمٌ كُتِبتْ لكَ، وستنالها رغماً عن الدُّنيا كلّها، وهناك حِرمانٌ كُتب عليكَ، لن تُعوِّضه ولو كان معكَ الإنسُ والجنُّ قبيلاً!

هذا هو أبلغ درسٍ في حياتك فاحفظه جيِّداً.

عظِّم النِّعم التي بين يديك، تراها كافية وتفيض! واستصغِر الحِرمان، تجد الحياة تمضي بدونه، وما دون ذلك همٌّ أنزلته على نفسك!

ولكن هذا لا يعني أبداً أنك ستنسى، بعضُهم سيبقُون ينقصُونكَ إلى الأبد!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ:

كانت لفاطمة ابنة عبد الملك بن مروان زوجةُ عمر بن عبد العزيز جاريةٌ ذات جمالٍ فائقٍ، وكان عمرُ معجباً بها قبل أن تصير الخلافة إليه! فطلبها من فاطمة فأبتْ أن تهبها له، وغارتْ من ذلك!

فلم تزلْ في نفس عمر بن عبد العزيز، فلمَّا صار خليفةً أمرتْ فاطمةُ بالجارية فزُيِّنتْ، ثم دخلتْ عليه فقالتْ له: يا أمير المؤمنين، إنَّك كنت بفلانة جاريتي معجباً، وسألتنيها، فأبيتُ ذلك عليك، وإنَّ نفسي قد طابتْ لك بها اليوم!

فلمَّا قالت ذلك، استبان الفرحُ في وجهه، ثم قال: ابعثي بها إليَّ، ففعلتْ!

فلمَّا دخلتْ عليه ازداد إعجاباً بها، فلمَّا اقتربتْ منه، قال لها: على رِسلكِ، اجلسي، وأخبريني لمن كنتِ؟ ومن أين أنتِ لفاطمة؟

فقالتْ: كان الحجَّاجُ بن يوسف أغرمَ عاملاً من أهل الكوفة مالاً، وكنتُ في رقيقِ ذلكَ العامل، فاستصفاني مع رقيقٍ له وأموال، فبعثَ بي إلى عبد الملكِ بن مروان وأنا يومئذٍ صبيّة، فوهبني عبدُ الملكِ لابنته فاطمة!

فقال: وما فعلَ العامل؟

قالتْ: مات!

فقال: وما تركَ ولداً؟

قالت: بلى.

قال: وما حالهم؟

قالت: سيِّئة!

فقال لها: شُدِّي عليكِ ثيابكِ!

ثم كتبَ إلى عبد الحميد عامله على الكوفة أن يرسل إليه ابن الرّجل صاحبِ الجارية الأوّل، فلما جاءه دفع الجارية إليه، وقال له: قد أعدنا لكَ ميراثَ أبيك!

فقال الشَّابُ: هي لكَ يا أمير المؤمنين!

فقال عمر: لا حاجةَ لي فيها!

فقال الشَّابُ: فابتغهَا مني!

فقال عمر: لستُ إذاً ممن ينهى النّفس عن الهوى!

فقالت له الجارية: فأينَ موجدتكَ بي يا أمير المؤمنين؟

فقال: إنَّها لعلى حالها، ولقد ازدادت، ولكنَّا لا نأخذُ ما ليس لنا!

فأخذها الشَّابُ ومضى بها، وبقيت في نفسِ عمر حتى مات!

عمر بن عبد العزيز في الخلافة ليس عمر قبلها، لقد انقلبت حياته رأساً على عقب، فكان الخليفة الرّاشد الخامس عن جدارةٍ واقتدارٍ، وكان أقرب ما يكون في سيرته إلى جدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كيف لا وهو وعدُ النّبيّ ﷺ أنّه سيملأ الأرضَ عدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً!

وقد بدأ بإقامة العدل بنفسه، ثمَّ بأهل بيته، فقد ردَّ كلَّ مال زوجته وأقاربه إلى بيت مال المسلمين!

وما منعه عن الجارية وقد ملكت قلبَه إلا أنّها لا تحلُّ له، وما امتنع أن يُسوِّي الأمر بعد أن أحضر الشَّابّ إلا لأنّه كان يأخذ بالورع، وله في الورع حكاياتٌ وقصصٌ هي

أقرب إلى الخيال فرحمه الله ورضي عنه وجزاه خير الجزاء على ما أصلح في أمّةِ محمّد ﷺ.

وفي كتاب ذمّ الهوى لابنِ الجوزيّ، عن أبي الجحاف قال: كنتُ فِي مكّة، وقد مضى أكثرُ الليل وخفَّ الحجيج، فإذا امرأةٌ كأنّها الشّمسُ تقول:

رأيتُ الهوى حُلواً إذا اجتمعَ الوصلُ

ومُرًّا على الهجران لا بل هو القتلُ

ومن لم يذقْ للبينِ طعماً فإنّه إذا ذاقَ

طعم الحُبِّ لم يدرِ ما الوصلُ

وقد ذُقتُ طَعْميه على القُربِ والنّوى

فأبعده قتلٌ وآخره خبلُ

ثم التفتتْ فرأتني، فقالت: يا هذا، من ضعُفتْ قوّته على حمل شيءٍ ألقاه للرّاحة، وفراراً من ثقل المحبّة، وقد نطقتْ بما علِمَه اللهُ وأحصاه الملكان، فإن يعفُ عن أهل السّرائر أكن معهم، وإن يعاقبوا فيا خيبة المذنبين!

وبكتْ بكاءً شديداً، فما رأيتُ عِقْدَ دُرٍّ انقطعَ حبلُه فانتشرَ كان أحسن من تبادر دموعها والجفون غَرِقَةٌ والمَحاجرُ مُترعةٌ! فاعتزلتُ واللهِ خوفاً أن يصبو إليها قلبي، وإن كان بمثلها الحُسنُ والتّصابي!

هذه امرأةٌ غايةٌ في الحُسن، آيةٌ في الجمالِ، تأخذ بالقلوب، وتسبي الألبابَ، ولو أرادت الرّجال لتجمهروا يطلبونها، وكانوا رهنَ إشارتها، وطوع أمرها، ولكن سبحان من إذا ألقى حُبَّ إنسانٍ في القلبِ لم ترَ العينُ غيره، فها هي تشكو فقدَها في مكّة في موسم الحجّ، لم تُطفئ نار الفراق رهبةَ الموسم، ولا أشعرتها بالأنسِ مجاورةُ البيتِ، وسبحان من خلقنا هكذا بشراً من لحمِ ودمٍ، يُعزينا الإيمان، ويُصبّرنا، ولكن للقلب شأنٌ آخر!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشّاق: قال جبلةُ بن الأسود: خرجتُ في

طلب ناقةٍ ضالَّةٍ لي، فوقعتُ على راعٍ عنده غنمٌ يرعاها، وقد اتَّخذَ بيتاً في كهفٍ هناك، فسألته الضِّيافة فرحَّبَ بي وأنزلني، ثم جاء بشاةٍ فذبحها، وجعل يشوي ويُقدِّمُ لي، ويحادثني حتى اكتفيتُ.

فلما جنَّ الليلُ إذا بفتاةٍ كأحسن ما يكون من النِّساء قد أقبلتْ عليه، فجلسا يتحادثان حتى طلع الفجر!

وسألتُهُ الذَّهاب، فأبى، وقال: الضِّيافة ثلاثة أيامٍ!

فلمَّا جاء الليلُ رأيته يقومُ ويقعدُ ضَجراً، ثم أنشدَ:

ما بالُ ميَّةَ لا تأتي كعادتها
أعَاجَها طربٌ أم صدَّها شُغلُ
لكنَّ قلبي عنكم ليس يشغلُه
حتى الممات وما لي غيركم أملُ
لو تعلمينَ الذي بي من فراقكم
لما اعتذرتِ وما طابتْ لكِ العِلَلُ
نفسِي فداؤكِ قد أحللتِ بي سقماً
تكادُ من حرّةِ الأعضاء تنفصِلُ
لو أنَّ غاديةً منه على جبلٍ
لما دوا نهدَ من أركانه الجبلُ

فسألته عن شأنه فقال: هذه ابنة عمِّي وأنا أحبُّها، فخطبتها من عمِّي فأبى أن يزوِّجني لفقري، وزوَّجها إلى رجلٍ قد حملها إلى هذا الحيّ، فجئتُ إليهم، وعملتُ راعياً لهم، تأتيني على غفلةٍ من زوجها، فأنظرُ إليها ونتحادثُ وليس غيره، والآن قد قلقتُ لفوات ميعادها، وفي الطَّريق أسدٌ، وأخاف أن يكون قد أصابها، فانتظرني

حتى أعود!

وأخذ السّيف ومضى قليلاً، ثم عاد يحملها وقد قتلها الأسد، فوضعها أرضاً، ثم ذهبَ مرّةً أخرى، ورجعَ يجرُّ الأسد مقتولاً، فألقاه، ثم انكبّ عليها يُقبّلها ويبكي، ثم قال: أسألك بالله إلا دفنتني وإيّاها في هذا الثّوب، وكتبتَ على القبر هذا الشّعر وانشدني، فإنّي لا بقاءَ لي بعدها، ثم عاد وانكبّ عليها يُقبّلها، ثم هدأ، فحرّكته فإذا هو ميت!

فدفنته معها في الثّوب الذي أشار إليه، وكتبتُ على القبر الشّعر الذي أوصى به، وهو:

كنّا على ظهرها والدّهرُ في مهلٍ

والعيشُ يجمعُنا والدّارُ والوطنُ

ففرّقَ الدّهرُ بالتّصريفِ إلفتنا

فاليوم يجمعنا في بطنها الكفنُ!

فإن لم يكن الحبُّ هكذا فكيف يكون؟!

كان فقيراً، ورفض عمُّه تزويجه ابنته بسبب فقره، وزوَّجها إلى غيره، فاختار أن يعملَ راعياً في القبيلة التي حُملت إليها حبيبته! والعربُ تأنفُ هذا وتميلُ إلى أن يكون المرءُ صاحب رزقه ما لم يضطرَّ إلى غير ذلك، ولكنّه خالف طبعه، ورضي بهذه المهنة فقط ليكون قريباً منها، فقد علم أنّه لا طعم للحياة بدونها، وأنّه لو لم يلحق بها ستبقى تنقصه إلى الأبد!

لقد رضي منها بالنّظر والحديثِ ولا غيرهما، يُسكّنُ بهما شوقه، ويداوي جرح قلبه، فلما افترسها الأسد لم يرضَ أن يترك ثأرها ولو كان عند أشدّ الحيوانات فتكاً، فبحث عنه وقتله!

ثم نظر حوله، فلم يجد للحياة بعدها غاية، وعلم أنّه ميّتٌ من ساعته، بعض الناس لن تفهم ما في قلوبهم إلا إذا دخلتها!

وحين بخِلتْ عليهما الحياة أن يكونا معاً، جمعهما الموتُ في ثوبٍ واحدٍ!

القانون 33: احفظْ قلبَك، ولا تُهِنْ كرامتكَ!

لا شيءَ أجملَ من الحُبِّ ولكنّه لا يأتي بالقُوة! ومصطلح الكرامة ليس ميدانه ما بين المحبّين، فإنما هو مبادرةٌ وتغاضٍ، وصفحٌ وتسامحٌ، وعلى المرءِ أن يحتملَ شوكةً عابرة إذا أراد أن يستمتع بالورد، وقاطف العسل لا بُدَّ أن تصيبه وخزة! ولكن أحياناً تتعلّقُ القضيّة بالكرامة فعلاً، وإن الذين يتنازلون عن كراماتهم لا يستحقّون أن يكونوا عُشّاقاً!

لا شيءَ أجملَ من الحُبّ ولكنّه لا يأتي بالقُوة! ومصطلح الكرامة ليس ميدانه ما بين المحبّين، فإنما هو مبادرةٌ وتغاضٍ، وصفحٌ وتسامحٌ، وعلى المرءِ أن يحتملَ شوكةً عابرة إذا أراد أن يستمتع بالورد، وقاطف العسل لا بُدّ أن تصيبه وخزة! ولكن أحياناً تتعلّقُ القضيّة بالكرامة فعلاً، وإن الذين يتنازلون عن كراماتهم لا يستحقّون أن يكونوا عُشّاقاً!

الكرامة يجب أن لا تُضخّم بينك وبين حبيبك ما دمت تريده ويريدك، وهذا لا يعني ألا ننتبه إلى تصرّفاتنا وكلامنا، لأنّ حفظ الكرامةِ من حفظ القلب، ولكن الحياة ليست ورداً على الدّوام، ولا ارتشافاً للعسلِ كلّ الوقت!

ولكن ما دام لا يُريدك فإنّ هذا هو ميدان الكرامة، ومكانها الأكثر أهميّة!

في كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشّاقِ لداود الأنطاكي:

قال الرياشيُّ: عملَ بالتّجارة صديقٌ لنا، فحمل بضاعته إلى مدينة شهرزور في بلاد فارس بعد أن بلغه أنّ البضاعة هناك رابحة! فلمّا وصل إليها صادفَ كساداً، فمكث مغموماً، فبينما هو كذلك إذ مرّت عليه عجوزٌ فسلّمت عليه وسألته عن حاله، فشكا إليها ما يجدُ من الغربةِ والوحدة وكساد بضاعته!

فقالت له: أما الكسادُ فسيزول ولم تزل أحوال التّجارة على هذا، وأما وحدتك وغربتك فلا أرى دواءً إلا أن تتزوّج بمن تحفظك إذا غبتَ، وتؤنسك إذا حضرتَ، وتُفرّجُ عنكَ إذا حزنتَ!

فقال: ومن أين لي بمن ذكرتِ؟

فقالت: أنا الضّامنة لكَ ما تطلب ابتغاءَ لوجه الله!

فشكر لها صنيعها، وأمرها أن تفعل، فما مضت عنه إلا وجاء ناسٌ فاشتروا بضاعته على أحسن ما يرجو من السّعر، فتوسّمَ بهذا الخير.

وعادت العجوز فقالت له: قد هيّأت لك ما تطلب فقُمْ لتراها!

فمضى معها إلى بيتٍ جميل، فجلسَ، وجاءت امرأةٌ تسرُّ القلبَ، وتملأُ العين، إلا

أنّ عليها آثار الحزن! فجلست بحشمةٍ، واتّفقا على الزّواج، وقضى معها أسبوعاً في أحسن حالٍ، غير أنّها كانت تقومُ في الصّباح فتجلس في موضعٍ يُشرفُ على الأشجار، وتبكي حتى ترتفع الشّمس! فلما كان يومٌ وقد أخذها النّوم حتى طلعتِ الشّمس، انتبهتْ مرعوبةً، ثم ذهبتْ إلى حيث كانت تذهبُ كلّ صباحٍ، وعادتْ تبكي وتُنشدُ:

أيا عينُ نوحِي بالدُّموعِ السّواجمِ

على طامسٍ بالشّرقِ خافي المعالِمِ

وسِحّي دماً إن سحّ دمعكِ واسعفي

حليفَ الهوى من قبل حملِ التمائمِ

إذا ناحتِ الورقا على فقدانها

ولم تكُ ذا عقلٍ فما حالُ عالمِ

حرامٌ عليّ النّومَ إذا فاتتني به

زمانُ البُكا والنّوحُ قبلَ الحمائمِ!

فضاقَ صدره لحالها، وهمّ أن يسألها عمّ بها، ولكنه اختار أن يصبر، وهي كلّ يومٍ على هذه الحالة. ثمّ لمّا نفدَ صبره قال لها: يا سيدتي، قد ضاقَ صدري لحالك، وأنا أعزمُ عليكِ إلا ما أخبرتني بما أنتِ فيه!

فقالت له: قد كان أبي ذا ثروةٍ وعِزّة، وكان لي ابن عمّ قد كَفِله أبي صغيراً، فنشأتُ وإيّاه ليس عند أحدنا أعزّ من الآخر فزوّجني منه، فأقمنا لا نستطيعُ صبراً!

وكان في هذا البستان زوج حمامٍ يبيتُ فيه، ويصبحُ ويغرّدُ بأنواع التّغريد، فإذا اختفتْ واحدةٌ في شجرةٍ بحثتْ عنها الأخرى حتى تكاد تموت، فإذا التقيا تعانقا وغرّدا! فلما كان يوم مرّ بهما سرب حمامٍ فطارتْ إحداهما إليه، ومضتْ ولم ترجع، فأقامتْ الأخرى تُغرّد كل صباحٍ حتى ترتفع الشّمس، ثم تُلقي نفسها كالميتة حتى ذهبتْ نضارتها وذوى ريشها!

فقلتُ له يوماً: لئن فارقتني لأكوننَّ كهذه!

فقال: أنا لا أفارقكِ أو أموت!

فقلتُ: قد تجد أحسن منِّي!

فقال: معاذ اللهِ أن يكون في الدُّنيا أحسن منكِ!

فأردتُ أن أعرف صدقه، وكانت لي صديقةٌ قد احتوت على أرفع رتبةٍ من الجمال، فأحضرتها وأريته إيَّاها من وراء الخباء، فوقعتْ في قلبه، فراسلها وأجابته، فتزوَّج بها، ولم يتَّفقا، فرجع يطلبُ منِّي ما كنتُ عليه، فأبت نفسي أن تطيع كما كانت فقامَ وخرجَ عنِّي، وأنا إلى اليوم لا أعرفُ له خبراً!

وإنما أخذتُكَ لأنَّك غريب، فإن رضيتَ هذا الحال وإلا فشأنك!

فقال لها: فلأي شيءٍ هجركِ النوم؟

فقالت: كفَّارةٌ لنومي عن نوحِ الحمامة وسبقها لي!

هذا هو ميدان الكرامة الذي حدَّثتك عنه آنفاً، إنَّ الفكرة ليست في التَّجاوز عن الخطأ أم لا، وإنَّما في نوع الخطأ! ثمَّة أخطاءٌ تكسِرُ الأمان، وإذا ما غاب الأمان عن الحُبِّ فلا يبقى فيه شيء!

شعور المرءِ أنه قد تُرِكَ شعورٌ مريرٌ لا تجبره كل اعتذارات الدُّنيا!

وشعور المرءِ أنه لم يكن كافياً يقتله من الدَّاخل، يقتله حقيقةً لا مجازاً، الكثير من الناس جنازاتٌ تمشي على قدمين!

لم تهُنْ عليها كرامتها أن يعود إليها وقد تركها إلى غيرها، لقد طعنها في أعمق نقطةٍ في روحها، وكسر ساحة الأمان التي بينهما ولوَّثها، وإنَّ المرءَ في هذه الحالة تأنفُ نفسه وإن كان قلبه يشتهي!

وهي أيضاً أخطأتْ حين وضعته في الامتحان!

مفهوم جداً أن المرءَ يريدُ أن يطمئنَ إلى مكانه في قلبِ حبيبه، ولكن العاقل لا يوقدُ ناراً قد لا يمكنه السّيطرة عليها، بل وقد يحترقُ بها!

كلُّ قيود الدُّنيا لا يمكنها أن تحبس شخصاً يريدُ الرَّحيل، ولكن ليس من الحكمة أبداً أن نضع أقدام أحبّتنا على طريق الرَّحيل، ثم نجلس ننظر إن كانوا سيمشون فيها أم لا! المحاوطة دفاعٌ محمود، ومن أراد شيئاً عليه أن يحرسه!

Telegram:@mbooks90

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ، أنّ رجلاً من تميمٍ كانت له ابنة أخٍ جميلة، وكان غيوراً فابتنى لها في دارِه صومعةً، وجعلها فيها، وزوّجها من ابنِ عمٍّ لها.

وأنَّ فتىً من كنانة مرَّ بالصّومعة، فنظرَ إليها ونظرت إليه، فأعجبته وأعجبها، ولم يكن يمكنه الوصول إليها، فافتعلَ بيتاً من الشّعر، ودعا غلاماً من الحيِّ فعلّمه البيتَ، وقال له: أدخُلْ هذه الدّار، وأنشِدْ كأنكَ تلهو، ولا ترفع رأسكَ ولا تصوِّبه، ولا تُومئ في ذلك إلى أحدٍ، ففعلَ الغلام ما أمره به! وكان زوج المرأة قد عزمَ على السّفر بعد يومٍ أو يومين.

فأنشدَ الغلام ما حفّظه إيّاه الرّجل، فقال:

ومن يمنحُ النّفس اللجوجَ هواها

لحا اللهُ من يلحى على الحُبِّ أهله

فسمعت المرأةُ، وفهمتْ مقصده، فقالتْ:

ألا إنّما التّفرقة ليلةٌ

ويومٌ فتُعطى كلُّ نفسٍ مُناهَا

فسمعت أمُّ المرأة، ففهمتْ، وقالتْ:

ألا إنّما يعنُونَ ناقةَ رَحلِكم

فمن كان ذا نوقٍ لديهِ رعاهَا

فسمعَ عمُّها، ففهمَ، وقال:

إنَّا سنرعَاهَا ونوثِّقُ قيدَها

ونطردُ عنها كلَّ وحشٍ أتاها

فسمعَ الزّوجُ، ففهمَ، وقال:

سمعتُ الذي قلتُمْ فها أنا مُطلِّقٌ

فـــتاتكم مــهجـــــورةٌ لبــــــلاهَا!

وهذا من ميادين الكرامة أيضاً، ومن الأخطاء التي لا تُغتفرُ، وإنّها حالة إن بقيتَ فيها فستبقى ذليلاً، وإن فارقتَ فيها فستكون عزيزاً، وإنّ العزّة لا يعدلها في الدُّنيا شيءٌ، وكلُّ شيءٍ فيه الذّلة مُرًّا!

فإن علمتَ أنّ الماء مستباحٌ فلا تشربْ منه، وحسبُك جمالاً ونُصحاً، قول الشّافعي، أفقه الشُّعراء، وأشعر الفقهاء:

إذا وقع الذُّبابُ على طعامٍ

رفعتُ يدي ونفسِي تشتهيه

وتأبى الأسودُ ورودَ ماءٍ

إذا كان الكلابُ ولغنَ فيه!

سأتركُ حبَّكُم من غير بُغضٍ

وذاك لكثرةِ الشُّركاءِ فيه!

القانون 34: لا تضطَدْ في المَاءِ العَكِر!

وما سُمِّيَ الأسد ملكاً للغابة إلا لأنّه لا يقعُ على فريسة غيره، وتستحقرُ العربُ الضِّباع، لأنّها لا تَغيرُ إلا على اللحمِ الذي ليس لها!

أحقرُ الرِّجال من نظرَ إلى بيتٍ قائمٍ فحاول هدّ أركانه، فدخلَ بين المرأة وزوجها فأفسدها عليه يُريدها لنفسه، فلبسَ ثيابَ الحمل على جسدِ ذئبٍ، وجاء يرعى حول الحمى!

وأحقرُ النّساء من نظرتْ إلى بيتٍ فيه زوجٌ وزوجته، حياتهما تسير، وأيّامهما على خيرٍ، فأعجبها من الزَّوج هذا، فأرادته لنفسها، فمثّلتْ دور الطّبيبة المداوية، والمُستمعة الأمينة، والصّديقة الحنون! وتبقى تُجرجره شيئاً فشيئاً حتى يقع الفأس في الرّأس!

أحقرُ الرِّجال من نظرَ إلى بيتٍ قائمٍ فحاول هدَّ أركانه، فدخلَ بين المرأة وزوجها فأفسدها عليه يُريدها لنفسه، فلبسَ ثيابَ الحمل على جسدِ ذئبٍ، وجاء يرعى حول الحمى! والنّاس تشغلهم الدُّنيا أحياناً فلا يعود اهتمامهم مع مشاغلها كاهتمامِ أوَّلِ الأمر فيصيبُ العلاقة بعض الفتور، فيأتي هو في هيئةِ المنقذِ، رغم أنك تجده فاشلاً في زواجه، وما سُمِّيَ الأسد ملكاً للغابة إلا لأنَّه لا يقعُ على فريسة غيره، وتستحقرُ العربُ الضِّباع، لأنَّها لا تَغيرُ إلا على اللحمِ الذي ليس لها!

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: من خبَّبَ امرأةً على زوجها فليس منّا!

وأحقرُ النِّساء من نظرت إلى بيتٍ فيه زوجٌ وزوجته، حياتهما تسير، وأيّامهما على خيرٍ، فأعجبها من الزَّوج هذا، فأرادته لنفسها، فمثلَّت دور الطَّبيبة المداوية، والمُستمعة الأمينة، والصّديقة الحنون! وتبقى تُجرجره شيئاً فشيئاً حتى يقع الفأس في الرَّأس. لا وبل قد تكون متزوجة، وتُمنِّيه بفراق زوجها إن فارقَ، وبعضهُنَّ يُفارقنَ فعلاً، وبعضهُنَّ يبحثنَ عن عشيقٍ يُحرِّكُ ماء حياتهنَّ الرَّاكد، فإذا ما وصلت العلاقة إلى ارتباطٍ، غادرنَ، مُتاحَاتٍ هنا وهناك، يطعنَّ واحداً في عرضه وواحداً في قلبه، لا لذاك وفث، ولا لهذا أخلصث، وعندما تعجنك الحياة عجناً، وتقرأ، وتسمعُ، وتُشاهد، ستعرف أن بعضهُنَّ قلوبهن بين أرجلهنَّ!

ولمَّا كان تخريبُ البيوتِ إثماً عظيماً، كان إصلاحها أجراً عظيماً، والنّاس في هذا وذاك لهم باعٌ طويلٌ!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيِّ: كانت ضباعةُ بنت الحرث زوجةً لعبد الله بن جدعان وكان كلُّ هذا في الجاهليّة!

فمكثت عنده زماناً لا تلدُ له، فقال لها هشام بن المغيرة المخزوميّ يوماً في الطواف: ما تصنعين بهذا الشّيخ الذي لا يولدُ له؟ قولي له فليُطلقكِ!

فقالت ذلك لعبد الله بن جدعان، وبلغَ الشّيخ مقالة هشام لها، فقال لها: إنّي أخاف إن طلَّقتكِ أن تتزوَّجي بهشام بن المغيرة!

فقالت: فإنَّ ذلك عهد عليَّ ألا أفعل!

فقال لها: فإن فعلتِ فإنّ عليكِ مئةً من الإبل تنحرينها، وتنسجين لي ثوباً يقطعُ ما بين الأخشبين/جبلي مكّة، وتطوفين بالبيت عُريانة!

فقالتْ: لا أطيقُ ذلك!

وأرسلتْ إلى هشامٍ وأخبرته بالخبر، فأرسل إليها يقول: ما أيسر ما سألكِ! أنا أكثر قريشٍ مالاً، ونسائي أكثر نساءٍ بمكّة، وأنتِ أجمل الناس فلا تُعابين في عُريكِ! فلا تأبي ذلك عليه!

فقالتْ لابن جدعان: طلّقني، فإن تزوّجتُ هشام بن المغيرة فعلى ما اشترطتَ عليّ!

فطلقها، فتزوّجها هشام، ونحرَ عنها مئةَ ناقة، وأمرَ نساءه فنَسَجنَ لها ثوباً يملأُ ما بين الأخشبين، ثم طافتْ بالبيت عُريانة!

بيتٌ قائمٌ على أركانه، والحياة تسيرُ، والزّوجة راضيةٌ بقسمتها، وما أحدٌ من النّاس إلا وينقصه شيء، وهذه الدّنيا لا تكتملُ لأحدٍ، حتى جاء هشامٌ وأفسدَ المرأة على زوجها، وأراها من الأمر ما لم تكنْ ترى، أو ما كانت تحدّث نفسها به، ولكنّها لا تفعله، فلمّا سعى في طلاقها تزوّجها!

خاربو البيوت كُثرٌ، وربما كلمة من واحد منهم لا تعود الحياة بعدها كما كانتْ، ولستُ أصوّرُ النّاسَ أطفالاً، كلمة تأخذهم وكلمة تُعيدهم، وإنّما القصدُ أنّ النّاس يتعايشون مع ما ينقصهم، ويتحاملون على جراحهم، ويكملون حياتهم، وفي الغالب إذا جاء من يرشُّ الملح على جروحهم بدث لهم فادحةً ولا يمكن التعايش معها، فاتقوا الله ولا تصطادوا في الماء العكر!

وما يُقال للصّائدين من الرّجال، يُقال للصّائدات من النساءَ كذلك، فاتقينَ اللهَ في أنفسكنّ وفي النّاس، وحتى وإن أحببتنّ فعلاً، فإنّ على المرءِ أن يكون نبيلاً إلى الحدّ الذي لا يبني فيه سعادته على تعاسة النّاس، ولا يقيم عرسه على مآتمهم!

ولأنّ النّاس يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً لا يمكن تخيله، نجد دوماً على الطّرف الآخر من الرّذيلة فضيلةً رائعة! دوماً ما نقرأ عن موقف بُخلٍ لا يكاد يُصدّق، ولكنّه وقعَ، ثمّ ما نلبث أن نقرأ عن موقف كرمٍ لا يكاد يُصدّق، ولكنّه وقعَ!

وهكذا كل الأمور في الحياة، الجُبن الملفت تُقابله شجاعةٌ ملفتةٌ، هذه الدُّنيا لا تخلو من هذا وذاك، والخيرُ في النَّاسِ باقٍ!

وإن كان البعض يصطادون في الماء العكر، فإنَّ من النّاس من لا يرضى أن يرى ماءً عكراً إلا وحاول أن يُصفِّيه، وما وجد فرقةً بين حبيبين إلا أزال وحشتها، ولا بُعداً إلا وحاول أن يُقرِّبه!

يقولُ إبراهيم بن ميمون: هممتُ بالحجِّ وخرجتُ أريدُ البيت الحرام، فرأيتُ في الطَّريق امرأةً واقفةً كأنَّها أضاعت شيئاً، فأنكرتُ حالها، ووقفتُ أنظرُ إليها، فأنشدتْ تقول:

أعمرُو علامَ تجنبتني؟

أخذتَ فؤادي فعذّبتني

فلو كنتَ يا عمرُو خبَّرتني

أخذتُ حِذاري فما نلتني!

فدنوتُ منها، وقلتُ لها: من عمرو هذا يرحمكِ الله؟

فارتاعتْ من قولي، وقالتْ: زوجي!

فقلتُ: وما شأنه؟

فقالت: أخبرني أنَّه يهواني، وما زال يدسُّ إليَّ، ويعلقُ بي في كل طريقٍ، ويشكو شدَّة حبِّه حتى تزوَّجني، فلبثَ معي قليلاً، وكان له عندي من الحُبِّ مثل الذي كان لي عنده، ثم مضى إلى جدَّة، أقرب مدينة إلى مكة، وتركني!

قلتُ: صفيه لي!

فقالتْ: أحسن من تراه، وهو أسمرُ حلوٌ ظريف.

فقلتُ: أتحبين أن أجمع بينكما؟

فقالت: فكيف لي بذلك؟

فركبتُ راحلتي ومضيتُ إلى جدّة، وأتيتُ المرفأ أنظرُ من يعملُ في السُّفن،

وأنادي: يا عمرو، يا عمرو!

فخرجَ رجلٌ من سفينة، فعرفته بالصّفة التي وصفتها زوجته لي!

فقلتُ: أعمرو علامَ تجتنبني؟

فقال: هي، هي والله، فهل رأيتها أو سمعتَ منها؟

فقلتُ له: نعم، ألا ترجع إليها؟

فقال: بأبي أنتَ، ومن لي بذلك؟ ذلك أحبُّ الأشياء إليّ ولكن منع منه طلب المعاش!

فقلتُ: كم يكفيكَ كلَّ سنة؟

فقال: ثلاثمئة درهم.

فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلتُ: هذه لعشرِ سنين، وارجعْ إليها ولا تفارقها!

فعدتُ إلى بيتي ولم أحج، وكان ذلك أحبّ إليّ من حجّي!

ولكَ أن تُقارن النُّبل الذي هنا، بالخِسَّة التي هناك!

هذا رجلٌ كان قد عزمَ على الحجِّ، فرأى المرأة وهو في طريقه إلى مكّة، فعرفَ أنها حزينة مكلومة، فاقدة زوجها الذي تركها لأنّ المعاش قد ضاق به في بلده، وذهب إلى جدّة ليعمل ويحصّل رزقه، فذهبَ إلى جدّة وبحثَ عنه حتى وجده، وأعطاه المال الذي معه، ولم يحج، لقد رأى أنّ الجمع بين قلبين أقرب إلى الله من حجّه في عامه ذاك!

بينما الآخر نظر إلى بيتٍ قائمٍ فهدمَه، وزواجٍ يسير فأوقفه، ثمّ استأثر بالمرأة بعد أن أغراها بالطّلاق من زوجها!

الأول استخدمَ ما لديه من مالٍ ليُفرِّق بين زوجين، والثَّاني أنفقَ مال الحجِّ ليجمع بين زوجين!

فإن لم تجمع فلا تُفرِّق، وإن لم تُصلِح فلا تُفسِد، وإن لم يرَ النَّاس منك خيراً فلا تجعلهم يرون منك شرًّا!

القانون 35: لا تُحوِّلِ الأعرَاسَ إلى مآتِم!

مفهومٌ جدًّا غيرة الأهل على أعراض بناتهم، وهذا من النُّبل ومعالي الأخلاق، فإنّه لا يدخل الجنّة ديوث!

ولكننا بشرٌ من لحمٍ ودم، ولنا قلوبٌ تنبضُ، وفينا مشاعر وأحاسيس، ويحدث أن تُحِبَّ البنتُ كما يُحِبُّ الولد، وقمّة الحكمة إذا وقع هذا وجاء الشّابُّ خاطباً من أحبّها وأحبّته أن يُزوَّج على الفور، فهذا ليس من مواضع يباسةِ الرّأس، وتصلُّب الرّأي!

البنتُ نهاية المطافِ ستتزوّجُ سواء من أحبّته أم من لا تحبُّه، فلِمَ نكسِرُ قلبها ما دمنا قادرين على جبره بالحلال؟!

وبأيِّ منطقٍ ننتقمُ من أعراضنا ولحومنا ودمائنا؟!

بل إنَّ تزويج البنت بمن أحبَّت من هدي النُّبوة!

العربُ أمّة عاشقةٌ بطبعها، ليّنةٌ قلوبُها، عذبةٌ أرواحُها، تميلُ إلى الحُبّ ويميلُ إليها، فتطربُ لشِعر الغزل، وتستمتعُ بقصص الهوى، وتتناقلُ أخبار العُشّاق ونوادرهم! بل وكانوا يرون حُبّ المرءِ من كمال طبعه وانسانيّته، وكانوا يعجبون من المرءِ إذا لم يعشق يوماً!

ولكنّ العربَ كذلك أمّة غيورة، تعنيها مسألةُ العِرض كثيراً، وما الوأدُ في الجاهليّة إلا بسبب الخوف على العرضِ من أن يُنتهكَ مستقبلاً، فالحمدُ لله الذي جاء بالإسلام!

وقد بلغَ من غيرةِ العرب أنها كانت لا تُزوِّجُ بناتها لمن أحبَّهُنّ وقال فيهنّ شِعراً، ولكن الجمع بين العشّاق من غير أهلِ البنتِ كان عندهم وما زال من مكارمِ الأخلاقِ وجميلِ المروءات!

ونُقطة ألا يُزوّج الأهل البنت لمن أحبته يجب أن نتوقّف عندها!

مفهومٌ جدًّا غيرة الأهل على أعراض بناتهم، وهذا من النُبل ومعالي الأخلاق، فإنّه لا يدخل الجنّة ديوث!

ولكننا بشرٌ من لحمٍ ودم، ولنا قلوبٌ تنبضُ، وفينا مشاعر وأحاسيس، ويحدث أن تُحِبّ البنتُ كما يُحِبُّ الولد، وقمّة الحكمة إذا وقع هذا وجاء الشّابُّ خاطباً من أحبَّها وأحبّته أن يُزوَّج على الفور، فهذا ليس من مواضع يباسةِ الرّأس، وتصلب الرأي!

البنتُ نهاية المطاف ستتزوّج سواء من أحبّته أم من لا تحبُّه، فلِمَ نكسِرُ قلبها ما دمنا قادرين على جبره بالحلال؟!

وبأيِّ منطقٍ ننتقمُ من عرضنا ولحمنا ودمنا؟!

بل إنّ تزويج البنت بمن أحبّتْ من هدي النُّبوة!

أخرجَ الحاكم في المستدرك، وابنُ ماجة، والبيهقيُ، عن جابرٍ قال: جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، عندنا يتيمة خطبها رجلان موسِرٌ ومعسرٌ، وهي تهوى المُعسر ونحن نهوى الموسر!

فقال له النّبيُّ ﷺ: لم يُرَ للمتحابّين مثل النّكاح!

والحديث صحّحه الألباني كذلك، وإن كان لأهلِ الحديثِ فيه كلام!

وروى عبد الرّزاق الصّنعانيّ عن إبراهيم بن ميسرة قال: خطبَ رجلٌ شابٌ امرأةً قد أحبّته، فأبوا أن يزوّجوها إياه.

فسألتُ طاوسَ بن كيسان عن ذلك فقال: ليزوّجوها، قال رسولُ اللهِ ﷺ: لم يُرَ للمتحابّين مثل النّكاح!

وفي كثيرٍ من الحالات التي يمتنعُ فيها الأهل من تزويج ابنتهم لمن أحبّته ينتهي الأمرُ بقلوبٍ مكسورةٍ بصمتٍ، ولكن ما كلُّ مرّةٍ تسلمُ الجرّة، ولربما انتهى الأمر بفضيحةٍ أو جريمة، ونكون قد أقمنا مأتماً في حين كان بإمكاننا أن نقيمَ عرساً!

في كتاب الأخبار الموفّقيات للزُّبير بن بكّار:

دخل عمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: أخبرني من أجبنُ من لقيتَ، وأحيلُ من لقيتَ، وأشجعُ من لقيتَ؟!

فقال: يا أمير المؤمنين خرجتُ مرّةً أريد الغارة، فبينما أنا سائرٌ، إذا بفرسٍ مشدود ورمحٍ مركوز، وإذا رجلٌ جالسٌ كأعظم ما يكون الرِّجال خَلقاً، وهو محتبٍ بحمائل سيفه، فقلتُ: خُذْ حذركَ فإنّي قاتلك!

فأقبل عليّ وقال: ومن أنت؟

قلتُ: أنا عمرو بن معدي كرب!

فشهقَ شهقةً فمات.

فهذا يا أمير المؤمنين أجبنُ من رأيتُ!

وخرجتُ مرّةً حتى انتهيتُ إلى حيٍّ، فإذا أنا بفرس مشدودٍ ورمحٍ مركوزٍ، وإذا صاحبه في وهدة يقضي له حاجةً، فقلت: خُذْ حذرك، فإنّي قاتلك!

فقال: ومن أنت؟

فأعلمته بي.

فقال: يا أبا ثور، ما أنصفتني، أنتَ على ظهر فرسك وأنا على الأرض، فأعطني عهداً أنّك لا تقتلني حتى أركب فرسي!

فأعطيته عهداً، فخرج من الموضع الذي كان فيه، واحتبى بحمائل سيفه، وجلسَ!

فقلتُ: ما هذا؟

فقال: ما أنا براكبِ فرسي، ولا بمقاتلك، فإن نكثتَ عهدكَ، فأنت أعلم بناكثِ العهد!

فتركته ومضيتُ!

فهذا يا أمير المؤمنين أحيلُ من رأيتُ!

وخرجتُ مرّةً حتى انتهيتُ إلى موضع كنتُ أقطعُ فيه الطّريق، فلم أرَ أحداً، فأجريت فرسي يميناً وشمالاً، وإذا أنا بفارس، فلمّا دنا منّي فإذا هو غلامٌ حَسنٌ، من أجمل ما رأيت من الفتيان وأحسنهم، وإذا هو قد أقبل من نحو اليمامة، فلما قرب مني سلَّم عليَّ، فرددت عليه السلام، وقلت: من الفتى؟

قال: الحارثُ بن سعدٍ فارس الشهباء!

فقلت: خُذ حذرك فإنّي قاتلك!

فقال: الويلُ لك، فمن أنتَ؟

قلت: عمرو بن معدي كرب!

قال: الذَّليلُ الحقير، والله ما يمنعني من قتلك إلا استصغارك!

فتصاغرتْ نفسي يا أمير المؤمنين، وعظم عندي ما استقبلني به، فقلت: دعْ هذا، وخذ حذرك، واللهِ لا ينصرف إلا أحدنا!

فقال: ثكلتكَ أمُّكَ، فأنا من أهل ما أثكلنَا فارسٌ قط!

قلت: هو الذي تسمعه!

قال: اخترْ لنفسك، فإمَّا أن تهجمَ عليّ، وإما أن أهجمَ عليكَ!

فاغتنمتها منه وقلت: أنا أهجمُ عليك، وحملتُ عليه، فظننتُ أني وضعت الرّمح بين كتفيه، فإذا هو صار حزاماً لفرسه، ثم عطفَ عليّ، فقنعَ بالقناة رأسي وقال: يا عمرو خذها إليك واحدةً ولولا أنّي أكره قتل مثلك لقتلتك!

فتصاغرتُ نفسي عندي، وكان الموت يا أمير المؤمنين أحبّ إليّ مما رأيتُ!

فقلت: والله لا ينصرفُ إلا أحدنا!

فعرض عليّ مقالته الأولى!

فقلت له: أهجُمْ عليّ، فظننتُ أني تمكنت منه فاتبعته، حتى ظننتُ أنّي وضعتُ الرّمح بين كتفيه، فإذا هو صار لبباً لفرسه، ثم عطفَ عليّ فقنع بالقناة رأسي، وقال: خذها إليك يا عمرو ثانيةً!

فتصاغرتُ إليّ نفسي، وقلت: واللهِ لا ينصرف إلا أحدنا!

فهجمتُ عليه حتى ظننتُ أنّي وضعتُ الرّمح بين كتفيه، فوثب عن فرسه فإذا هو على الأرض فأخطأته، ثمَّ استوى على فرسه واتبعني حتى قنعَ بالقناة رأسي، وقال: خذها إليك يا عمرو ثالثةً، ولولا كراهتي لقتل مثلك لقتلتك!

فقلت: أقتلني أحب إليّ، ولا تسمع فرسان العرب بهذا!

فقال: يا عمرو، إنَّما العفو عن ثلاثٍ، وإذا تمكنتُ منك في الرَّابعة قتلتك!

فهبته هيبةً شديدةً، وقلت له: إنَّ لي إليك حاجة!

قال: وما هي؟

قلت: أكون صاحباً لكَ!

قال: لستَ من أصحابي، ويحك أتدري أين أريد؟

قلت: لا والله!

فقال: أريدُ الموتَ الأحمر عياناً!

فقلت: أريد الموت معك!

قال: امضِ بنا.

فسرنا يوماً كاملاً حتى أتانا الليل، ومضى شطره فوردنا على حيٍّ من أحياء العرب، فقال لي: يا عمرو في هذا الحيّ الموت الأحمر، فإمّا أن تمسك عليّ فرسي فأنزل وآتي بحاجتي، وإمّا أن تنزلَ وأمسك فرسك فتأتيني بحاجتي!

فقلت: بل انزلْ أنت، فأنت أخبر بحاجتك منّي!

فرمى إليّ بعنان فرسه، ورضيت والله يا أمير المؤمنين بأن أكون له سايساً.

ثم مضى إلى قبة فأخرج منها جاريةً لم ترَ عيناي أحسن منها حسناً وجمالاً، فحملها على ناقةٍ، ثمّ قال: يا عمرو إما أن تحميني وأقود النّاقة، أو أحميكَ وتقودها أنت!

قلت: لا بل أقودها وتحميني أنتَ!

فرمى إليّ بزمام النّاقة، ثمّ سرنا حتى أصبحنا، قال: يا عمرو!

قلت: ما تشاء؟

قال: التفث فانظرْ، هل ترى أحداً.

فالتفث فرأيت جِمالاً، فقلث: حُثَّ السيرا!

قال: انظرْ إن كانوا قليلاً فالجَلَدُ والقوّة وهو الموت الأحمر، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء!

قلت: هم أربعة أو خمسة!

قال: حُثَّ السيرا!

ففعلث، ووقفَ وسمع وقع حوافرِ الخيل عن قرب، فقال: يا عمرو كن عن يمين الطّريق، وقِف، وحوّلْ وجه دوابنا إلى الطّريق!

ففعلتُ، ووقفتُ عن يمين الرّاحلة، ووقفَ عن يسارها، ودنا القوم منا، وإذا هم ثلاثة نفرٍ، شابّان وشيخ كبير، وهو أبو الجارية والشّابان أخواها، فسلّموا فرددنا السّلام، فقال الشّيخ: خلِّ عن الجارية يا ابن أخي!

فقال: ما كنت لأخلّيها ولا لهذا أخذتها!

فقال أبوها: ما هكذا تُؤخذُ النّساء!

فقال له: ولكنّي خطبتها فلم تزوّجني، وإنّك تعلمُ أنّي كفءٌ لها!

فقال الأبُ لأحد بنيه: اخرج إليه!

فخرج وهو يجرُّ رمحه فحمل عليه الحارث، وشدَّ عليه بطعنةٍ قطعَ بها صلبه فسقط ميتاً!

فقال الشّيخ لابنه الآخر: اخرج إليه فلا خير في الحياة على الذُّلّ!

فأقبل الحارث، ثمّ شدَّ على ابن الشّيخ بطعنةٍ سقط منها ميتاً!

فقال له الشّيخ: خلِّ عن البنت يا ابن أخي فإنّي لستُ كمن رأيتَ!

فقال: ما كنتُ لأخلّيها ولا لهذا قصدتُ!

فقال الشّيخ: يا ابن أخي اختر لنفسك، فإن شئت نازلتك، وإن شئت طاردتك!

فاغتنمها الفتى، وقال له: نازلني!

فدنا منه الشّيخ وقال: يا ابن أخي إن شئت ضربتُكَ فإن أبقيتُ فيك بقيّةً فاضربني. وإن شئت فاضربني فإن أبقيتَ فيَّ بقية ضربتك!

فاغتنمها الفتى وقال: أنا أبدأ!

فقال الشيخ: هاتِ!

فرفع الحارث يده بالسّيف، فلمّا نظر الشّيخ أنّه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب له بطنه بطعنة قطعَ منها أمعاءه، ووقعت ضربة الفتى على رأس عمه، فسقطا ميتين!

فأخذتُ يا أمِير المؤمنين أربعةَ أسيافٍ، وأربعة أفراسٍ، ثم أقبلتُ إلى النّاقة!

فقالت الجارية: يا عمرو إلى أين؟ ولست بصاحبتك ولست لي بصاحبٍ، ولستُ كمن رأيتَ!

فقلت: اسكتي!

قالت: إن كنت لي صاحباً فأعطِني سيفاً أو رمحاً فإن غلبتني فأنا لكَ وإن غلبتك قتلتك!

فقلت: ما أنا بمعطٍ ذلك، وقد عرفتُ أهلك وجرأة قومك وشجاعتهم!

فرمتْ نفسها عن البعير، ثمَّ هوتْ إلى الرّمح ونزعته من يدي، ووكزتْهُ بالأرض، وقالت: اللهمَّ ماتَ الحبيبُ والأبُ والأخُ، فلمن أعيش؟

ثم هوت على الرّمح، وغرزته في صدرها حتى خرج من ظهرها!

فهذا يا أمير المؤمنين أشجعُ من رأيتُ!

الشّابُ أحبَّ ابنة عمِّه وأحبَّته، فجاء إلى عمِّه خاطباً، فأبى عمُّه أن يزوِّجه إياها لا لشيءٍ سوى أنَّها أحبَّته، مما أغضبَ هذا الأب على عادة العرب وغيرتها على أعراضها!

فما كان من الشَّاب إلا أن جاء وأخذ الفتاة عُنوةً عنهم!

وهم في المقابل حين لم يهُنْ عليهم أن تُحبَّ ابنتهم ابن عمها، فمن باب أولى ألا يهون عندهم أن تهربَ معه!

فخرجوا في طلبهم ليعيدوها، ولما وصلت المفاوضات إلى طريقٍ مسدودةٍ كانت المبارزة، فقتل الشّابُ ابني عمِّه، ثم قتلَ عمَّه، وقتلُه عمُّه، ثمَّ انتحرتِ البنت!

وفي رواية أخرى للقصّة أنَّ الذي قتل الفتاة هو عمرو بن معدي كرب نفسه، لأنَّها لمَّا أرادت أن تنزع الرّمح من يده، خشيَ أن تقتله، فعاجل إليها وقتلها! ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ النتيجة واحدة وهي أنَّ البنت ماتتْ أيضاً!

فعلامَ كلُّ هذا؟ ولِمَ كلّ هذه الجنائز وقد كان عرسٌ واحدٌ يُقام يمكن أن يحلَّ الأمرَ

كلّه!

نعم نغارُ على بناتنا، ومن لا يغار على عرضه فليس من النّاس! وما منّا من أحدٍ إلا ويأبى أن يعرفَ أنّ ابنته أحبّت، وهذا لا شيء فيه، بل نعدّه من المروءة! ولكن هذه الأمور تحدث دائماً، فالكلام هنا عن كيف نتصرَّف إذا ما حدث الأمر، لا عن تسهيل حدوثه!

الكثير من أمور الحياة تحتاجُ إلى عقلٍ لا إلى عضلاتٍ! وإلى حكمةٍ لا إلى قوّةٍ، وستتعلمُ كثيراً إذا لاحظتَ أن الرِّيح بإمكانها أن تُحطّم سفينةً، ولكنّها لا يمكنها أن تحلَّ عُقدةً في حَبلٍ!

القانون 36: الوَفَاءُ عَزيزٌ!

الوفاءُ خلُقٌ جميل ولو كان مع عدوٍّ، وهو أجمل ما يكون حين يكون مع الحبيب!

فرحمَ اللهُ كلَّ من لم تُغيّره تقلبات الأيام، ولا نوائب الدّهر، فبقيَ مرابطاً على ثغرِ قلبه!

ورحم اللهُ كلَّ وفيٍّ أدّى الأمانات إلى أهلها، والقلوبُ من الأمانات!

روى الحاكمُ في المُستدرك: كان نقشُ خاتم أبي عُبيدة بن الجرّاح: الوفاءُ عزيزٌ!

الوفاءُ خلُقٌ جميل ولو كان مع عدوّ، وهو أجمل ما يكون حين يكون مع الحبيب! فرحمَ اللهُ كلَّ من لم تُغيّره تقلبات الأيام، ولا نوائب الدّهر، فبقى مرابطاً على ثغرِ قلبه!

يقولُ ابنُ حزمٍ في طوقِ الحمامة: أدركتُ بنتَ زكريا التّميميّ، وكانت متزوجةً بيحيى بن محمد ابنِ الوزير ابنِ اسحاق، فماتَ في ريعانِ شبابه، وهما في أغضّ عيشهما، وأنضر سرورهما، فبلغَ من حزنها وأسفها عليه أن باتث معه في دِثارٍ واحدٍ ليلةَ ماتَ، وجعلته آخر العهد به وبوصله، ثمَّ لم يُفارقها الأسفُ عليه بعد ذلك إلى حين موتِها!

الوفاءُ جميلٌ في الموت، ولكنّه أجمل في الحياة! فالميّتُ قد ماتَ وما عاد يُؤذيه نسيانه، أو الانصراف إلى غيره! أما الحيُّ فيقتله الغدر، وتودي به قلّة الوفاء!

روى ابنُ الجوزيّ في كتابه أخبار النّساء:

ذُكِرَ أنَّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يومٍ بمجلسٍ كان له بدمشقٍ على قارعة الطّريق، وكان المجلسُ مفتح الجوانب لدخول النّسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرعُ في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لغلامه: يا غلام سِر إليه واكشِف عن حاله وقصّته، فو الله لئن كان فقيراً لأغنينّه، ولئن كان شاكياً لأنصفنّه، ولئن كان مظلوماً لأنصرنّه، ولئن كان غنياً لأفقرنّه!

فخرج إليه الغلام متلقّيًا، فسلّم عليه، فردّ عليه السّلام.

ثمّ قال له: ممّن الرّجل؟

قال: يا سيّدي أنا رجلٌ أعرابيٌّ من بني عذرة، أقبلتُ إلى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلامةٍ نزلت بي من بعض عمّاله.

فقال له الرّسول: وصلتَ يا أعرابي!

ثمّ سار به حتّى وقف بين يديه فسلّم عليه بالخلافة، ثمّ أنشأ يقول:

معاوي يا ذا العلمِ والحلمِ والفضلِ
ويا ذا النّدى والجودِ والنّابلِ الجزلِ
أتيتُك لمّا ضاقَ في الأرضِ مذهبي
فيا غيثُ لا تقطعْ رجائِي من العدلِ
وجُد لي بإنصافٍ من الجّائرِ الذي
شواني شيًا كان أيسره قتلِي
سبانِي سَغدَى وانبرَى لخصومتي
وجَارَ ولم يعدل، وأغصَبنِي أهلي
قصدت لأرجو نفعه فأثابني
بسجنٍ وأنواعِ العذاب مع الكَبْلِ
وهمّ بقتلِي غير أن منيّتي
تأبّث، ولم أستكمِلِ الرّزق من أجلي
أغِثنِي جزاكَ اللهُ عنّي جنّةً
فقد طارَ من وجدٍ بسَغدَى لها عقلي!

فلمّا فرغَ من شِعره قال له معاوية: يا أعرابيُّ إنّي أراكَ تشتكِي عاملاً من عمّالنا ولم تسمّه لنا!

فقال: أصلحَ اللهُ أمير المؤمنين، وهو واللهِ ابن عمّكَ مروان بن الحكمِ عاملُ المدينة.

قال معاوية: وما قصّتكَ معه يا أعرابيّ.

قال: أصلحَ اللهُ الأمير، كانت لي بنت عمٍّ خطبتُها إلى أبيها فزوّجني منها. وكنتُ كَلِفاً بها لمَا كانت فيه من كمالِ جمالِها وعقلِها. فبقيتُ معها يا أمير المؤمنين، في أصلحِ حالٍ وأنعمِ بالٍ، مسروراً زماناً، قرير العين. وكان لي إبلٌ وشويهاتٍ، فكنتُ أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أقضيةُ الله وحوادثُ الدّهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدرة الله. فبقيتُ لا أملكُ شيئاً، وصرتُ مَهيناً مفكّراً، قد ذهبَ عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلمّا بلغ ذلك أباها حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطردني، ودفعها عنّي. فلم أدرِ لنفسي بحيلةٍ ولا نصرةٍ. فأتيتُ إلى عاملك مروان بن الحكمِ مشتكياً بعمّي، فبعث إليه، فلمّا وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيُّها الرَّجل لمَ حلتَ بين ابن أخيك وزوجتِه؟

قال: أصلحَ اللهُ الأمير، ليس له عندي زوجة، ولا زوَّجته من ابنتي قط!

قلتُ أنا: أصلحَ اللهُ الأمير، أنا راضٍ بالجارية، فإن رأى الأميرُ أن يبعث إليها، ويسمع منها ما تقول؟

فبعثَ إليها فأتتِ الجارية مسرعةً، فلمّا وقفتَ بين يديه، ونظر إليها وإلى حُسنها، وقعتْ منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السِّجن.

فبقيتُ كأنّي وقعتُ من السَّماءِ في مكانٍ سحيقٍ!

ثمّ قال لأبيها بعدي: هل لكَ أن تزوِّجها منّي، وأنقدها ألف دينارٍ، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهمٍ تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟

قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوَّجتها منك.

فلمّا كان من الغد بعث إليّ، فلمّا أُدخِلتُ عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، وقال لي: يا أعرابيُّ طلِّق سَعدَى.

قلتُ: لا أفعل.

فأمر بضربي ثم ردَّني إلى السِّجن، فلمّا كان اليوم الثّاني قال: عليّ بالأعرابيّ.

فلمّا وقفتُ بين يديه، قال: طلِّق سعدى.

فقلت: لا أفعل.

فسلّط عليّ يا أمير المؤمنين خدّامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثمّ أمر بي إلى السّجن!

فلمّا كان اليوم الثّالث قال: عليّ بالإعرابيّ، فلمّا وقفت بين يديه قال: عليّ بالسّيفِ والنّطعِ، وأحضرَ السّياف، ثمّ قال: يا أعرابيُّ، وجلالة ربّي، وكرامة والديّ، لئن لم تطلِّق سعدى لأفرّقنَّ بين جسدكَ وموضع لسانك.

فخشيتُ على نفسي القتل، فطلَّقتها طلقةً واحدةً، ثمَّ أمر بي إلى السّجن فحبسني فيه حتّى تمّتْ عدّتها ثمّ تزوَّجها، فبنى بها، ثمَّ أطلقني.

فأتيتكَ مستغيثاً قد رجوتُ عدلكَ وإنصافكَ، فارحمني يا أمير المؤمنين. فو الله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرقُ، وأذابني القلقُ، وبقيتُ في حبّها بلا عقلٍ!

ثمّ خرّ مغشيّاً عليه بين يدي معاوية كأنّه قد صُعق به!

وكان في ذلك الوقت معاوية متّكئاً، فلمّا نظر إليه قد خرَّ بين يديه قام ثمَّ جلس، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اعتدى واللهِ مروان بن الحكمِ ضراراً في حدود الدّين، وإحساراً في حُرَمِ المسلمين!

ثمّ قال: واللهِ يا أعرابيُّ لقد أتيتني بحديثٍ ما سمعتُ بمثله.

ثمّ قال: يا غلام عليّ بدواةٍ وقرطاسٍ، فكتبَ إلى مروان: أمّا بعد، فإنّه بلغني عنك أنّك اعتديتَ على رعيّتك في بعض حدود الدّين، وانتهكتَ حُرمةً لرجلٍ من المسلمين. وإنّما ينبغي لمن كان والياً على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضَّ بصره وشهواته، ويزجرَ نفسه عن لذّاته. وإنّما الوالي كالرّاعي لغنمه، فإذا رفقَ به بقيتْ معه، وإذا كان لها ذئباً فمن يحوطها بعده. ثمّ كتب بهذه الأبيات:

وُلّيت، ويحكَ أمراً لستَ تحكمه

فاستغفرِ الله من فعلِ امرئٍ زاني

قد كنتَ عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ

مع القراطيسِ تمثالاً وفرقانِ

حتّى أتانا الفتى العذريُّ منتحباً

يشكو إلينا ببثٍّ ثمَّ أحزانِ

أُعطي الإلهَ يميناً لا أكفِّرها

حقًّا وأبرأُ من ديني وديَّانِي

إن أنت خالفتني فيما كتبتُ به

لأجعلنَّكَ لحماً بين عقباني

طلِّقْ سُعَادَ وعجِّلها مجهّزةً

مع الكُميتِ، ومع نصرٍ بن ذبيانِ

فما سمعتُ كما بُلِّغت في بشرٍ

ولا كفعلك حقاً فعل إنسانِ

فاختر لنفسك إمَّا أن تجودَ بها

أو أن تلاقي المنايا بين أكفانِ

ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد.

فلمّا وقفا بين يده، قال: أخرجا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلا بيده.

فخرجا بالكتاب حتى وردا به عليه، فسلّما ثمَّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلمَّا نظرت إليه قالت له: يا سيّدي ما الذي يبكيك؟

قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلّقكِ، وأجهّزكِ، وأبعث بكِ إليه. وكنت أودُّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ.

فطلّقها، وجهّزها، ثمّ كتبَ إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد

أوفِيَ بنذركَ في رفقٍ وإحسانِ

وما ركبتُ حراماً حين أعجبني

فكيف أدعَى باسم الخائنِ الزَّانِي

أعذُر فإنّك لو أبصرتها لجرتْ

منك الأماقي على أمثالِ إنسانِ

فسوف يأتيكَ شمسٌ لا يعادلها

عندَ الخليفةِ إنسٌ لا ولا جانِ

لولا الخليفةُ ما طلَّقتها أبداً

حتّى أضمَّنَّ في لحدٍ وأكفانِ

على سعادٍ سلامٌ من فتىً قلقٍ

حتّى خلّفته بأوصابٍ وأحزانِ

ثمّ دفعَه إليهما، ودفع الجارية على الصّفة التي حُدِّثَ له. فلمّا وردا على معاوية فكّ كتابه، وقرأ أبياته، ثمّ قال: والله لقد أحسنَ في هذه الأبيات، ولقد أساءَ إلى نفسه.

Telegram:@mbooks90

ثمّ أمر بالجارية فأُدخلت إليه، فإذا بجاريةٍ رعبوبةٍ لا تُبقي لناظرها عقلاً من حُسنها وكمالها. فعجبَ معاوية من حسنها ثمّ تحوّلَ إلى جلسائه وقال: واللهِ إنّ هذه الجارية لكاملة الخَلْقِ، فلئن كملت لها النّعمة مع حسن الصّفة، لقد كملت النّعمة

لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي من أفصح نساء العرب.

ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلمّا وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لكَ عنها من سلوٍ، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ مع كلّ جاريةٍ منهنِ ألف درهمٍ، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر خِلعٍ من الخزّ والدّيباج والحرير والكتّان، وأجري عليكَ وعليهنّ ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظًّا من الصّلات والنّفقات؟

فلمّا أتمّ معاوية كلامه، غُشِيَ على الأعرابيّ، وشهق شهقةً ظنّ معاوية أنّه قد مات منها.

فلمّا أفاقَ قال له معاوية: ما بالكَ يا أعرابيّ؟

قال: شرُّ بالٍ، وأسوأ حالٍ، أعوذُ بعدلكَ يا أمير المؤمنين من جورِ مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلِني هداكَ اللهُ من مَلِكٍ

كالمستجيرِ من الرّمضاءِ بالنّارِ

أرْدُدْ سعاد على حرّان مكتئبٍ

يمسي ويصبحُ في همٍّ وتذكّارِ

قد شَفَّته قلقٌ ما مثله قلقٌ

وأسعرَ القلبَ منه أيُّ إسعارِ

والله، واللهِ لا أنسى محبّتها

حتّى أُغيّبَ في قبرِي وأحجارِي

كيف السّلوُّ وقد هامَ الفؤادُ بها

فإن فعلتَ فإنّي غير كفّارِ

فأجمِل بفضلك وافعَل فعلَ ذي كرمٍ

لا فعلَ غيرك، فعلَ اللؤمِ والعارِ

ثمَّ قال: واللهِ يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلَّ ما احتوته الخلافة ما رضيتُ به دون سعدى. ولقد صدقَ مجنونُ بني عامرٍ حيث يقولُ:

أبى القلبُ إلّا حبَّ ليلى وبُغّضتْ

إليّ نساءٌ ما لهُنَّ ذنوبُ

وما هي إلّا أن أراها فجاءةً

فأبهتُ حتى لا أكادُ أجيبُ

فلمَّا فرغ من شِعره، قال له معاوية: يا أُعرابيُّ؟

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين.

قال: إنَّكَ مُقِرٌّ عندنا أنَّك قد طلَّقتها، وقد بانتْ منكَ ومن مروان، ولكن نخيِّرها بيننا.

قال: ذاك إليك يا أمير المؤمنين.

فتحوَّلَ معاوية نحوها ثمَّ قال لها: يا سعدى أيُّنا أحبُّ إليكِ: أمير المؤمنين في عزِّه وشرفِه وقصورِه، أو مروان في غصبِه واعتدائه، أو هذا الأعرابيُّ في جوعه وأطماره؟

فأشارتِ الجاريةُ نحو ابن عمِّها الأعرابي، ثمَّ أنشأت تقول:

هذا وإنْ كان في جوعٍ وأطمارِ

أعزُّ عندي من أهلِي ومن جارِي

وصاحبِ التّاجِ أو مروان عامله

وكلِّ ذي درهمٍ منهم ودينار

ثمّ قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحَدَثانِ الزّمان بخَاذِلتِه، ولقد كانت لي معه صحبةٌ جميلةٌ، وأنا أحقُّ من صبرَ معه على السّرّاءِ والضّرّاء، وعلى الشّدّة والرّخاء، وعلى العافيةِ والبلاء، وعلى القَسَمِ الذي كَتَبَ اللهُ لي معه.

فعجب معاويةُ ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها، وأمرَ لها بعشرةِ آلاف درهمٍ، وألحقَها في صدقاتِ بيت المسلمين!

هذه واحدةٌ من أجملِ قصص الوفاءِ التي قرأتها في حياتي!

امرأةٌ آيةٌ في الجمال، خلقها اللهُ فسوَّاها، أحبّت ابن عمِّها وأحبَّها، ثُمَّ تمَّ الزّواج، والزّواج أجمل تاجٍ يلبسه الحُبُّ على رأسه!

والأيام تدور وتتقلّبُ وهي غير مأمونة الجوانب، فافتقرَ زوجها وضاقت به الدُّنيا، فلما عَلِمَ أبوها أخذها منه وطرده، وهذا من أحمق ما رأيت، وكان واجبه أن يعمدَ إلى ابن أخيه وابنته ويُساعدهما إذا استطاع، أو أن يكفَّ عنهما شرَّه إذا لم يستطع، ولا يعمد إلى بيت قائم فيهدمه على رؤوس ساكنيه! ثم ما دامت البنت راضيةً بالفقرِ، لأنّها تجدُ الحُبَّ والاحترام والأمان وإن ضاقت بها الدُّنيا فليس للأهل أن يتدّخلوا في حياتها إلا لمساعدتها!

فجاء الشَّابُّ شاكياً إلى أمير المدينة، فأحضر الأميرُ الأبَ ووبّخه، ولكن الأب أنكر الزّواج أصلاً، وهذه حماقة ثانية!

فطلب الشَّابُّ الفتاةَ شاهداً، فأقرّت بحبّها لابن عمّها، والزّواج منه!

ولكن الأمير افتتن بها لما رأى من جمالها وحسنها، فاتفق مع أبيها على أن يطلقها من زوجها ويتزوجها هو من بعده! وهذه حماقة ثالثة!

وبعد حبسٍ وتعذيبٍ وإهانةٍ وتهديدٍ بالقتل رضخ الشَّابُّ وطلّق الفتاة، ثم تزوّجها الأمير!

وجاء الشَّابُّ إلى معاوية شاكياً، فلم يهُن عليه ما كان من ابن عمه أمير المدينة، فأمره بطلاقها واحضارها إليه فوراً، وهكذا كان!

ولكنّ معاويةِ من الناس، وقد رأى من المرأة ما أعجبه فأرادها لنفسه، وهي الآن بحكم الشّرع طالق من ابن عمّها ومن أمير المدينة!

فأغرى الشّابّ بالمال والنّساء على أن يتركها ويذهب ليتزوّجها هو، فأبى ذلك، وأصرّ أنّه لا حاجة له من الدُّنيا غيرها!

فأراد معاوية أن يُخيرها بين الثلاثة: زوجها، ومروان أمير المدينة، وهو الخليفة!

فما كان منها إلا أن اختارت ابنَ عمّها، ولم تهُن عليها العِشرة القديمة، ولا الحُبّ الذي كان بينهما، وأخبرث بأنها ليست التي تتخلى عن قلبها لأنّ الدُّنيا ضاقت بحبيبها، وهي إن كانت قد تزوّجت بأمير المدينة فلم يكن بيدها حيلة! ولكنّها اختارث ابن عمّها، وفضلته على الخليفة وعلى الأمير، وهذا من أرفع الوفاءِ، فرحم اللهُ كلَّ وفيّ أدّى الأمانات إلى أهلها، والقلوبُ من الأمانات!

القانون 37: إخذر صَاحِبَ البَريد!

مهمَا تقدّمت وسائلُ التّواصل فإنّ النّاس يحتاجون إلى بريد الحُبّ! ولا يمكن الإنكار أبداً أنّ الحاجة إليه في أيامنا هذه أقلّ بكثيرٍ مما كانت عليه سابقاً، إلا أنّه وبشكلٍ أو بآخر قد يضطّرُ المرءُ إليه أحياناً، فلا تستعِنْ لإيصال رسالتك، شفاهاً أو كتابةً إلا بالأمين الذي تثقُ بخُلقِه، وبمودّتِه لك وبرجائه للخيرِ أن يُصيبك!

مهمَا تقدّمتِ وسائلُ التّواصل فإنّ النّاس يحتاجون إلى بريد الحُبّ! ولا يمكن الإنكار أبداً أنّ الحاجة إليه في أيامنا هذه أقلّ بكثيرٍ مما كانت عليه سابقاً، إلا أنّه وبشكلٍ أو بآخر قد يضطّرُ المرءُ إليه أحياناً، فلا تستعِن لإيصال رسالتك، شفاهاً أو كتابةً إلا بالأمين الذي تثقُ بخُلقِه، وبمودّتِه لكَ وبرجائه للخيرِ أن يُصيبك!

كانت العربُ تقولُ: عقلُ الرّجلِ يُعرَفُ من ثلاثٍ: من هدِيّته، ومن رسالتِه، ومن رسولِه!

فقد علمُوا باكراً أنّ الهديّة إنّما يجب أن تُراعي حال المُهدى إليه، فالأمراء مثلاً يُهدى إليهم نفائس الأشياء ونادرها، وذلك لاستغنائهم عمّا في أيدي الناس عادة. في المقابل ما يفعل إنسان عاديّ بمخطوطةٍ نادرة تُهديها له؟!

ومضمون الرّسالة يكشفُ عن مدى فهم الإنسان، لأنّ عقول النّاس وراء أقلامهم تماماً كما هي وراء ألسنتهم!

والرّسول الذي يحملُ الرّسالة إنّما يدلُّ اختياره على عقل من أرسله، وقد كان النّبيّ ﷺ يكثر من إرسال دِحية الكلبيّ إلى الملوك، ورؤساء القبائل، لأنّه جمع الوسامتين: وسامة العقلِ، ووسامة الوجه! ودِحيةُ هو الذي كان جبريل عليه السّلام يأتي أحياناً في صورته!

كثيرٌ من العلاقات قد خرّبها سُعاة البريد!

وقد رويتُ لكَ آنفاً حديث ابن حزمٍ الذي حدّثه إيّاه القاضي يونس بن عبدِ الله عن جارية حلوةٍ لطيفة، أحبّها فتىً من أهل الأدب، فهويته وهويَها، وكان بينهما بريدٌ ورسائل، وكان الرّسول بينهما فتىً من أتراب الشّابّ وأصحابه!

فلما عُرِضت الجارية للبيع سارع هذا الرّسول فاشتراها لنفسه رغم علمه بحبّ صديقه لها، وحبّها له!

وحدثَ يوماً أن دخل عليها فوجدها قد فتحت دُرجاً تطلبُ فيه حاجةً لها، فأتى إليها وجعل يبحثُ في الدُّرج، فخرجت إليه رسالةٌ من ذلك الفتى الذي كانت تُحبّه معطّرةً بالطّيب!

فغضبَ، وقال لها: يا فاسقة من أين هذا؟

فقالت له: أنتَ أتيتني به!

فقال: لعلَّه جديدٌ بعد ذلك الحين؟

فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف!

النّاسُ يا صاحبي فيهم من الحسدِ ما لا يكفي لسرد قصصه وأخباره المجلّدات الطّوال، وكم من رسولٍ بين حبيبين حدَّثته نفسه أن يجعل هذه الحبيبة له، فكادَ بينهما، وأفسدَ! وكم من مُرسَلةٍ أعجبها هذا الحُبُّ بين من تحملُ رسائلهما، فوقع الحبيب في قلبها، فرغبتْ أن تستأثر به، فكان لها ما أرادت، وإن لم يكن الذي تريد، أفسدتْ ما بينهما، أو ابتزَّتهما به!

العاقلُ لا يستعمل أحداً حتى يستوثقه، ولا يكشف له خفايا قلبه حتى يأمنه!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ عن نُميرٍ الهلالي قال: كان فينا فتىً يُقال له بشر بن عبد الله، وكان يُعرفُ بالأسير، وكان سيّد فتيان بني هلال وأحسنهم وجهاً، وأسخاهم نفساً، وكان معجباً بجارية مَن قومه، وكانت تُدعى جِيداً، وكانت بارعة الجمال، فلمَّا ظهر أمره وأمرها وقع الشّرُّ بين أهله وأهلها حتى وقعت بينهما الدّماء! فلمَّا طال على الأسير البلاء جاءني فقال: يا نُمير هل عندكَ خير؟

قلتُ: عندي، فقُلْ ما أحببتَ!

فقال: تساعدني على زيارة جيد، فقد أذاب الشُّوق روحي، ونغَّصَ عليَّ حياتي!

قلتُ: نعم، بالحُبِّ والكرامة!

فمضينا حتى بلغنا مضارب قومها، فقال لي: اذهبْ فادخُلْ بين الناس، وإذا لقيتَ أحداً فأخبره أنّك تنشدُ ضالةً لك، ولا تعرِضْ بذكري أبداً بين شفةٍ ولسان، إلا أن تلقى فلانة جاريتها، فأقرئها منّي السّلام، وسلْها عن الخبر، وأعلمها عن مكاني!

فخرجتُ حتى لقيتُ الجارية، فأبلغتها الرّسالة، وسألتها عن الخبر، وأعلمتُها عن

مكانه، فقالت: هِي واللهِ مُشدّدٌ عليها، مُتحفَّظ بها على ذلك، وموعدكم تلك الشّجرات عند آخر البيوت مع صلاة العشاء!

فرجعتُ إليه، وأعلمته بالخبر، فقمنا إلى الشجرات ننتظرُ مجيئها، فلم نلبث حتى جاءت جِيدُ تمشي ودنت منا، ووثبَ الأسير وصافحها وسلَّم عليها، فوثبتُ مولّياً عنهما!

فقالا: نُقسِمُ عليكَ إلا رجعتَ فو اللهِ ما نحن بمكروه، ولا بيننا قبيحٌ نخلو به دونك!

فقال لها الأسير: ما فيك حيلة يا جيد نتسامر الليلة؟

فقالت: لا واللهِ ما لي إلى ذلك سبيل إلا أن يرجع الذي تعلمُ من البلاء والشرِّ، وما كان بين أهلي وأهلك من قتالٍ ودم!

فقال لها: لا بُدَّ من ذلك ولو وقعت السَّماءُ على الأرض!

فقالت: فهلْ في صاحبك هذا من خيرٍ؟!

فقلتُ لها: قولي ما بدا لكِ فإنّي أنتهي إلى رأيك، ولو كان في ذلك ذهاب نفسي!

فخلعت ثيابها فلبِستُها، وخلعتُ ثيابي فلبسَتْها، ثم قالت: اذهبْ إلى بيتي فادخُلْ في ستري، فإنَّ زوجي سيأتيك فيطلب منك القدح يحلب فيه، ثم يأتيك بالقدح، فيقول: يا فلانة هذا لبنك! فلا تأخذه فإنَّه سيضعه أرضاً ويذهب، وإنّك لن تراه حتى تصبح!

ففعلتُ، غير أنَّه لما جاء باللبن ولم آخذه، غضب منّي غضبةً شديدة، فاستخرج سوطاً ملويًا كالثُّعبان، ودخل الخيمة، وجعل يضربني به، وأنا لا أتكلم خشية افتضاح أمري وأمرها، حتى جاءت أمُّه وأخته فانتزعاني منه! حتى أنَّ أمَّ جيدِ دخلت عليَّ فكلَّمتني وهي تحسبني ابنتها!

وقالت: يا بُنيّة اتقي الله في نفسك وزوجك!

ثم قامت وخرجتُ من عندي وهي تقول: سأرسل إليك أختك الليلة تؤنسك!

فلبثث يسيراً حتى جاءث أختها، فجعلت تدعو على من ضربني، وجعلتُ لا أكلِّمها أبداً، ثم أخذتْ موضعها للنَّوم، فوثبتُ عليها، ووضعتُ يدي على فمها، وقلتُ: يا هذه، تلك أختكِ مع الأسير، وقد قطع زوجها ظهري بالسِّياط بسببها، وأنتِ أولى بالسَّتر عليها، فاختاري لنفسك ولها، فو اللهِ إن تكلمتِ بكلمة لأصيحنَّ أنا بأعلى صوتي حتى تكون الفضيحة شاملة!

فهدأتْ، وأشارتْ إليَّ أن ارفعْ يدكَ، فباتتْ معي أصلح رفيقٍ رافقته قط! فلم تزل تُحدِّثني وتضحكُ منِّي على ما صار بي حتى طلع الفجر، ثم إذا جيد تدخلُ علينا!

فقالت: ما هذا؟

فقلتُ: حكايةٌ طويلةٌ تحكيها لكِ أختكِ! هاتي ثيابي أصلحكِ الله!

فأخذتُ ثيابي، ومضيتُ إلى صاحبي، وحدَّثته بما أصابني، وكشفتُ له عن ظهري!

فلما رأى ذلك قال: لقد عظُمتْ صنيعتك، ووجبَ شكرك، وخاطرتَ بنفسك، فلا حرمني الله مكافأتك!

طبعاً في القصَّة ما أنكره، وليس لأحدٍ أن يمشي في هتكِ الأستار، وما دام الزَّواج قد وقع، فعلى العلاقة أن تتوقف. فلا تكُنْ في هذه الحالة لا مُرسِلاً ولا رسولاً، ولكنَّني أريدكَ أن تُقارن بين النَّموذجين اللذين حكيتُ لك عنهما من الرُّسل، بين الأوَّل الذي لم يحفظ سرًّا، وخان أمانته، ورضي أن يستأثر بها وحده! وبين الثَّاني الذي تحمَّل المخاطرة، والضَّرب بالسَّوط، وكلُّ هذا في سبيل السَّعي بين حبيبين!

فإن كان لكَ رسالة فليكُنْ رسولك من النَّوعِ الثَّاني الذي يحفظُ السِّرَّ والأمانة وإلا فلا تُرسِلْ!

القانون 38: الحبيبُ يستَعذِبُ ألَمَه!

استعذاب الألم في الحُبّ، هو أنّكَ تتمسّكُ بالحبيب رغم كلّ المصاعب والأوجاع، وهو معنىً فيه الاصطفاء والاختيار لشخصٍ دون غيره، والإفلاتُ في هذه الحالة فيه راحةٌ ظاهرةٌ، وفي طيّاته عذابٌ مقيم، لهذا يرى الحبيب أنَّ نار قُرْب حبيبه خيرٌ من جنّةِ البعد عنه، يُلخِّص لكَ ابنُ الفارِضِ هذا القانون بقوله:

عذِّبْ بما شئتَ غير البُعدِ عنكَ تجِدْ

أوفى مُحبٍّ بما يُرضيكَ مُبتهجِ

وخُذْ بقيّةَ ما أبقيتَ من رمقٍ

لا خيرَ في الحُبِّ إن أبقى على المُهَجِ

السّادية والمازوشيّة من الأمراض النّفسيّةِ التي صالَ فيها علماء النّفس وجالوا، وكلاهما مرتبطٌ بالألم، وإن كان أحدهما بعكس الآخر!

فالسّادية هي التّلذُّذ بإنزال الألم في الآخرين، أما المازوشيّة فهي التّلذُّذ بإنزال الألم في الذّات!

لا هذا ولا ذاك مضمارنا، ولا عنهما حديثنا، وإنّما مهّدت بهما حتى أستثنيهما أن يتبادر الذّهنُ إليهما!

وإنّما ما أردته من استعذاب الألم في الحُبّ، هو أنّك تتمسّك بالحبيب رغم كلّ المصاعب والأوجاع، وهو معنىً فيه الاصطفاء والاختيار لشخصٍ دون غيره، والإفلات في هذه الحالة فيه راحةٌ ظاهرةٌ، وفي طيّاته عذابٌ مقيم، لهذا يرى الحبيب أنّ نار قُربِ حبيبه خيرٌ من جنّةِ البعد عنه، ومن أعذب ما قيل في هذا الباب، ما قاله النّابغةُ العمريّ:

فلمّا رآنِي العاذلون متيّماً

كئيباً بمن أهوى وعقلِيَ ذاهبُ

رَثَوا لي وقالوا كنتَ بالأمسِ عاقلاً

أصابتكَ عينٌ؟ قلتُ: عينٌ وحاجبُ

رماني كحيلُ طرفٍ بالسّهمِ نافذاً

سَعِدتُ لمقتلي ولستُ للثأرِ طالبُ

ومن جميلِ ما قيلَ في هذا الباب قول الحلّاج:

عذابُهُ عندِي عَذْبُ

وبُعْده عنكَ قربُ

وأنتَ عندي كروحي

بل أنتَ منها أحَبُّ

وأنتَ للعينِ عينٌ

وأنتَ للقلبِ قلبُ

حسبي من الحُبِّ أنّي

لما تُحِبُّ أحبُّ

ومن الممتعِ الجميل في هذا الباب أيضاً قول أبي الشِّيص الخُزاعيّ:

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي

متأخَرٌ عنه ولا مُتقدَّمُ

وأهنتَنِي فأهنتُ نفسي جاهداً

ما مَنْ يهونُ عليكِ ممن يُكرَمُ

أشبهتِ أعدائي فصرتُ أحبُّهمُ

إذ كان حظِّي منكِ حظِّي منهمُ

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً

حُبًّا لذكركِ فليلُمني اللُّوَمُ!

ومن بديعِ هذا الباب أيضاً ما قاله القاسم بن القاسم الواسطيّ:

يخطُّ الشّوقُ شخصكَ في ضميري

على بُعْدِ التّزاورِ خطَّ زورِي

ويوهمُ منكَ طول الفكرِ حتّى

كأنّكَ عند تفكيرِي سميري

فلا تبعُدْ فإنّكَ نور عيني

فمهما غبتَ لم تطرقْ بنورٍ

إذا ما كنتَ مسروراً بهجري

فإنِّي من سرُورِكَ في شرورِ

وأكتفي بهذا القدر من الشِّعر في هذا الباب، يكفي من القلادة ما أحاطَ بالعنق، وإنَّما كانت هذه من باب الاستشهاد والاستعذاب، وإلا فإنَّ شعر العربِ في هذا الباب أكبر من أن يحتويه كتاب!

في كتاب ذمِّ الهوى لابن الجوزيّ، عن أبي المنجاب قال: رأيتُ في الطَّواف فتىً نحيف الجسم، ظاهر الضَّعفِ، يلوذُ ويتعوَّذُ ويقول:

وددتُ بأنَّ الحُبَّ يُجمع كلُّه

ويُقذفُ في قلبي وينغلقُ الصَّدرُ

فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى

ومن فرحي بالحُبِّ أو ينقضي العمرُ

فقلتُ: يا فتى أما لهذه البنت حُرمةٌ تمنعك من هذا الكلام؟!

فقال: بلى واللهِ، ولكنَّ الحُبَّ ملأ قلبي بفرح التَّذكر، ففاضتْ الفكرة، واللهِ لا يسُرني أن أشفى مما بي ولو أنَّ لي مُلكَ أمير المؤمنين! وإنِّي لأدعو اللهَ أن يُثبِّته في قلبي عمري كلّه، ويجعله ضجيعي في قبري!

ثم بكى، فقلتُ له: ما يُبكيكَ؟

فقال: خشية ألا يُستجاب دعائي!

ولكَ أن تتخيَّلَ إلى أيِّ مدىً كانوا يؤثِرُون نار الحُبِّ على جنَّة الراحة بدونه! فهذا شابٌ عاشقٌ يطوفُ بالبيتِ الحرام، يدعو الله تعالى أن يجعل حبَّ الدُّنيا كلّه في قلبه كي يحبَّها ولو أشقاه هذا الحُبّ!

ولمَّا راجعه أبو المنجاب، وحاول أن يثنيه ويذكِّره بجلال الموقف، أخبره أنَّه لا يريدُ الشِّفاء مما هو فيه، ولو كان ذلك ثمنه أن يصيرَ خليفةً للمسلمين مكان الخليفة!

بل ويزيد في دعائه، بأن يدخل معه هذا الحُبُّ قبرَه!

يقولُ ابنُ حزمٍ في كتابه طوق الحمامة: ولقد علمتُ فتىً من بعض معارفي قد أبتليَ بالحُبِّ، وتورَّط في حبائله، وأضرَّ به الوجد، ولازمه المرض، وما كانت نفسه تطيب بالدُّعاء إلى الله عزَّ وجل في كشفِ ما به، ولا ينطلقُ به لسانه، وما كان دعاؤه إلا بالوصل، والتَّمكن ممن يُحِبُّ على عظيم بلائه، وطويلِ همِّه، فما الظنُّ بمريضٍ لا يريدُ إلا مرضه؟!

ولقد جالسته يوماً فرأيتُ من اكتئابه، وسوء حاله، ما ساءني، فقلتُ له: فرَّج اللهُ عنك!

فرأيتُ أثر الكراهة في وجهه، فقلتُ فيه شعراً:

وأستلذُّ بلائِي فيكَ يا أملي

ولستُ عنك مدى الأيام أنصرفُ

إن قيل لي تتسلَّى عن مودَّته

فما جوابي إلا اللامُ والألفُ!

هذا رجلٌ أحبَّ بكلِّ قلبه، ولم يكن له إلى حبيبته سبيل، فأضناه الشَّوقُ وعذّبه، بل جعله طريح الفراش، فنالَ منه روحاً وجسداً، ومع هذا لم تكن تطيبُ نفسه بأن يدعو بالشِّفاء مما هو فيه! حتى أنَّ ابن حزمٍ حين زاره، وأسِفَ أسفاً شديداً لحاله، ودعا له بالشفاء، فكره الرجلُ ذلك!

كان يجد قيمته في أن يكون محبًا عاشقاً، وأن ما به ضريبة قليلة أمام لذَّة الحُبِّ، وكأنَّ حاله حال ابن الفارض حين قال:

ما بين معتركِ الأحداقِ والمُهجِ

أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حَرجِ

للهِ أجفانُ عينٍ فيك ساهرةٌ

شوقاً إليكَ وقلبُ الغرامِ شجِ

وأضلُعٌ نحِلتْ كادتْ تُقوِّمها

من الجوى كبدي الحرّا من العِوجِ

وأدمعٌ هملتْ لولا التّنفُّسُ من

نارِ الهوى لم أكذ أنجو من اللججِ

وحبذا فيك أسقامٌ خفيتَ بها

عنّي تقومُ بها عند الهوى حُججي

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مكتئباً

ولم أقلْ جزَعاً يا أزمة انفرجي

عذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعدِ عنكَ تجِدْ

أوفى مُحبٍّ بما يُرضيكَ مُبتهجِ

وخُذْ بقيّةَ ما أبقيتَ من رمقٍ

لا خيرَ في الحُبِّ إن أبقى على المُهَجِ

وفي كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ: كان محمّد بن حميد الطوسيّ من كبار قادة الجيش، وكان أديباً شاعراً، وكان يهوى جاريةً يُقال لها ظَلُوم، وكان شديدَ الشَّغفِ بها، وكانت تجِدُ به مثل ذلك، وبينما هو ذات يوم في مجلسه أهدته بعض جواريه أترجةً/فاكهة يُقال هي التُّفاح، فلما شمَّها تذكر حبيبته ظلوم، وكانت جاريةً لرجلٍ في المدينة، فنادى على خادمه، وقال له: اذهبْ بهذه إلى ظلوم!

فذهبَ الغلامُ بها إليها، ففرحتْ بها فرحاً شديداً، وسرّها أنّه يذكرها رغم أنّه بين

جواريه. وأبطأ الغلام في طريق عودته وتشاغل، فلمّا جاء إليه قال له: ما الذي أبطأ بك؟

فخشيَ أن يخبره بتشاغله، فقال له: كانت خارجة من منزلها!

فغاظه ذلك، وكتبَ إليها رقعةً يقول فيها:

ضيَّعتِ عهد فتىً لغيبكِ حافظٌ

في حفظِه عجبٌ وفي تضييعك

فصدَّتْ عنه فما له من حيلةٍ

إلا الوقوف إلى أوانِ رجوعك

إن تقتليه وتذهبي بحياتِه

فبحُسنِ وجهكِ لا بحسنِ صنيعكِ!

وأرسل خادمه بالرِّسالة، وأمره ألا يأخذَ منها جواباً!

فلمَّا دفعَ الخادم إليها الرسالة، قرأتها وبكث حتى رحمها كلّ من كان في المجلس!

ثم قالت للغلام: فإن أبَى كتابةً فاحفظْ عنِّي هذا وبلِّغه!

وأنشدت تقولُ:

هل لعيني إلى الرُّقادِ شفيعٌ

إنَّ قلبي من السَّقام مرُوعُ

لا تراني بخِلتُ عنكَ بدمعٍ

لا وروح الحبيبِ ما لي دموعُ

إنَّ قلبي إليك صبٌّ حزينٌ

فاستراحتْ إلى الأنين الضلُوعُ

ليس في العطفِ يا محمّد بِدَعٌ

إنّما كلُّ ما أقاسي بديعٌ

فلمّا أنشده الخادم ما قالت، قال صدقتْ واللهِ، ليس في العطفِ على مثلها بِدَعٌ!

ودعا بدواةٍ وقرطاسٍ، وكتبَ إليها أن تأتي إليه، وكتبَ في أسفلِ الرّسالة:

أنزلتِ بالقلبِ همًّا قد أضرَّ به

صِيداً على الهمِّ حتى ينزلَ الفرجُ

إن كنتِ في الشّكِّ فما بي وقد خفيتْ

بين الجوانحِ بادٍ الحُبُّ مذحججٍ

ظلوم فاستخبري عن حبّكم جسدي

يخبركِ أنّي نحيلٌ هائمٌ كحجٍ

فلما قرأت الرّسالة وثبت من مكانها حتى أتتْ منزله وقالت: أنا مملوكة ولا أملكُ نفسي، فإن كانت لك فيّ حاجة فمُرْ بشرائي لأكون طوع يدك!

فاشتراها، وكانت أقرب نسائه إلى قلبه، وأعزهُنَّ عنده!

فلما كانت معركة تابك قُتِلَ فيها، فلمّا بلغها خبر مقتلِه، جزعتْ عليه جزعاً شديداً، ولم تزل تبكيه حتى ماتتْ!

وانظرْ لقولها: إنّ كلَّ ما أُقاسي بديعٌ!

كانوا يستعذبون ألمَ الحُبِّ، ولا يريدون منه شفاءً، وما رضوا بأن يتنازلوا عما يقاسونه من ألم الهوى ولو أنَّ لهم راحة الدُّنيا! فسبحان من خلقَ الحُبَّ فألقاه في قلوب عباده، فكان تارةً هو الموت، وتارة أخرى هو الحياة!

القانون 39: أمَا كانَ فيكم رجلٌ رحيم!

أرسلَ النَّبيُ ﷺ فرقةً من الجيش للغزو، فكان بينهم وبين القومِ قتالٌ، وقتلَ كلُّ طرفٍ من الآخر ما قضى اللهُ أن يكون، ومنَّ اللهُ على المسلمين بالنَّصرِ، فأخذوا المحاربين من الأعداء ليقتلوهم بما قتلوا من إخوانهم، وكان في القوم رجلٌ أخبرهم أنه ليس من هذه القبيلة، وإنَّما جاء عاشقاً ليرى امرأة أحبَّها فيهم، فلم يُصدِّقوه!

فطلبَ أن ينظرَ إليها قبل قتله، فجاءت، فرآها، ثم قتلوه، فألقت نفسها عليه وماتت فوقه!

فلما عادوا وأخبروا النَّبيَّ ﷺ بالخبر، فلم يُعجبه ما كان منهم، وقال لهم موبِّخاً، أمَا كان فيكم رجلٌ رحيم؟!

عن عبدِ اللهِ بن عباسٍ رضي الله عنهما، أنّ النّبيّ ﷺ بعث سَرِيّةً. فقاتلوا، وغَنِموا. وفي القوم رجلٌ، فقال لهم: إنّي لستُ منهم، عشقتُ امرأةً، فلحقتها، فدعوني أنظرُ إليها نظرةً، ثمّ اصنعوا بي ما بدا لكم!

فإذا امرأةٌ طويلةٌ أدماء، فقال لها:

أريثُكِ لو تبعتكم فلحقتكم

بحليةٍ أو أدركتُكُم بالخوانقِ

ألم يكُ حقًّا أن يُنوّل عاشقٌ

تكلّف إدلاج السُّرى والودائقِ

قالت: نعم، فديتُكَ!

فقدّموه، فضربوا عنقه، فجاءت المرأةُ فوقعتْ عليه، فشهقتْ شهقةً ثم ماتتْ! فلمّا قدِموا على النّبيّ ﷺ، أخبروه الخبرَ!

فقال لهم: أمَا كان فيكُم رجلٌ رحيم؟!

وهذا حديثٌ صحيحٌ أخرجه النسائيُ في السُّننِ الكبرى، وابنُ حجرٍ في فتحِ الباري، وفي المغازي، وصحّحه الألبانيُ في الصّحيحة!

وملخّصُ الواقعة أنّ النّبيّ ﷺ قد أرسل فرقةً من الجيش للغزو، فكان بينهم وبين القومِ قتالٌ، وقتلَ كلُّ طرفٍ من الآخر ما قضى اللهُ أن يكون، ومنَّ اللهُ على المسلمين بالنّصرِ، فأخذوا المحاربين من الأعداء ليقتلوهم بما قتلوا من إخوانهم، وكان في القوم رجلٌ أخبرهم أنه ليس من هذه القبيلة، وإنّما جاء عاشقاً ليرى امرأة أحبّها فيهم، فلم يُصدّقوه!

فطلبَ أن ينظرَ إليها قبل قتله، فجاءتْ، فرآها، ثم قتلوه، فألقتْ نفسها عليه وماتتْ فوقه!

فلما عادوا وأخبروا النّبيّ ﷺ بالخبر، فلم يُعجبه ما كان منهم، وقال لهم موبّخاً،

أما كان فيكم رجلٌ رحيم؟!

في شرحِ الشَّواهد للإمام الشيوطيّ أنّ عروة بن قيس وَلِعَ بجارية من العرب، فزّوجوه بها بشفاعة الحُسين بن عليّ رضي الله عنه وعن أبيه، فأقام معها مُدّةً!

وكانت أمُّه تُقسِمُ عليه أن يطلّقها!

وهو يقولُ لها: أخافُ تلافَ نفسي!

فلم ترضَ، فلما كان يوم حَرٍّ شديدٍ، وقفت أمه حافيةً على الرَّمل، وأقسمتْ ألا ترجع أو يُطلّقَ عروة امرأته!

فطلَّقها رحمةً بأمه، فجعلَ يزدادُ به الوجدُ حتى امتنعَ من الطَّعام والشَّراب!

وذهبَ إلى أهلها ليُرجعها إليه فرفضوا ذلك!

فأقام أياماً، ثم حُمِلَ إلى الكعبة علَّ هذا يُخفف عنه، وكان عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه وعن أبيه بفناءِ الكعبة، فرآه وهو ينشِدُ:

بنا من جوى الأحزانِ والحبِّ لوعةٌ

تكادُ لها نفسُ الشَّفيقِ تذوبُ

ولكن ما أبقى حشاشةَ ما ترى

على ما ترى عودٌ هناك صليبُ!

فلمَّا عادوا به بعد أن يئسوا من شفائه ماتَ في الطَّريق!

فمكث ابن عباسٍ أربعين يوماً لا يسأل الله بعد صلاته إلا المعافاة من العشق!

في كثيرٍ من مواقف الحياة لا تكون المشكلة بين الحبيبين وإنَّما في الناس الذين بينهما! فعروة أحبَّ المرأة حُبّاً عظيماً خلَّده التَّاريخ، وشهده الحُسين وابن عباسٍ، وتحدَّث عنه السيوطيُّ! ولكنَّ أمَّه لم تحب امرأته، فبقيت وراءه حتى طلَّقها، لا هي رحمته فتركته معها، ولا أهلها رحموه فأعادوها إليه، فكان ذلك سبباً في موته!

ارحموا تُرحمُوا، ولا تكسِروا القلوب فإنّ كسرها أليم، وإنّها لأنانيّة أن يرى الأهل الزّوجين يهيمُ أحدهما بالآخر فيسعوا في طلاقهما لأنّ الزّوج لا يروقُ لأهلِ البنت، أو لأنّ الزّوجة لا تروقُ لأهلِ الابن!

فإذا ما رأيتم العشّاق، فتذكّروا قول نبيّكم ﷺ: أما كان فيكم رجلٌ رحيم؟!

في كتابِي طرائف العرب، أوردتُ في بابِ طرائف العشّاق قصّةً رواها المكتفي بالله ابن الخليفة المهديّ قال: إنّ خادماً ممن كان يخدم أبي جاءه يخبره أنّ عند جارية في بعض قصوره رجلاً!

فلبسَ ثيابه، وسار إلى القصر، فلقيَ عندها غلاماً شابًا، له ذُؤابتان، كأنّه قضيب فضّةٍ لجماله!

فقال له أبي: ما شأنك؟ وكيف دخلتَ القصر؟

فقال: إنّ هذه الجارية كانت لوالدتي، وكان بيني وبينها إلفة، فلما بيعتْ لأمير المؤمنين ذهبتْ روحي معها! فأتيتُ باب القصر معترضاً لها، فأذِنتْ لي بالدُّخول، فدخلتُ على أحد أمرين: إما أن أظفرَ بما أُريد أو أُقتلَ فأستريح!

فأمر أبي بإحضار السّياط، ثم ضربه عشرين جلدةً، ثم قال له: ما أصنعُ بتعذيبك ولستُ بتاركك حيًّا، ولا تاركها!

ثم نادى: يا غلام، سيفٌ ونَطْعٌ!

فلما أُتيَ بذلك، وأجلس الفتى في النّطعِ ليأمر بضربِ عنقه، قال له الفتى: يا أمير المؤمنين، قبل أن ينزل بي القتل، وهو دون حقّي، اسمعْ منّي ما أقول!

فقال له أبي: قُلْ!

فأنشد يقولُ:

ولقد ذكرتُكِ والسّياطُ تنوشُنِي

عند الإمامِ وساعدِي مغلولُ

ولقد ذكرتُكِ والذي أنا عبده

والسَّيفُ بين ذؤابتي مسلولُ!

فأطرق أبي ساعةً، وترقرقت عيناه بالدُّموع، ثم قال له: خُذها وامضِ فهي لكَ!

أنظرْ لرحمة الخليفة بالمحبِّين، هذه جارية أشتريَت له في يومه هذا ولم يرها بعد، وكان في قصور الخلفاء من هو مسؤول عن هذا. ولم يطِق الشَّابُ فراقها، فتبعها حتى باب القصر معترضاً، فأذنت له بالدُّخول، وبلغ الخليفة الخبر فجاء مسرعاً، فهو وإن لم يكن يعرفها بعد فقد صارت عرضه، والخلفاءُ يغفرون كلَّ شيءٍ إلا التَّطاول على أعراضهم!

فأوقع فيه الخليفة العقاب، ثم وجد أنَّه لم يشفِ غليله، فأراد قتله! ولكن الشَّابَّ أخبر الخليفة عن مدى حبه للجارية، وأنَّه جاء وقد وكان عالماً أنَّه ربما يُقتل. فرقَّ الخليفة لحاله، ووهبَ له الجارية!

كان جمع القلوبِ عندهم من مكارم الأخلاق، وهذا ابن الخليفة يروي القصَّة لأنَّه يراها من مزاياه وكرم أخلاق أبيه!

روى الأصمعيُّ عن أبي عمرو بن العلاء، قال: حدَّثني رجل من تميم، قال: خرجتُ في طلب ضالَّةٍ لي، فبينما أنا أدور في أرض بني عُذرة أنشدُها إذا أتيتُ منزلاً بعيداً عن البيوت، وإذا هناك شابٌ مغمىً عليه، وعند رأسه عجوز تنظرُ إليه!

فسلَّمتُ، فرَدتِ السَّلام، فسألتها عن ضالَّتي فلم يكن عندها بها علم.

فقلتُ لها: يا خالة، من هذا الفتى؟

فقالت: ابني! فهل لكَ في أجرٍ لا تعبَ فيه؟

فقلتُ: واللهِ إنَّي أحبُّ الأجرَ وإن تعبتُ فيه!

فقالت: إنَّ ابني هذا يهوى ابنة عمٍّ له، وكان قد عشقها وهما صغيران، فلما كبرا حُجبتْ عنه، فأخذه شبيه الجنون، ثم خطبها من أبيها فأبى أن يُزوِّجه! وخطبها غيره فزَوجه، فنحل جسم ابني، واصفرّ لونه، وذهل عقله، ومنذ خمس ليالٍ زُفَّتْ إلى

زوجها، فهو كما ترى لا يأكل ولا يشرب مغمىً عليه، فلو جئتَ فوعظته!

فأتيتُ عند رأسه، فلم أدعْ شيئاً من المواعظ إلا وعظته بها، حتى أني قلتُ له فيما قلتُ: إنهُنَّ الغواني صويحبات يوسف، الناقضات للعهد، وقد قال فيهنَّ كُثيِّرُ عَزَّة:

هل وصلُ عزَّةَ إلا وصلَ غانيةٍ

في وصلِ غانيةٍ عن وصفِها خُلُفُ!

فرفع رأسه غاضباً وقال: إنَّ كُثيِّرَ عَزَّة رجل أحمق، ولكنِّي كأخي تميمٍ حيث قال:

ألا لا يضرُّ الحبُّ ما كان ظاهراً

ولكنْ ما أحتافَ الفؤادَ يضيرُ

ألا قاتلَ اللهُ الهوى كيف قادنِي

كما قِيدَ مغلولُ اليدينِ أسيرًا!

فقلتُ له: إنَّه قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: من أُصيب منكم بمصيبةٍ فليذكُرْ مصابه بي!

فأنشدَ يقولُ:

ألا ما للمليحةِ لم تعُدْنِي

أبخلٌ بالمليحةِ أم صُدودُ؟

مرضتُ فعادَنِي أهلي جميعاً

فما لكِ لم تُرَ فيمن يعودُ؟

فقدتُكِ بينهم فبليتُ شوقاً

وفَقْدُ الإلفِ يا أملي شديدُ

وما استبطأتُ غيركِ فاعلميه

وحولي من ذوي رحمِي عديدُ

ولو كنتِ بالمريضِ لكنتُ أسعى

إليكِ وما يهدّدني الوعيدُ!

ثم شهقَ شهقةً ومات!

فبكيتُ لهذا بكاءً شديداً، فقالتْ لي أمُّه: يا فتى لا تحزن، ماتَ واللهِ ابني بأجله، واستراح من تباريحه وغصصه!

ثم قالت: فهل لكَ في استكمالِ معروفك؟

فقلتُ: قولي ما أحببتِ!

فقالتْ: تأتي إلى البيوت فتنعاه إليهم ليعاونوني على دفنه فإنّي وحيدة!

فركبتُ نحو البيوت، فإذا بجاريةٍ أجمل ما رأيتُ من النّساء، وهي تسمعُ نعيي إيّاه!

فقالتْ: أسقط الله أسنانك من تنعى؟! أوقد ماتَ؟!

فقلتُ لها: ماتَ والله!

فقالتْ: فهل سمعتَ له قولاً قبل أن يموت؟

فقلتُ: آخر ما قال:

إلا ما للمليحةِ لم تعُدنِي

أبخلٌ بالمليحةِ أمْ صدودُ؟!

فبكتْ، وأنشدتْ تقول:

عدَانِي أن أزوركَ يا مُناي

معاشرٌ كلُّهم باغٍ وحسودُ

أشاعوا ما علمتَ من الدّواهي

وعابُونا وما فيهم رشيدُ

فلمَّا إن ثُويتُ اليوم لحداً

وكلُّ النَّاسِ دونهم لُحُودُ

فلا طابتْ لي الدُّنيا فواقاً

ولا لهم ولا أثري العديدُ

ثم شهقتْ شهقةً فخرَّتْ مغشياً عليها، وخرج النِّساءُ إليها من البيوت، وحملوها، فاضطربتْ ساعة وماتتْ، فشهدتُ دفنَه ودفنَها!

فأيُّ ظُلمٍ أكبر من هذا؟ وأيُّ قهرٍ أن يُحال بين قلبين عاشقين لغير سببٍ مقنع؟!

أحبَّ الشَّابُّ ابنة عمِّه، وجاء إلى أبيها خاطباً فمنعه من ذلك، وزوَّجها من غيره، ولستُ أدري لِمَ يصنع بعض النَّاسِ هذا بأولادهم وبناتهم؟ وأيُّ شيءٍ يجدونه في أنفسهم وهم يعلمون أنَّ في هذا كسر قلوبهم؟!

وصحيحٌ أنَّ الفتى والفتاة إنَّما ماتا بقدر اللهِ، وهذه هي أعمارهما التي كُتبتْ، ولكن والد الفتاة قد قتل ابنتَه وابنَ أخيه بقسوة قلبه، ويباس رأسه!

فارحموا تُرحموا، وتذكَّروا دوماً قول نبيِّكم ﷺ: أمَا كان فيكم رجلٌ رحيم؟!

القانون 40: أرخِ يدك، ما لا يُبقِيه الحبُّ

لا تحفَظه القوّة!

هذا القانون لا يعني أبداً ألا تتمسّك بأحبابك، وألا تحاربَ للاحتفاظ بهم، ولكن على المرء أن يعرف متى يتوقَّف، وأن يعرف أيضاً أن بعضَ المعاركِ لا تستحقُّ عناء خوضِها!

صدِّقنِي من أراد أن يرحل فسيرحل ولو من ثقبِ الباب، ومن أراد أن يبقى فسيبقى ولو واقفاً على رجلٍ واحدة!

هذا القانون لا يعني أبداً ألا تتمسّك بأحبابك، وألا تحارب للاحتفاظ بهم، ولكن على المرء أن يعرف متى يتوقّف، وأن يعرف أيضاً أن بعض المعارك لا تستحقُّ عناء خوضِها!

صدِّقني من أراد أن يرحل فسيرحل ولو من ثقبِ الباب، ومن أراد أن يبقى فسيبقى ولو واقفاً على رجلٍ واحدة!

في بداية الحرب العالمية الثّانية التقت المُدرِّسة الصربيّة «نادا» بالجنديّ الصربيّ «ريليا» عند جسر «موست ليوبافي» في مدينة «موستار»، ونشأت بينهما علاقة حُبٍّ قويّة كانت حديثَ النّاس!

كان كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام إلى أن تمَّ استدعاء «ريليا» إلى جبهة القتال، فتوجَّه مع أفراد كتيبته إلى اليونان، وهناك وقع في حُبِّ امرأةٍ يونانيّة، وأرسل إلى حبيبته «نادا» يعتذرُ منها، ويُنهي علاقته بها!

لم تحتملْ «نادا» هذه الصّدمةَ العاطفيّة، ودخلت في حالة اكتئابٍ شديدٍ، ثمَّ ما لبثت أن ماتت من الحسرة!

Telegram:@mbooks90

وعلى وقع القصّة التي انتشرت في المدينة، سارعتِ النّساءُ إلى كتابة أسمائهنَّ وأسماء أحبابهنَّ على أقفالٍ، ووضعنَها على الجسر حيث كانت «نادا» تلتقي بحبيبها، كي يحموهنَّ من أن تسرقهُنَّ نساءٌ أُخريات!

وعلى وقع رومانسيّة القصّة، انتشرت أخبار الحادثةِ من مدينةٍ إلى مدينةٍ، ومعها فكرة أقفال الحُبِّ التي صارت اليوم ثقافةً عالميّةً، نُشاهدها في كلِّ البلدان!

في الحقيقة إنَّ الفتاة اليونانية لم تسرقْ «ريليا» من حبيبته، ولا يوجد أحدٌ يسرقُ أحداً من أحدٍ، كل الذين رحلوا نحن نرى تلك الصورة الظاهرة منهم، أما أعماقهم فلا يعلمها إلا الله!

«ريليا» كان مُهيّئاً ليرحل، ولو لم يرحل مع تلك المرأة، فكان سيرحل مع غيرها!

لا يُربطُ المرءُ إلا من قلبه، وكلُّ أقفال العالم لن تُقنع شخصاً بالبقاء ما دام قد عزمَ

على الرَّحيل!

ابكِ الذين ماتوا وأقِمْ لهم المآتم، أما الرَّاحلون فلا يستحقُّون دمعةً، إياك أن تذرف دمعةً على من اختارَ غيركَ، ولا على من كنتَ بين يديه فأفلتكَ وذهبَ إلى غيركَ!

أَبكِ على نفسك نعم، على سنواتِ عمرك التي ضاعتْ!

أَبكِ من طعم الغدر والخذلان، ولكن إياكَ أن تبكي على الغادرين!

يقولُ ابن حزمٍ في طوقِ الحمامة: سألني يوماً أبو عبد الله محمد بن كُليب، وكان طويل اللِّسان جدًّا، مثقَّفاً في كلِّ فنٍّ: إذا كرِهَ من أحبُّ لقائي، وتجنَّبَ قُربِي فما أصنعُ؟

فقلتُ: أرى أن تسعى في إدخال الرُّوح على نفسِكَ وإن كرِهَ!

فقال: لكنِّي لا أرى ذلك، بل أُوثِرُ هواه على هواي، ومراده على مرادي، وأصبرُ ولو كان في ذلك الموتُ!

فقلتُ: إنَّما أحببته لنفسي، ولالتذاذها بصورته، فأنا أتبعُ قياسي، وأقودُ أصلي، وأقضي طريقتي في الرَّغبة في سرورها!

فقال: هذا ظلمٌ من القياس، أشدُّ من الموتِ ما تُمنِيَ له الموت، وأعزُّ من النَّفسِ ما بُذِلتْ له النَّفسُ!

فقلتُ: إنَّ بذلكَ نفسكَ لم يكن باختياركَ بل باضطرارك، ولو أُمكنكَ ألا تبذلها لما بذلتها، وتركُكَ لقاءه اختياراً منكَ أنتَ ملوم فيه لإضرارك بنفسك وإدخال الهلاكِ عليها!

فقال لي: أنتَ رجلٌ جدليٌّ، ولا جدلَ في الحُبِّ يُلتفتُ إليه!

فقلتُ له: إذا كان صاحبه فيه آفة!

فقال: وأيُّ آفةٍ أعظمُ من الحُبِّ!

وفي هذا الجدال الذي دار بين ابن حزمٍ ومحمَّد بن كُليب، أجدُ نفسي في صفِّ ابن

كُليبٍ لا في صفِّ ابنِ حزمٍ!

لا تستهويني فكرة أن يفرضَ أحدٌ نفسَه على أحد!

من أحبّك وأوسعَ لكَ فخُذ مكانكَ في حياته، وتمسّك به، ومن رفضكَ وأغلقَ في وجهكَ الباب زهداً فيك، فلا تحشُر نفسك في حياته، لا تذلَّ نفسكَ من أجل حُبٍّ، فالنّاس لا يحبّون من لا كرامة لهم!

صحيح أنَّ لأنفسنا علينا حقاً، وأنّه لا بأس أن نسعى فيما يسعدها، ولكن إن كان الذي يُسعدها لا سبيل إليه برغبةِ أصحابه، فقاتل الله تلك السّعادة المغموسة بالذُّلِّ!

وطرح ابن كُليبٍ فكرةً رائعة توقّفتُ عندها كثيراً، لأنّها تجمع خُلقين عظيمين من أخلاق المحبّين هما: عزّة النّفسِ والإيثار!

فقال رداً على ابن حزمٍ حين أجابه بأن يفرضَ نفسه على من يُحبّ وإن كره: لكنّي أرى عكس ذلك، بل أؤثر هواه على هواي، ومراده على مرادي، وأصبرُ ولو كان في ذلك الموت!

فأمّا عزّة النّفسِ فتجلّت في أنّه لا يحشرُ نفسه حيث لا متّسع له!

وأمّا الإيثار فتجلّى في فكرته أنّه يفعلُ الأحبَّ لحبيبه ولو كان الأحبُّ إلى قلبه هو الهجر، ولو كان هجراً إلى غيره!

تمسّك ما دام المكانُ لكَ، أما إن ضاقَ عليكَ، فإنَّ بلاد اللهِ واسعة!

العلاقاتُ خُلقتْ للرّاحة، لتُقدِّمَ أجمل ما عندك، وتأخذ أجمل ما عند الآخرين، ولم تُخلقْ لتكون رحى حربٍ، ولا مذلّة للكرامات، ولا مُريقة لماء الوجوه!

الأشخاص الذين تتعامل معهم وكأنّكَ تسيرُ في حقل ألغامٍ، لا تعلم متى ينفجرُ أحدها ويطيح بك، غادرهم على الفور!

لا شيء أسوأ من علاقةٍ تُبقيكَ على حذرٍ دائم! ستحسبُ حساب الكلمة الواحدة ألف مرّةٍ، وتزين تصرُّفك بميزان مزاجيّتِهم ألفَ مرّةٍ! وحدهم من تكون بتلقائيّتك معهم، من يُشعرونك أنكَ آمنٌ وإن أخطأتَ، تشبّث بهم بأسنانكَ وأظافركَ!

لا شيءَ أصعب من أن تكون في امتحانٍ دائم عليك أن تُثبتَ ولاءكَ ووفاءكَ كلَّ لحظةٍ! هذا يجعلك ترى الحياة معركةً لا هُدنة فيها، ولا يمكنك أن تلتقط أنفاسك إلا في لحظة رضىً يمنّون بها عليك، ولا أظن أنّ أحداً في هذا العالم يرغبُ في حياةٍ كهذه!

تعلَّمِ الإفلاتَ حين لا تجد التّقدير، وحدكَ من ستبقى لنفسِكَ!

خُذها عندكَ قاعدة: الموتُ عطشاً خيرٌ من شربةِ ماءٍ في ذُلّ!

القانون 41: الحيُّ أبقى من الميِّت!

تحدّثنَا في القانون الأوّل الذي أسميتُه: أنتَ تستحقُّ فرصةً ثانيةً، عن أنّ الحياة يجب أن تستمرّ، وكان هذا الكلام موجّهاً إلى كلِّ شخصٍ بعينه، أمّا هذا القانون فهو موجّه لأولئك الذين يتدخّلون في حياةِ النّاس! من أسوأ ما يريده النّاس في هذه الحياة هو أن يدفِنُوا المرأة حيّةً بعد موت زوجها، ويدفنوا الرّجلَ حيًّا بعد موت زوجته! وإذا ما سعى الواحد منهما إلى الزّواج بعد وفاة شريكِ عمره جلدَته الألسنُ، ولاكَت لحمَه الأضراس! ولستُ أدري بأي حقٍّ يُنصّبُ المرءُ منهم نفسَه وليّ أمرٍ على النّاسِ، ولا بأيِّ حقٍّ يريدُ أن يُحرّمَ عليهم ما أحلّه اللهُ لهم!

من أسوأ ما يريده النَّاس في هذه الحياة هو أن يدفِنُوا المرأة حيَّةً بعد موت زوجها، ويدفنوا الرَّجلَ حيًا بعد موت زوجته! وإذا ما سعى الواحد منهما إلى الزَّواج بعد وفاة شريكِ عمره جلدَته الألسنُ، ولاكَت لحمَه الأضراس! ولستُ أدري بأي حقٍّ يُنصِّبُ المرءُ منهم نفسَه وليّ أمرٍ على النَّاسِ، ولا بأيّ حقٍّ يريدُ أن يُحرِّمَ عليهم ما أحلَّه اللهُ لهم!

تحدَّثنَا في القانون الأوَّل الذي أسميتُه: أنت تستحقُّ فرصةً ثانيةً، عن أنَّ الحياة يجب أن تستمرَّ، وكان هذا الكلام موجَّهاً إلى كلِّ شخصٍ بعينه، أمَّا هذا القانون فهو موجَّه لأولئك الذين يتدخَّلون في حياةِ النَّاس!

كثيرون يرفضون الزَّواج بعد موت شركاءِ حياتهم، وهذا شيءٌ يرجعُ إليهم، كلُّ إنسانٍ أعلمُ بنفسه وقلبِه وحاجاته، من النَّاسِ من تموتُ رغبته في العاطفة والجنسِ بموت حبيبِه، ولا يجدُ في نفسِه قدرةً على أن يُعطي هذا لأحدٍ آخر!

ولكنَّ النَّاس لا يتشابهون، وكلُّ واحدٍ له قلبٌ مختلفٌ عن الآخر، وحاجةٌ مختلفةٌ عن النَّاس، والأهمّ له قناعةٌ ونظرةٌ أخرى، والحلال ليس فيه عيبٌ، وتعالى الله أن يُشرِّعَ عيباً، وإنَّما نظرةُ النَّاس قاصرةٌ، وفهمهم محدودٌ، وحكمتهم تنقصُها الحكمة!

كانت فاطمةُ بنت عبد الملك زوجةً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فلمَّا مات عمر وانقضتْ عدتُّها، شعرتْ برغبةٍ في الزَّواج، فهويتْ داود بن بشرٍ، وهويَها أيضاً، فقالت لأخيها مَسلَمة: إنِّي اشتهيتُ أن أتزوَّج!

فقال لها: ويحكِ، بعد عمر!

فقالت: لا بُدَّ لي من ذلك!

فقال: إذاً تخيَّري من الأزواج!

فقالت: تخيَّرتُ داود بن بشرٍ!

فتزوَّجها داود، وكان أعور قبيح المنظر فوق ذلك!

وفي هذا قال الشَّاعرُ الأحوص:

أبعدَ الأغرِّ ابن عبد العزيزِ

قريعُ قريش إذا يُذكرُ

تبدّلت داود محتارةً

ألا ذلك الخُلْفُ الأعوَرُ!

هذه فاطمةُ بنت عبد الملك، المرأةُ الوحيدةُ في التّاريخِ الذي أبوها خليفة، وجدُّها خليفة، وزوجها خليفة، وإخوتها خلفاء، وفيها يقول الشّاعرُ:

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جدُّها

أختُ الخليفةِ والخليفةُ زوجُها!

ومع هذا وجدتْ في نفسها حاجةً للزَّواجِ بعد زوجها، فصارحتْ أخاها بذلك، فأنكر عليها أوَّل الأمر لِأنّه لم يتصوَّر أن يخلُفَ عليها رجلٌ بعد عمر بن عبد العزيز، ولكنَّها أصرَّتْ على هذا، فلم يمنعها!

بل وقد تزوَّجتْ بعد عمر من لا يُضاهيه، ولا يأتي شيئاً إذا ما قورنَ به، ولكن هذا حقُّها!

لم يتهمها أخوها بقلَّةِ الوفاء، ولا رماها بعرضها، ولا تطاول عليها بلسانِه كما يتطاول اليوم إخوة الزَّوجة وأسلافها إذا ما أرادت الزَّواج بعد زوجها!

مشكلتنا نحن أننا اخترعنا عاداتٍ ثمَّ جعلناها ديناً، ونريدُ من الناس أن يعتنقوه، وننسى أنَّهم ناس، نريدُ أن ندفنهم أحياءً!

في كتاب اعتلالِ القلوب للخرائطيّ: كانت فاطمةُ ابنةُ الحسين بن علي تحبُّ ابن عمها الحسنَ بن الحسن بن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهم جميعاً وصلى وسلَّم كثيراً على جدّهم، فلما حضرته الوفاة من مرضٍ نزل به، قال لفاطمة: إنكِ مرغوبٌ فيكِ، مُتشَّرفٌ بكِ لا تُتركين، وإنّي واللهِ لا أتركُ في قلبي حسرةً سواكِ!

فقالت له: فإنّي أنتهي إلى ما تأمرني به!

فقال: فلا تتزوَّجي بعدي!

فعاهدته على ذلك!

وماتَ الحسنُ، وخرج عبد اللهِ بن عمرو فيمن شيَّعوه، وكانت فاطمة تلطِمُ وجهها على الحسن، فأعجبته، ووجدَ بها، ونظرَ إليها ونظرث إليه، فأرسل إليها جاريةً له تقول لها: إنَّ لنا في وجهكِ حاجة فارفقي به!

فخمرَّث وجهها، وأرسلث يدها، وتوقَّفث عن اللطم!

فلما انقضث عِدّتها أرسل إليها يخطبها.

فقالث: كيف أصنعُ بأيماني وعهودي؟!

فقال لها: لكِ مني بكلِّ مالٍ مالان، وبكلِّ مملوكٍ مملوكان!

فوفى لها ذلكِ، وتزوَّجها، وكان عبد اللهِ جميلاً وسيماً، وكانت هي من حسناوات نساء زمانها، فولدث له محمَّداً وكان يُلقَّبُ بالديباج من جماله. وولدث له القاسم ورقيَّة أيضاً!

الفكرة أنَّ الأزواج والزَّوجات يكون بينهما في حياتهما معاً عهودُ ومواثيق بعدم زواج أحدهما بعد وفاة صاحبه، وهذه عهود غير مُلزِمة، ومواثيق يمكن خَرقُها، وهذا متروكٌ للشَّخصِ نفسه يُقدِّره بما يراه من نفسِه!

نحن نُعطي المواثيق في لحظات الوفاق، ولكنَّ الحياة يُغيرِّها الموت!

أيضاً ليس من الحكمة أن يقول أحدهما للآخر: لا أعاهدك، إذا متُّ سأتزوَّج!

فإن هذا فيه الكثير من كسر الخواطر، وإفساد ما بين الزَّوجين من الوئام!

فمن شاء أن يجعل عهده ماضياً فهذا شأنه، ومن شاء أن يتزوَّج فهذا شأنه أيضاً، ولا علاقة للنَّاسِ بذلك!

حدَّثَ الزُّبير بن بكارٍ أنَّ عاتكة بنت زيد كانت عند عبد الله بن أبي بكرٍ الصِّديق، وقد أحبَّها حبّا شديداً حتى كادث أن تغلبه على عقله، وتشغله عن تجارته وصلاته،

فأمره أبو بكرٍ بفراقها، ففارقها، وقد وجد من هذا وجداً حتى كاد أن يموت، فأشفقَ عليه أبو بكر، وقبل أن يرجعها، فلما مات عبد الله قالت ترثيه:

آليتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً

عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أغبرا

فاللهُ عينا من رأى مثلَه فتىً

أعفُّ وأمضَى في الهياجِ وأصبرا

فلما انقضت عدَّتُها تزوَّجها عمر بن الخطاب، فأولمَ لها متى دخل بها، ودعا أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا دخلوا قال له عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: أتأذن يا أمير المؤمنين أن أدخل على عاتكة وأكلِّمها.

فقال له: نعم

فدخل عليٌّ وقال لها: يا عَدِيَّة نفسِك، ألستِ القائلة:

آليتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً

عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أغبرا

فبكت، فقال له عمر: ما دعاكَ إلى هذا يا أبا الحسن، كلُّ النساء يفعلنَ هذا!

فلما ماتَ عمر رضي اللهُ عنه قالت ترثيه:

عين جودِي بعبرةٍ ونحيبِ

لا تملِّي على الجوادِ النَّجيبِ

قلْ لأهلِ الضَّراءِ والبؤسِ موتوا

قد سقته المنونُ كأسَ شعوبِ

ثم تزوَّجت بعد عمر بن الخطاب الزُّبيرَ بن العوَّام، وكان الزُّبيرُ غيوراً جداً، وكان يكره أن تخرُجَ إلى المسجد، فاستأذنته ليلةً أن تخرجَ إلى المسجد، فشقَّ عليه ذلك،

وكره أن يمنعها لقولِ رسول الله ﷺ: لا تمنعوا إماء اللهِ مساجدَ الله!

فأذِنَ لها، ثم كمنَ لها في موضعٍ مظلمٍ من الطّريق، فلما مرّث وضع يده على بعض جسدها، فرجعث إلى البيت ولم تكمل طريقها إلى المسجد، وسبقها الزُّبير في عودته، فجاءث فوجدته في البيت، فقال لها: ما ردّكِ؟

فقالث: كنا نخرجُ والنّاسُ ناس، فأمّا اليوم فلا!

فلما مات الزُّبير قالث ترثيه:

إنَّ الزُّبيرَ لذو جلاءٍ صادقٍ

سمحٌ سجيَّته كريم المشهدِ

كم غمرةٍ قد خاضها لم يُثنه

عنها طرادك يا بن أم الفرقَدِ!

فلما انقضث عدَّتها، خطبها عليُّ بن أبي طالبٍ، فقالث له: ما تزوّجتُ رجلاً إلا قُتلَ، وإني لأضنُّ بكَ على القتل. ولم تتزوجه!

هذه عاتكة كان حبُّها لزوجها الأوّل عبد الله بن أبي بكر معروفاً مشهوراً، أحبَّها وأحبته، ومات فحزنث عليه ورثته، ولكنها تزوّجث بعده عمر بن الخطاب، ولمّا ذكَّرها عليُّ بن أبي طالبٍ برثائها لزوجها الأوّل، قال له عمر مقولةً تُكتبُ بماء الذَّهب: كلُّ النّساء يفعلن هذا!

وفعلاً ما من امرأةٍ يموتُ عنها زوجها إلا وتبكيه، وتحزن عليه وترثيه، الموتُ له هيبته، والعِشرة لها حقُّها، ولا أرى حتى أن تُفاتَح المرأة بعد زواجها من آخر بما كان بينها وبين زوجها الأول من حُبٍّ، دعوا الحياة تسير، ودعوا النّاس يعيشون!

ثم تزوجث عاتكة بعد عمر بالزُّبير بن العوام، وبعد وفاته كان من الممكن أن تتزوّج عليّ ابن طالبٍ لولا أنها تشاءمت فرأث أنّ كلَّ زوج لها يموت قتلاً، فكرهث ذلك لعليّ!

كانت الحياة عندهم بهذه البساطة، وكانوا يقيسون كلَّ أمورهم بالحلال والحرام،

فأراحوا واستراحوا، فكونوا مثلهم!

بل ضعُوا أنفسَكم في أماكن النّاس، إنّ أحدكم لا يشعرُ بالنّاس، لأنّ له زوجةً يأوي إليها آخر الليل، ولأنّ إحداكُنّ لها زوجٌ تأوي إليه آخر الليل، فيحسبُ لاكتفائه أنّ كلّ النّاسِ مكتفية، وحده الله يعلمُ كيف تمضي أيّامُ الفاقدين ولياليهم. فلا تُضيّقُوا ما وسّعه الله، ولا تُحرّمُوا على النّاسِ ما أحلّه اللهُ لهم!

القانون 42: كُنْ كبيراً في عينِ نفسِك!

الحياة كلَّ يومٍ تضعنا أمام اختباراتٍ حقيقيَّةٍ للمروءة، وما من ساعةٍ تمضي من اليوم إلا ويجدُ الإنسان نفسه في موقفٍ مهما كان بسيطاً أنَّ بإمكانه أن يتصرَّف بنُبلٍ أو بنذالةٍ! في البيتِ والعمل والطَّريق، وفي مواقع التَّواصل، وفي أفكارنا بيننا وبين أنفسنا حتَّى! وعندما تختار أن تكون نبيلاً وتخسر، ستجدُ أنَّك ربحتَ كثيراً، ربحتَ هذا الاحترام لنفسك، وهو شيءٌ لا يُضاهيه شيءٌ آخر في الدُّنيا!

ولكنِّي جمعتُ لكَ في هذا الباب مواقف النُّبلِ فيما يتعلَّقُ بالحُبِّ والمحبِّين، فكُنْ دوماً كبيراً في عين نفسكَ!

ليس هناك شعورٌ في الدُّنيا يُضَاهي شعور أن يكون المرءُ كبيراً في عين نفسِه! قد تفقد الوظيفة لأنَّك لم تسرق، ولكنَّك تضعُ رأسك على الوسادة وأنت محترمٌ وهذا شعورٌ يُعادِلُ مال الدُّنيا!

قد تحتاجُ شيئاً فتؤثِرُ غيركَ به، شُعور فقدكَ للشَّيءِ لأنَّك لم تأخذه يبدو تافهاً جداً مقارنةً بالشُّعور أنَّكَ أعطيته!

مواقف النُّبلِ نحتاجُ نحن أن نصنعها مع الآخرين أكثر من حاجتهم هم لتلقِّيها.

ولكن بما أنَّنا في حضرةِ الحُبِّ والمحبِّين، فأحببتُ أن أُخصِّصَ هذا المفهوم بمواقف لها علاقة به وبهم!

في كتاب اعتلالِ القلوب للخرائطيِّ: تفقَّدَ الحجَّاجُ بن يوسف الثَّقفيُّ السَّجنَ يوماً، فأُتيَ برجلٍ، فقال له: ما كان جرمك؟

فقال الرَّجل: أصلحَ اللهُ الأمير، أخذتني شُرطتُكَ، وأنا مخبرٌ بخبرِي، فإن يكن الكذب يُنجي فالصِّدقُ أولى بالنَّجاة!

فقال له الحجَّاجُ: ما قصَّتُكَ؟

فقال: كنتُ صديقاً لفلان، وخرجَ اسمُه في البعثِ إلى خراسان، وكانت امرأتُه تهواني وأنا لا أشعُر بذلك، فبعثت إليَّ ذات يوم رسولاً أنْ قد جاءنا كتابٌ من صاحبكَ، فتعالَ لتقرأه! فمضيتُ إليها، فجَعلت تشغلني بالحديث حتى صلَّيتُ المغرب، ثم أظهرتْ لي ما في نفسها منّي، ودعتنِي إلى الفراش فأبيتُ ذلك!

فقالتْ: واللهِ لئن لم تفعل لأصيحنَّ وأقول إنَّك لصٌّ!

فخفتُها واللهِ أيُّها الأمير على نفسي، فقلتُ لها: أمهليني حتى الليل!

فلمَّا صلَّيتُ العتمة، وهدأ النَّاس في الطَّريق، خرجتُ من عندها هارباً، وكان القتلُ عندي أيسر من خيانةِ صاحبي، فلقيني عسسُ الأمير فأخذوني، وقد قلتُ في ذلكَ شعراً!

فقال له الحجَّاجُ: وما هو؟

فأنشدَ قائلاً:

رُبَّ بيضاءَ بضَّةٍ ذاتُ دَلٍّ

قد دعتنِي لوصلِهَا فأبيتُ

لم يكُنْ شأنِي العفافُ ولكن

كنتُ نِدمَان زوجها فاستحيتُ!

فأعجبَ الحجَّاجَ به، وأطلقَه!

هذا موقفٌ عجيبٌ من مواقفِ الوفاء، وهذا رجلٌ أحبَّته زوجةُ صديقه، وحين خرج زوجها للقتالِ وبقيت وحدها، أرسلتْ إلى صاحبه تريده لنفسها فأبى عليها!

وأعجبُ ما في القصَّة أنَّ هذا الرَّجل لم يكن عفيفاً، وكان له في أمورِ الزِّنى شأنٌ، ولكنَّه على رغم هذا أبى أن يخون صاحبه!

لم تهُنْ عليه العِشرة، وراعى الخبزَ والملح، والحُبَّ الذي بينه وبين صاحبه، وقد كان الحبسُ بل القتل أهون عنده من خيانةِ صاحبه!

وإنِّي لأتخيَّله في أوَّل ليلةٍ له في السِّجن، وقد وضع رأسه لينام، فرأى نفسه كبيرةً في عينه، وهذا شعورٌ واللهِ يستحقُّ أن يترك المرءُ الدُّنيا كلّها لأجله!

وفي كتابِ روضة المحبِّين ونزهةِ المشتاقين لابن القيِّم: كان بالمدينة فتىً تُعجِبُ عبادته وتقواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فانصرفَ الفتى ليلةً من صلاةِ العشاء، فاعترضته امرأةٌ في الطريق، وعرضتْ نفسها عليه، ففُتِنَ بها، ومضتْ، فتبعَها، فلمَّا صار على بابها جُلِّيَ عن قلبه. وتذكَّرَ مقامه يوم القيامة بين يدي الله، فخرَّ مغشياً عليه!

فنظرتْ إليه المرأة فإذا هو كالميِّتِ، فلم تزل هي وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره!

فخرجَ أبوه، فرآه مُلقىً على باب الدَّار لما به، فحمله وأدخله، فأفاق!

فسأله: ما بك يا بُنيّ؟!

فلم يُخبره، ولم يزل الأب به حتى أخبره، ثم شهقَ شهقةً ومات!

فبلغ ذلك عمر بن الخطّاب، فقال: ألا كنتم أعلمتموني بموته؟!

فذهبَ حتى وقف على قبره، ونادى، يا فلان: «ولمن خافَ مقامَ ربِّه جنّتان»!

فسمعَ صوتَ الفتى من داخلِ القبر يقول: قد أعطاني ربِّي يا عُمر!

والقصة رواها ابنُ الجوزيّ أيضاً في كتابه ذمُّ الهوى!

وهذا شابٌ تقيٌ عفيفٌ، سار في طريق الله، ويحدث أن تتعثَّرَ خطى السّائرين، فلما تذكَّر أقالَ نفسه عثرتها، وسارع بالعودة إلى ربِّه، فلم تحتملْ روحه النقيَّة هذه اللوثة رغم أنها لم تقع كاملة، فما لبث أن ماتَ!

ولكَ أن تتخيَّلَ نظرته إلى نفسه، وقد وُضِعَ رأسه على التُّراب في قبره، وأُغلِقَ عليه، ثمَّ جاءه الملكان للسُّؤال، فلقياه على هذه العفَّة، وسبحان من يُثبِّتُ الذين آمنوا بالقول الثَّابتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة!

وفي كتاب تزيين الأسواق في أخبار العُشّاق لداود الأنطاكي: اشترى رجلٌ من البصرة جاريةً على أرفع ما يكون من الجمال والفصاحة، فتعلَّقَ بها، وكان ثريًا فأنفقَ عليها ما في يده، حتى إذا افتقرَ ولم يبقَ معه شيءٌ أشارتْ عليه ببيعها شفقةً عليه!

فلما حضرَ بها السُّوق، أشتريتْ لابن معمرٍ، وكان أميراً على البصرة، وكان المبلغ الذي بيعتْ به مئة ألف درهمٍ، فلما أخذ البصريُّ المال وأراد الانصراف، أنشدتِ الجارية:

هنيئاً لكَ المالَ الذي قد حويتَه

ولم يبقَ في كفَّيَّ غير التَّذكرِ

أقول لنفِسي وهي في غشى كربةٍ

أقِلّي فقد بان الحبيبُ أو أكثري

إذا لم يكن للأمرِ عندي حيلة

ولم تجدِي شيئاً سوى الصّبرِ فاصبري!

فاشتد بكاءُ الرَّجل، وأنشدَ:

فلولا قعودُ الدَّهرِ بي عنكِ لم يكن

يُفرِّقنا شيءٌ سوى الموتِ فاصبري

أروحُ بهم في الفؤاد مبَرِّحٌ

أُناجي به قلباً طويل التَّفكرِ

عليكِ سلامُ اللهِ لا زيارة بيننا

ولا وصل إلا أن يشاءُ ابنُ معمَرِ

فبلغَ ذلكَ الأميرُ ابنُ معمرٍ، فدعاه، ثم قال له: خُذها، ولكَ المالُ، واللهِ لا أكون سبباً في فرقة حبيبين!

ضَعْ نفسكَ مكان ابن معمرٍ في هذا الموقف العجيب، وأخبرني كيف هي نظرتُك لنفسك وأنتَ ترى الرَّجل يأخذُ جاريته وينصرفُ عنكَ، وأنتَ الذي أبيتَ أن تُفرِّق بين حبيبين!

إنَّك لا شكَّ وقتها لا ترى أحداً في هذا العالم أرفعُ خُلُقاً منك، ولا ترى ضميراً من ضمائر النَّاس هو أكثر راحةً من ضميرك، كيف لا وقد حُزتَ أرفع رُتبةٍ يمكن أن يحصل عليها المرءُ في هذه الحياة، وهي أن يكون إنساناً!

فكُنْ دوماً كبيراً في عين نفسك!

وفي كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ:

قال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه وعن أبيه: كنتُ أطوف بالبيتِ مع عمر بن

الخطّاب رضي الله عنه وكفّي في كفّه، فإذا أعرابيٌ يحمِلُ امرأةً على ظهره يطوفُ بها، وينشِدُ:

صرتُ لهذي جملاً ذلُولاً موطّأً أتبعُ الشهولا!

فقال له عمر: من المرأة؟

فقال: امرأتي يا أمير المؤمنين!

فقال له عمر: ورب البيتِ لقد جازيتَها!

فقال الرَّجل: يا أمير المؤمنين، ومع هذا فهي حمقاء!

فقال له عمر: فما تصنعُ بها؟!

فقال: حسناً يا أمير المؤمنين، أمُّ العيال فلا أتركها!

فقال له عمر: شأنكَ بها!

وهذا من أغرب ما قرأتُ من حفظ العهود والذِّمة! امرأةٌ فيها حُمقٌ، ونزل بها المرضُ فلا تقدر أن تطوف بالبيت، فحملها زوجها على ظهره وطاف بها، فقط لأنّها أمُّ أولاده، وللعهدِ الذي بينه وبينها!

فإذا ما انقلبتِ الدُّنيا بالنَّاس فلا تغدرْ بالعهود، ولا تهُنْ عليك العِشرة، شعور أنّكَ لم ثُفلِتْ يدكَ، وأنّكَ وفّيتَ لا يضاهيه شيءٌ في هذا العالم، فكُنْ كبيراً في عين نفسك!

الحياة كلَّ يومٍ تضعنا أمام اختباراتٍ حقيقيّةٍ للمروءة، وما من ساعةٍ تمضي من اليوم إلا ويجدُ الإنسان نفسه في موقفٍ مهما كان بسيطاً أنَّ بإمكانه أن يتصرَّف بنُبلٍ أو بنذالةٍ! في البيتِ والعمل والطَّريق، وفي مواقع التَّواصل، وفي أفكارنا بيننا وبين أنفسنا حتَّى! وعندما تختار أن تكون نبيلاً وتخسر، ستجدُ أنَّك ربحتَ كثيراً، ربحتَ هذا الاحترام لنفسك، وهو شيءٌ لا يُضاهيه شيءٌ آخر في الدُّنيا، فكُنْ دوماً كبيراً في عين نفسكَ!

القانون 43: معاً في الحياةِ وفي المَمَاتِ!

من رحمةِ اللهِ بالمحبّين أن يقبضَهم معاً، فلا يحزنُ حبيبٌ على حبيبه، ولا يتلوَّعُ عاشقٌ على معشوقه، ما يفعلُ المرءُ في الدُّنيا وحده؟! إنَّ هذه الأرضَ على اتِّسَاعها تغدو بدون الحبيب أضيق من خُرْمِ الإبرة! لا أثقل من الأيام دون حبيب! يشعرُ المرءُ أنَّه وحده على ظهر هذه الأرض، وكل هذا الزُّحام حوله لا يُعزيه عمَّن فقد، فلمن يعيش من فقد حبيبه، وكيف يعيشُ من غادرته روحه؟!

من رحمةِ اللهِ بالمحبّين أن يقبضَهم معاً، فلا يحزنُ حبيبٌ على حبيبه، ولا يتلوَّعُ عاشقٌ على معشوقه، ما يفعلُ المرءُ في الدُّنيا وحده؟! إنَّ هذه الأرضَ على اتِّساعها تغدو بدون الحبيب أضيق من خُزمِ الإبرة!

في كتابي طرائفُ العربِ، أوردتُ في بابِ طرائف العُشّاقِ قصّةً رواها هشام بن حسّانٍ عن رجلٍ من تميمٍ قال: خرجتُ في طلب ناقةٍ لي، حتى وردتُ على ماءٍ من مياه طَيْءٍ، فإذاً أنا بين عسكرَيْن قد نشبت بينهما دعوةٌ للقتال، ولم تبدأ الحربُ بعد. فإذا أنا بفتىً شابٌ وجاريةٍ في المعسكر، وإذا هو قد سمع نبرةً من كلامها وهو مريض، فرفع صوته وقال:

ألا ما للمليحةِ لا تعُودُ

أبخلٌ بالمليحةِ أمْ صدُودُ

فلو كنتِ المريضةَ كنتُ أسعى

إليكِ ولا يُنهنِهُنِي الوعيدُ!

فسمعتْ صوتَه فخرجتْ تعدو، فأمسكها النّاسُ! ورآها مقبلةً فقام إليها فأمسكه النّاس، فأفلتتْ هي وأفلتَ هو، فالتقيا بين الفريقين، فتعانقا وسقطا ميّتين!

فخرجَ شيخٌ قريبٌ لتلك المرأة من المعسكر، فوقفَ عليهما، ثمَّ بكى واسترجعَ وقال: أما واللهِ لئن كنتما لم تجتمعَا حيَّينِ لأجمعنَّ بينكما ميّتين!

فقلتُ له: يا شيخ من هذين؟

فقال: هذه ابنتي، وهذا ابن أخي، فرّقَ بينهما ما كنا فيه من الخلاف!

ثمَّ أمرَ بهما فدُفنا في قبرٍ واحدٍ! واصطلح القومُ ورجعوا عن الحرب!

هذان الخصمان اللذان كان بينهما قتالٌ هما أهل، إخوةٌ وأبناء عمومة، وعائلة انقسمتْ إلى معسكرين، ومع انقسام العائلة مُنِعَ الأحباب من بعضهما، الفتاة وأهلها في معسكرٍ، والشّابُ وأهله في معسكرٍ، فكيف يلتمُّ الشّملُ وبين القوم حربٌ ودمٌ؟

إنَّ السَّماء بدتْ في تلك اللحظة أقرب من اجتماعهما، وهو مريض ينشِدُ أبياتاً ويستعطفها، وهي تسمع أبياته فيحرِّكها الشَّوقُ فتخرج راكضةً نحوه فيمسكونها، وهو يركض نحوها ليلاقيها فيمسكوه، فأفلتتْ هي، يحدثُ أن يجعلَ الحُبُّ من المرأة جيشاً، ويفلتُ هو رغمَ مرضه يحدثُ أن يُحرِّك الحُبُّ فينا قدراتٍ ما كنَّا نحسبها فينا!

ويتعانقُ الحبيبان بين الصَّفين، وكان صوت الحُبِّ أقوى من طبول الحرب، ولكنَّ الحياة لم تمنحهما أكثر من عناقٍ واحدٍ، ولعلَّ سبب موت كلّ واحد منهما أنَّه عَلِمَ أنه لا محالة مقتول بعد تلك اللحظة، فماتا متعانقين!

وقتها فقط زالت الغشاوة عن عيني أبيها، ولاتَ حين مندم!

ولكنَّ هذا الحُبَّ الذي لم يعِشْ وهبَ الحياة لكثيرين لو وقعتِ المعركةُ لكانوا ماتوا!

وحين لم تجمعهما الحياةُ جمعهما قبرٌ!

وهذا أيسر على الأحباب من أن يُكابدَ أحدهما فقد الآخر، فاللهُمَّ كما جمعتهما في الدُّنيا في قبرٍ معاً، اجمعهما في الجنَّةِ معاً!

وفي كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ، قال الظَّبيُّ: عَشِقَ كامل بن الوضين ابنة عمِّه أسماء، فلم يزل به العشقُ حتى صار كالشَّيء البالي!

وكان بين أبيه وعمِّه شيءٌ، فلما رآه أبوه على هذه الحالة رقَّ له، وذهب إلى أخيه وطلبَ منه أن يزوِّجهما!

ولم يعلم كامل بن الوضين بهذا، وغلبه المرض، ولم يزل يذكر أسماء حتى غلبه الشوقُ فشهقَ شهقةً ومات!

فقيل لها: لقد قتله شوقه إليكِ!

فقالت: واللهِ لأموتنَّ بمثلها، ولقد كنتُ فيه هائمة، وكنت على زيارته قادرةً، فمنعني منها ذِكر الرِّيبة!

ومرضتْ، فلما اشتدَّ بها المرض، قالت لأشفقِ أهل بيتها عليها وكان لها باعاً في

الرّسم: صورّي لي مثاله فإنّي أحبُّ أن أزوره قبل موتي!

ففعلتْ ذلك لها، ولما أعطتها الصُّورة اعتنقتها، وشهقتْ فماتت!

فطلبَ أبو الفتى من أبيها أن يدفنها في قبرٍ قرب قبر ابنه ففعلَ، وكتبَ على قبريهما:

بنفسي هما لم يُمتَّعا بهواهما

على الدَّهرِ حتى غُيِّبا في المقابرِ

أقاما على غيرِ التَّزاور بُرهةً

فلمَّا أُصيبا قَرَبَا بالتَّزاورِ

فيا حسن قبرٍ زارَ قبراً يُحبّه

ويا زورةً جاءت بريب المقادرِ!

ظنَّ كامل بن الوضين ألا أمل له في الزَّواج من أسماء لما بين أبيه وأبيها من الخصومة، فغلبه المرض، وأستبدَّ به الشَّوق، والشَّوقُ يقتلُ أحياناً، وقد كان الرَّجل قتيله!

ماتَ وما علِمَ أنَّ أباه قد ذهبَ ليخطبها له!

وأسماء لم تحتمل الدُّنيا بعده، فماتت بالفقد والشَّوق هي أيضاً!

وحين لم تجمعهما الدُّنيا في بيتٍ جمعتهما المقبرةُ جارين!

إنَّ الحياة دون حبيبٍ لا تُطاق، والموتُ أطيبُ كأسٍ يشربُ منه المرءُ إذا ما غادره حبيبه، إنَّ الحياة التي لا طعمَ فيها الموتُ خيرٌ منها، فاللهُمَّ كما جمعتهما جارين في قبرين، اجمعهما في جنَّتك معاً!

وفي كتاب مصارعِ العُشَّاق لأبي محمَّد جعفر بن أحمد السَّرَّاج: عن محمَّد بن عبيد الله العتبيّ، قال: رأيتُ بالأقحوانة، وهي مدينة قديمة تقعُ في الأردن شمال إربد،

امرأةً نازلةً من عند قبرٍ وهي تقولُ:

فيا قبرُ لو شفَّعتنِي فيه مرّةً

وأخرجتَه من ظلمةِ القبرِ واللّحدِ

فكنتُ أرى هل غيَّرَ التُّربُ وجهَه

وهل عاثَ دودُ اللّحدِ في ذلك الخدِّ؟!

فقلتُ لها: من صاحب القبرِ منكِ؟

فقالت: ابن عمٍّ لي، تزوَّجني ونحن غِدادٌ بماء الحداثة، فكان لا يروى منِّي ولا أشبعُ منه، حتى كان العام الماضي، وغزتنا سُليمٌ وليس في الحيِّ غيري وغيره، فخرجَ يُدافعُ عنَّا، وما برحَ يُقاتِلُ حتى قُتِلَ!

فقلتُ: كم سنةً كنتِ له؟

فقالت: بضعَ عشرة سنة! واللهِ لا شممتُ روح الدُّنيا أكثر من يومي هذا!

فظننتها تهذي، فتركتها ومضيتُ، فلما أصبحتُ رأيتُ جنازةً، فسألتُ عنها، فقيل لي: هذه الجارية التي كانت تُحدِّثك بالأمس عند قبر زوجها!

واللهِ لقد وفتْ لزوجها، وصدقتْ في نفسها!

فقدته منذ عامٍ وكانتْ لا ترى لها حياةً إلا بجانب قبره، تأتيه كل يومٍ تزوره، تُنشِدُ عنده شعراً وتبكي، ووحده اللهُ يعلمُ كيف مرَّ بها ذلك العام، إنَّ أيام الفاقدين ثِقال!

فلمَّا أتمَّ زوجها العام تحت التراب ما عاد بإمكانها أن تحتمل الحياة أكثر، قتلها الشَّوقُ هي الأخرى، قاتله اللهُ كم له من صريعٍ!

ليس كل النَّاسِ يقدرون أن يقلبوا الصَّفحة ويُتابعوا حياتهم، وليسَ كلُّ الأموات يطالهم النِّسيان، البعض وإن رحلوا فإنَّما يرحلون بأجسادهم فقط، أمَّا أماكنهم في القلوب فتبقى كما هي لا تمسُّها يدُ الغياب، ولا تعبثُ بها أصابع الفقد!

كان عاماً ثقيلاً، ولا أثقل من الأيام دون حبيب! يشعرُ المرءُ أنّه وحده على ظهر هذه الأرض، وكل هذا الزُّحام حوله لا يُعزيه عمّن فقد، فلمن يعيش من فقد حبيبه، وكيف يعيشُ من غادرته روحه!

فاللهُمّ اجمعهما معاً في جنّتك!

القانون 44: الحبُّ موضِعُ تَقْدِيرا

النّاس بطبعهم يُحِبُّون الحُبَّ والمحبِّين، وأصحابُ الفِطر السّليمة يُسعدهم أن يجتمع الأحباب دائماً، ألا ترى أنك تسعدُ إذا ما شاهدتَ فيلماً اجتمعَ فيه حبيبٌ بحبيبِه في آخر مشهدٍ، وكذلك ينفطرُ قلبُكَ لو قرأتَ روايةً فكانت خاتمتها تعيسةً فتفرَّق فيها العُشّاق؟!

هذا وهو فيلمٌ، وتلك روايةٌ، وفي الحياة آكدُ ما يكون هذا المفهوم، وأوضح ما تظهرُ هذه الفطرة، فإنَّك تجدُ النّاسَ إذا ما رأوا حبيبين تمنَّوا لهم الزَّواج، ومن النّادر أن يرغب شابٌّ بفتاةٍ فيقفُ أهله ضدَّه، ونحن نعيشُ في زمنٍ تُلْحَقُ فيه الفتاة بهواها!

ولكنَّ الأذى في بعض النّاسِ كامنٌ ولكنّه النّادر لا المألوف!

النّاس بطبعهم يُحِبُّون الحُبَّ والمحبِّين، وأصحابُ الفِطر السّليمة يُسعدهم أن يجتمع الأحباب دائماً، ألا ترى أنكَ تسعدُ إذا ما شاهدتَ فيلماً اجتمعَ فيه حبيبٌ بحبيبه في آخر مشهدٍ، وكذلك ينفطرُ قلبُكَ لو قرأتَ روايةً فكانت خاتمتها تعيسةً فتفرّق فيها العُشّاق؟!

هذا وهو فيلمٌ، وتلكَ روايةٌ، وفي الحياة آكدُ ما يكون هذا المفهوم، وأوضح ما تظهرُ هذه الفطرة، فإنَّك تجدُ النَّاسَ إذا ما رأوا حبيبين تمنَّوا لهم الزَّواج، ومن النَّادر أن يرغب شابٌّ بفتاةٍ فيقفُ أهله ضدَّه، ونحن نعيشُ في زمنٍ تُلْحَقُ فيه الفتاة بهواها!

طبعاً الحياة لا تخلو من شرٍّ ومن شرّيرين، ومن النَّاس من قد اختلطَ الأذى بدمه، فلا يجد له متعةً سوى على آلام النَّاس، ولكن هذا الشَّاذ لا القاعدة، والنَّادر لا السَّائد، والغريب لا المألوف، والأهمُّ أنَّه الفطرة لا عكسها!

في كتابِ روضة المحبِّين لابنِ القيِّم: خرج الخليفةُ المهديُّ إلى الحجِّ، حتَّى إذا كان في موضعٍ من الطَّريق، جلس يتناول طعام الغداء، فأتى رجلٌ من البادية فنادى بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين، إنِّي عاشقٌ!

فقال المهديُّ للحاجب: ويحكَ، ما هذا؟

فقال الحاجبُ: إنسانٌ يصيحُ إنِّي عاشقٌ!

فقال: أدخِلُوه!

فأدخلوه عليه، فقال له: ومن عشقتَ؟

فقال: ابنة عمي!

فقال: وهل لها أب؟

فقال: نعم.

فقال المهديُّ: فما له لا يزوِّجك إيَّاها؟

فقال: ها هنا شيءٌ يا أمير المؤمنين!

فقال: وما هو؟

فقال: إنّي هجينٌ: وأمي ليست عربيّةً!

فقال له المهديُّ: وأيُّ بأسٍ في هذا؟

فقال: إنّه عندنا في البادية عيب!

فأرسلَ المهديُّ في طلب أبيها، فأُتيَ به، فقال له: أهذا ابنُ أخيك؟

فقال: نعم.

فقال له: فما لكَ لا تُزوِّجه ابنتكَ؟

فقال: لأنّه هجينٌ، وهذا عندنا في البادية عيب!

وكان في مجلسِ المهديِّ جماعة من بني العبّاس أهل الحكم والإمارة، فأشار المهديُّ إليهم وقال: هؤلاء كلُّهم بنو العباس، وهم هُجُنٌ، أمّهاتهم من بعض فارس أو الرّوم فما يضرُّهم ذلك؟!

Telegram:@mbooks90

فقال: هو عندنا عيب!

فقال له المهديُّ: زوِّجه إيّاها على عشرين ألف درهمٍ، عشرة آلافٍ للعيب، وعشرة آلافٍ مهرها!

فقال أبوها: على ما يُحبُّ أمير المؤمنين!

هذا خليفة المسلمين، وعلى عاتقه أمور الحكم والسّياسة، وتدبير شؤون الدّولة والخلافة، وفوق هذا هو في طريقه إلى الحجّ، وكلُّ واحدٍ منهما يشغله عن النّظر في أمرِ عاشقٍ جاء يشكو عمَّه!

ولكنّ الحُبّ موضع تقديرٍ في النّاس، والأحبّة موضع تعاطفهم، لهذا أخذ الخليفةُ الأمر على عاتقه وكأنّ هذا العاشق الآتي من البادية بعض ولده!

أرسل في طلب الأب، وناقشه في سبب عدم تزويج ابن أخيه، وأخبره أنّه لا يقدح

في المرء أن تكون أمُه غير عربيّة، فهؤلاء بعض بني عمّه أمهاتهم لسنَ عربيّاتٍ فما علاقة هذا بذاك، وما هي إلا عاداتٌ وأعرافٌ يمكن تجاوزها!

فلما أصرَّ الأبُ على أنّها عاداتهم وأعرافهم، تطوّع أن يدفع المهر منه، فدفع عشرين ألف درهم، عشرة للعيب الذي قاله الأب إنّه في الشّابِّ لأنّه هجينٌ، وعشرة آلاف مهراً للبنت!

هذه فطرة النّاس السّليمة، وعاطفتهم السّويّة، وإنَّ النّبيل من النّاس، الرّحيم من الخَلقِ، لا يهون عليه أن يُفرّق بين عصفورٍ وعصفورة، فكيف يُفرّق بين حبيبٍ من النّاس وحبيبه؟!

بل وقد تجدُ الذي جمع مُحبَّين ببعضها شعرَ بسعادةٍ عارمةٍ كأنّه هو الذي اجتمع بحبيبه، فإنَّ الحُبَّ موضع تقديرٍ!

ومن جميلِ القصص في هذا الباب ما أورده الأنطاكيُّ في كتابه تزيين الأسواق في أخبار العُشّاق، عن محمّد بن صالحٍ العلويّ، وكان من الذين قادوا ثورةً ضدّ المتوكّل، قال:

لمّا خرجنا على المتوكّل، أخذتُ أنا وأصحابي قافلةً من قوافل الحجيج، فجمعنا مالاً ومتاعاً لا يُحصى، وكنتُ قد جلستُ على كرسيٍّ، وأصحابي يجمعون إليّ المال، وإذا أنا بامرأةٍ قد رفعتْ غطاء الهودج فأضاء من جمالها المكان!

فقالت: أين الشّريف صاحب السّريّةِ فليَ إليه حاجة!

فقلتُ: قولي، فإنّي أسمعُكِ!

فقالت: أنا حمدونيّة بنت عيسى بن موسى، وإنّكَ تعلمُ مكاننا عند الخليفة، وأنا أسألك أن تأخذ مني ثلاثين ألفَ دينارٍ فوقَ ما أخذتَ من القافلة، ولكن أسألكَ بفضلك ألا يكشف لي أحدٌ وجهاً!

فناديتُ أصحابي، فلمّا اجتمعوا قلتُ لهم: من أخذ منكم شيئاً من هذه القافلة فأنا خصمه، أُعيدوا إلى النّاس متاعهم!

فأعادوا كلَّ شيءٍ حتى الأطعمة، وسرتُ مع القافلة حتى أبلغتها مأمنها!

فلمَّا ظفرَ بي المتوكِّل وحبسني في مدينة سُرَّ من رأى، دخلَ عليَّ السَّجانُ يوماً، وقال: إنّ بالباب امرأتين من أهلك تريدان الدُّخول عليكَ، ولولا أن دفعتا إليَّ ذهباً كثيراً ما أذنتُ لهما، فقد منع الخليفة أن يدخل عليكَ أحد!

فخرجتُ فإذا أنا بها تلك المرأة في القافلة، ومعها امرأةٌ وجاريةٌ تحملُ شيئاً، فلما رأتني قالت: هو والله!

وبكتْ لمَا أنا فيه من الحبس والقيد، وقالتْ: لو استطعتُ أن أفديك بنفسي لفعلتُ، ولكنّي لن أُقصِّرَ في خلاصكَ ما استطعتُ، وخُذْ هذه النَّفقة، ورسولي يأتيك كلَّ يومٍ بما تريدُ حتى يُفرِّج اللهُ عنك!

ودفعتْ إليَّ مالاً وطعاماً وثياباً!

وانصرفتْ وقد أضرمتْ بقلبي ناراً كانت قد خمدتْ مُذ رأيتها أوّل مرَّةٍ عند القافلة، ولم يزل رسولها يعاودني بالإحسان وملاطفة السَّجان، إلى أن عفا عنّي الخليفة، وقرَّبني منه، وعظُمَ شأني عنده، فخطبتُها من أبيها فمنعني، فكان سجن هواها أعظم عليَّ من السِّجن الذي كنتُ فيه!

فأتيتُ الوزير إبراهيم بن المقتدر فأخبرته بذلك، وكان أبوها ممن يعملُ تحت يده، فركبَ إليه وصحبني معه، فلم يُفارقه حتى زوَّجني بها!

محمَّد بن صالح العلويّ من نبلاء النَّاس، وعِلية القوم، ولكن لكلِّ جوادٍ كبوة، والسِّياسة مقتل الرِّجال، والحُكم مطمحهم، فخرجَ على الخليفة المتوكِّل، وعمل أن يُغيظه، ويُبدد أركان حكمه! ومن قبيح ما فعل أثناء ذلك كان إغارته على قافلة الحجيج التي كانت فيها حمدونيَّة بنت عيسى، فلما رآها أُعجب بجمالها، ودخلت قلبه!

ولمَّا طلبتْ منه أن يحافظ عليها، أطلقَ القافلة كلَّها لأجلها!

ثم دارت الأيام، ووقع محمَّد بن صالح في قبضة الخليفة، ولكن حمدونيَّة لم

تنسَ له معروفه معها، وبما تملك من مالٍ ونفوذ استطاعت أن تصل إليه في سجنه، وتعينه على ما هو فيه، ولعلّه ليس المعروف فقط، وإنّما قد يكون وقع في قلبها كما وقعت هي في قلبه!

ثمّ منَّ اللهُ عليه بالخلاص، وعفا عنه الخليفة، فجاء أباها خاطباً فردّه، فوجد في ذلك ضيقاً أكثر مما وجده من السّجن الذي سجنه فيه المتوكّل!

ولما ضاقت به الدُّنيا قصد الوزير، فسعى في تزويجه منها، وهكذا كان!

وهكذا سيبقى الحُبُّ موضع تقديرٍ من النّاس حتى يرث اللهُ الأرض ومن عليها!

لن تخلو الدُّنيا من أشرارٍ هذا مؤكد، والذين يجدون سعادتهم في كسرِ القلوب سيبقون في كلِّ زمانٍ، ولكنَّ الخير في النَّاسِ لا ينقطع، والفِطرة يستحيلُ أن تفسدَ في غالبيّةِ النَّاس، فقد خُلقوا وهي مجبولة بشحمهم ولحمهم، وستسمعُ وتقرأُ وتشاهدُ بين وقتٍ وآخر كيف أن مواقف الحُبِّ مُقدَّرةٌ، وكيف أنَّ النَّاس تسعى لجمع القلوب، وكيف يسعدها أن تسمع أن حبيباً قد اجتمع بحبيبه!

وحتى آخر الدّهر ستبقى فرقة حبيبين في فيلم مؤلمة، واجتماعهما في نهاية الرِّواية شيئاً مفرحاً، فسبحان من جعل الحُبَّ بعضاً من إنسانيَّتنا!

القانون 45: الغَيرَةُ ثمَرةُ الحبّ اللّذيذة!

الغَيرة ألذُّ ثمارِ الحبّ، إنّها في حالتها السّويّة المتعقّلة تحملُ في طياتها أسمى معاني مكارم الأخلاق، وأرفع قيم الدّفاع عن ممتلكات القلب!

وفي حالتها المرضيّة الشّكاكة جحيم لا يُطاق، ونارٌ لا يحتملها أحد!

الغَيرة ألذُّ ثمارِ الحُبّ، إنَّها في حالتها السّويّة المتعقّلة تحملُ في طياتها أسمى معاني مكارمِ الأخلاق، وأرفعَ قيم الدّفاع عن ممتلكات القلب!

وفي حالتها المرضيّة الشّكاكة جحيم لا يُطاق، ونارٌ لا يحتملها أحد!

ويكفي الغَيرة شرفاً أنّها من صفاتِ الرّبّ تعالى التي أشركَ فيها خلقَه معه! فقد روى مسلمٌ والبخاريُّ من حديث عبد الله بن مسعودٍ أنّ النّبيّ ﷺ قال: ليس شيءٌ أغير من اللهِ من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهرَ منها وما بطنَ، ولا أحدٌ أحبُّ إليه المدح من اللهِ من أجل ذلكَ أثنى على نفسه، ولا أحدٌ أحبُّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرُّسلَ!

وروى مسلمٌ والبخاريُّ أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: إنَّ الله يغارُ، والمؤمنُ يغارُ، وغيرةُ اللهِ أن يأتي المؤمنُ ما حرَّم عليه!

وغيرةُ الحبيبِ على حبيبه نوعان: غَيرةٌ محمودة، وغَيرةٌ مذمومة!

فالغَيرةُ المحمودة هي أن يغار عندما يكون هناك ما يستدعي الغَيرة!

والغيرة المذمومة هي أن يغارَ دونما شيءٍ يستدعي هذا، وهذا النوع أقرب ما يكون من سوءِ الظّنّ والاتهام!

والنوع الثّاني يفسِدُ المحبّة، ويورث النُّفورا بخلاف النّوع الأول الذي يشدُّ أواصر الحُبّ ويقوّيه!

وقد روى الإمام أحمد في المسند من حديث جابر بن عتيكٍ قال: قال النّبيُّ ﷺ: إنَّ من الغَيرة ما يحبُّ الله، ومنها ما يكره الله، فالغَيرة التي يحبُّها اللهُ: الغَيرة في الرِّيبة، والغَيرةُ التي يكرهها الله: الغَيرةُ من غير ريبةٍ!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ: عن عبد الله بن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ وجدَ ماريةَ القبطيّة، وهي حاملٌ بإبراهيم، وعندها نسيبٌ لها قدِمَ معها من مصر، وأسلمَ، وكان كثيراً ما يدخل على أمّ إبراهيم، وأنّه جبَّ نفسه، فقطع ما بين رجليه، حتى لم يبقَ قليل ولا كثير، فدخلَ رسول الله ﷺ يوماً عليها، فوجد عندها قريبها، فوجد

من ذلك في نفسه شيئاً، كما يقعُ في أنفُسِ النَّاسِ، فخرجَ متغيِّرَ اللون، فلقيه عمر بن الخطاب، فعرفَ ذلك في وجهه!

فقال: يا رسول الله، أراكَ متغيِّر اللون؟!

فأخبره ما وقعَ في نفسه من قريبِ مارية!

فمضى عمر بسيفه، فأقبل يسعى حتى دخل على مارية، فوجد عندها قريبها ذلك، فأهوى بالسَّيفِ ليقتله، فلمَّا رأى ذلك منه كشفَ عن نفسه!

فلما رآه عمر، رجعَ إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبره!

فقال النَّبيُّ ﷺ: إنَّ جبريل أتاني فأخبرني أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد برَّأها وقريبها مما وقع في نفسي، وبشَّرني أنَّ في بطنها غلاماً، وأنَّه أشبه الخلقِ بي، وأمرني أن أسميه إبراهيم!

وهذه حادثة من حوادث الغَيرة المحمودة، لأنَّ لها شواهد وقرائن، وهناك دافع لأن تكون! وإلا فإنَّ النَّبيل من النَّاسِ لا يقعُ في عرضه، وليس في الوجود أنبل من النَّبيِّ ﷺ.

ولا تُقبَلُ الغَيرة من الرِّجال إلا ما كان فيها دليل، أو على الأقل ما كان هناك دافع لها، أما غيرةُ النِّساءِ فحلوة لذيذة، ولا يُشترطُ فيها أن تقوم بها الحجج والبراهين، فالمرأة إحساسها معتبرٌ، وهذا الإحساس يُراعى، ولكنه لا يقدح بالرَّجل، بعكس غيرةِ الرَّجل التي تقدح في عرض المرأة إن لم يكن هناك مؤشراتٌ تدعو إلى ذلك، على أنَّه على المرأة ألا تفعل ما يكره الرَّجل ولو رأتْ في هذا شيئاً لا يدعو إلى الغَيرة، فإنَّ مراعاة الخواطر من الحُبِّ!

كان النَّبيُّ ﷺ يقسِمُ المبيت بين نسائه، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ ليلةً، وكانتْ تلك الليلة ليلة عائشة، كان يجلسُ في بيتها وعنده بعض أصحابه الذين كانوا على موعدٍ مع درسٍ عظيم في الحياة الزوجية!

وتطبخُ زينب بنت جحشٍ طعاماً، ولا تطيبُ نفسها أن تأكل حتى تُطعمَ النبيّ ﷺ

منه، فتسكبُ له الطعام في صحنٍ لها، وتُنادي على خادمها ليذهب به إلى النَّبيِّ ﷺ، وهناك أصابَ عائشة ما يُصيبُ الضَّرائر من الغَيرة، إنَّه بِعُرْفِ النِّساء اعتداءٌ على ليلتها، فتضرِبُ يدَ الخادم، ويقع الصَّحن وينكسر، وينسكبُ ما فيه على الأرض!

ضَعْ نفسك مكانه! يا له من موقف مُحرجٍ، زوجتك ترمي بصحنِ طعام أرسلته إليك زوجتك الأخرى أمام ضيوفك! لا شكَّ أنكَ قد شعرتَ بالإهانة، وأول ما ستفكر به أن تثأر لرجولتك، وستُعنِّفها أمامهم مُحاولاً أن تُخبرهم بطريقة غير مُباشرة أنَّك سيِّد البيت ولا ترضى بهذه المهزلة!

ولكن أنظُر إليه كيف تصرَّف، وتعلَّمِ الدَّرس!

جلسَ على ركبتيه، وجمعَ أجزاء الصَّحن المكسور، ولملمَ الطَّعام عن الأرض، وقال لمن حوله مبتسماً: غارتْ أُمُّكُم! ثم أبقى الخادم عنده قليلاً، ريثما تُحضر عائشة صحناً بدل الذي كسرَتْه وتُرسله مع الخادم إلى زينب!

حربٌ زوجية كانت على وشك أن تقع أطفأها بهدوئه واتزانه وفقهه، عِلِمَ أن المرأة تغار في مثل هذه المواقف، وأنَّها متى غارتْ تفقِدُ شيئاً من لياقتها وحُسن تصرفها!

لم يُعنِّفها ليُثبت رجولته، لقد أثبتها بطريقة أخرى، باستيعابه للموقف، باتزانه، وبرجاحة عقله!

إنّ الحياة تضعنا كل يوم أمام مشروع مُشكلة وقطيعة، ردُّ فعلنا هو الذي يجعلها مُشكلة، أو يُطفئ النار قبل أن تشتعل، ومُخطئٌ من يظنُّ أن الحياة الزوجية ساحة حرب عليه أن ينتصر في كلِّ معركةٍ فيها، على العكس إنَّ الحياة الزوجيّة لا تستمر إلا بالتغاضي، تغاضي الرَّجل وتغاضي المرأة، فلو وقفنا عند كل تصرُّفٍ، ولو انفعلنا عند كلِّ كلمةٍ لأصبحت الحياة جحيماً لا يُطاق!

ثم أنظز إليه، إنَّه لا يتغاضى عنها فقط، وإنَّما يلتمس لها العذر، لقد كسرت الصحن بدافع الغيرة! لقد راعى طبعها، فالذي يُريدُ أن ينجح في الحياة عليه أن يفهم طباع النَّاس، ألا يُعامل الزَّوجة بنفس العقليَّة التي يُعامل بها صديقه، وألا يُعامل أولاده بنفس العقليَّة التي يُعامل بها زملاءه في العمل، لكلِّ فئةٍ عمريَّةٍ، وكلِّ طبقةٍ

اجتماعيَّة، طبعٌ ومشاعر مُختلفة عن الأخرى، والذي يتعامل مع الجميع بعقليَّةٍ واحدةٍ كالطبيب الذي يُعالج جميع المرضى بدواءٍ واحد!

الغضبُ يُعمي العقل، فلا تتحاوروا في لحظة غضبٍ، فالحوار في لحظة الغضب كمُحاولة رؤية الإنسان وجهه على صفحة الماء وهو يغلي، دع الماء يبرد ويصفو ثمَّ أنظر إليه، وهكذا هي الحياة الزوجية!

فإن قام في هذه القصّة دليلٌ على غيرة عائشة رضي الله عنها، لأنَّها كرهت مزاحمتها في ليلتها على النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ المرأة تغار حتى من المرأة الميتة!

فقد روى البخاريُّ في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرتُ على امرأةٍ قط ما غرتُ على خديجة من كثرة ذكر النَّبيِّ ﷺ إيّاها، ولقد ذكرَها يوماً، فقلتُ: ما تصنعُ بعجوزٍ حمراء الشِّدقين، وقد أبدلك الله خيراً منها؟!

فقال: واللهِ ما أبدلنِي اللهُ خيراً منها!

ويقول ابنُ القيِّم معلّقاً على هذا الحديث: فانظُر هذه الغيرة الشَّديدة من امرأةٍ بعدما ماتت، وذلك لفرط محبّتها للنَّبيِّ ﷺ فكانت تغار عليه أن يذكر غيرها!

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الغَيرة، وكانت امرأته تخرجُ فتشهد الصَّلاة، فيكره ذلك، فتقولُ له: إنْ نهيتني انتهيتُ!

فكان يسكتُ امتثالاً لقول النَّبيِّ ﷺ: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله! وهو الذي أشار على رسول اللهِ ﷺ أن يحجبَ نساءه، وكان من عادة العرب ألا تحجِبَ نساءها، لنزاهتهم، ونزاهة نسائهم، ثم جاء الإسلام وهم على ذلك، فقال عمر للنَّبيِّ ﷺ: يا رسول الله، لو حجبتَ نساءكَ، فإنَّه يدخل عليهنَّ البَرُّ والفاجر!

فأنزل الله تعالى آية الحجاب!

ويا لعُمر ما أغيرَه من غير ريبةٍ ولا شكٍّ ولا تهمة، فلو رأى من زوجتِه شيئاً ومعاذ الله أن يرى لمنعَهَا من المسجد ولم ينتظر، ولكنّه كان يكره خروجها صيانةً لها، وحبًّا وغيرةً عليها، ولكنّه لم يكن يمنعها، إلا لأنَّه كان يُقدِّم أمر اللهِ ورسوله على هواه

ورغبته!

ولم يكن غيوراً على عرضه فقط، بل كان غيوراً على أعراضِ كلّ المسلمين، وأولهم عرض النّبيّ ﷺ، وأشار عليه أن يحجبَ نساءه، لا خشيةً منهنّ، فهُنّ أطهر من ماء زمزم رضي الله عنهُنّ جميعاً، وإنّما خوفاً عليهنّ من النّاس!

وكلُّ ما ذكرته لكَ هو من محمود الغَيرة، ورفيع خلقها، ما قام صيانةً للمحبوبِ من غير تهمةٍ ولا ريبٍ، غير أنّي ميّزتُ لكَ غيرة الرِّجال عن غيرة النّساء!

ومن مذموم الغَيرة ما ذكره ابنُ أبي حجلة في ديوان الصّبابة، قال:

مما جرى لبعض ملوك بلادِنا، وهو أنّه كان مع نُدمائه المختصّين به في مجلس أنسِه، وجاريته تُغني من وراء الستارة، فأُعجبَ أحد الحاضرين ببيتين كانت قد غنّتهما الجارية، فطلبَ أن تعيدهما!

فقام الملكُ غاضباً، ودخل على الجارية، ثم عاد يحملُ رأسَها في وعاءٍ، وقال له:

استعِدِ الأبيات من هذا الرَّأس!

فسقط ذلك الرّجل مغشياً عليه، ومرضَ مُدّة حياة ذلك الملك!

وإنّما ذكرتُ هذه القصّة لكَ في مذموم الغَيرة ليس لأنّه لم يُقمْ عليها دليل، فقد قام الدّليل، وكان للغيرة باعثٌ، وسؤال النّديمِ الملكَ أن تُعيد جاريته غناء بيتين باعثٌ أن يُحرِّكَ غيرتَه!

وإنّما كانت الغيرة مذمومةً لأن ردّة الفعل لم تكن متناسبة مع الفعل إطلاقاً! فلا تصِلُ الأمور إلى القتل، ثم ما ذنب الجارية وهي تغني من وراء الحجاب ولا علمَ لها بما يدور خلفه، ثم أليس الملكُ هو الذي طلبَ منها أن تفعل هذا؟!

ومن قصص الغَيرة المذمومة أيضاً ما فعله جعفر بن سليمان، وذلك أنّه لما اشترى جاريته الزُّرقاء، وكانت جاريةً نفيسةً غالية الثّمن، وكانت من الفتيات الحِسان ذوات الألحان، فقال لها: هل ظفرَ منك أحدٌ ممن كان يهواكِ بخلوةٍ أو بقُبلة؟!

فخشيت أن يبلغه شيءٌ كانت قد فعلته بحضرةِ جماعةٍ أن يكون قد وصل إليه!

فقالت: لا واللهِ، إلا يزيد بن عون العباديّ قبلّني، وقذفَ في فمي لؤلؤةً بعتها بثلاثين ألف درهم!

فلم يزلْ جعفر بن سليمان يطلب يزيد بن عونٍ ويحتال له، حتى وقع في يده، فضربه بالسّياط حتى مات!

وإنّما كانت هذه القصّة من مذموم الغَيرة لأنّ جعفر بن سليمان قد غارَ من شيءٍ كان قبل أن يشتري الجارية! وما يظنُّ الذي يشتري جاريةً كانت لمن قبله، فمن الطبيعيّ أن يكون قد نال منها ما ينال المرءُ من جاريته، وما كان ينال جعفر نفسه منها!

وكذلك الذي يرتبطُ بأرملةٍ أو مطلّقةٍ، فليس له أن يسألها عن حال زوجها السّابق معها، فإنّ ما يكون بين الأزواج معروف، وهذا فيه جرُّ الأسى على النّفس، بالإضافة أنّه من كشف الأسِرار واجترارِ الماضي، وتطاول الإنسان على ما ليس له به شأن!

تُفهَمُ الغيرةُ من الزّوج الحاليّ إذا ذكرت المرأة زوجها السّابق، أما أن يقوم هو يبحثُ ويتحرّى فهذا ليس من أخلاق الرّجال!

وهو أيضاً ليس من المروءة مطلقاً، وهو مكروه أن تفعله النّساء أيضاً، دعوا الماضي فقد مضى، ولا تنبشوه فإنّ نبشه لا يجرُّ إلا الأسى!

القانون 46: الظُّرُوف حجّة، من أرادَ استطاعَ!

لستُ أُنكرُ أنّ في الحياة ظروفاً قاهرةً تمنعُ النّاس من إدراك غاياتهم، ولستُ أُنكرُ قبل هذا أنّ للهِ تعالى في خَلقِه أقداراً، وما لم يشأ سبحانه أن يكون، فلن يكون ولو سعى العبدُ إلى غايته كلَّ السّعي! ولكن هذا من باب القليل النّادر لا من باب الكثيرِ الغالب، وإلا فإنّ الله تعالى جعلها دار أسباب، والآخذون بالسّبب البالغ فيهم حاجته أكثر بكثيرٍ من الخائب فيها!

الذين وصلوا سلكوا الدُّروب الموصلة، والذين انتصروا خاضُوا الغمار وحاربُوا، فلا تستسلمْ عند أوّلِ ضربةٍ، ولا تتوقف عند أوّلِ بابٍ مغلقٍ!

لستُ أنكرُ أنّ في الحياة ظروفاً قاهرةً تمنعُ النّاس من إدراك غاياتهم، ولستُ أنكرُ قبل هذا أنّ للهِ تعالى في خَلقِه أقداراً، وما لم يشأ سبحانه أن يكون، فلن يكون ولو سعى العبدُ إلى غايته كلَّ السّعي! وقد ينالُ المرءُ أيضاً ما لم يسعَ له، وبين فينةٍ وأخرى يُرينا الله تعالى هذه المواقف ليُذكِّرنا أنّ الأسباب تجري على النّاس لا عليه جلّ في علاه، وأنّ له الأمر من قبل ومن بعد وما بينهما!

ولكن هذا من باب القليل النّادر لا من باب الكثيرِ الغالب، وإلا فإنّ الله تعالى جعلها دار أسباب، والآخذون بالسّبب البالغ فيهم حاجته أكثر بكثيرٍ من الخائب فيها! ثم إنّنا لا نعرفُ نصيبَنا من القدر إلا بعد أن يقع، دورنا نحن أن نسعى موقنين أن الله يُيسّرُ دربَ السّعاة، ثم نُسلِّمُ له بعد ذلك بالذي شاء سبحانه أن يقضي به!

أما أن يجلس أحدُنا واضعاً يده على خدّه عاجزاً، لا سعيَ له في شيءٍ من أمانيه، مُتذرّعاً بصعوبة الظُّروف حيناً، وبالأقدار حيناً آخر، فهذا ليس فيه فهم سُننِ الله في الكون، ولا كمال الإيمان!

الذين وصلوا سلكوا الدُّروب الموصلة، والذين انتصروا خاضُوا الغمار وحاربُوا، فلا تستسلمْ عند أوّلِ ضربةٍ، ولا تتوقفْ عند أوّلِ بابٍ مغلقٍ!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ، عن أبي الفضل بن عديّ قال: كان فينا رجلٌ له ابنةٌ شابّةٌ جميلةٌ، وكان له ابنُ أخٍ يهواها وتهواه، فمكث بذاك دهراً، ثم إنّ الجارية خطبها بعض الأشراف، فأرغبَ في المهر وزاد فيه، فوافق أبو الجارية، واجتمع القوم للخطبة!

فقالت البنت لأمِّها: يا أمي، فما يمنعُ أبي أن يزوِّجني من ابن عمي؟

فقالت لها: أمرٌ كان مقضّياً!

فقالت البنت: واللهِ ما أحسنَ، ربّاه صغيراً ثم يدعه كبيراً!

ثم قالتْ لأمها: يا أمّاه، إنّي واللهِ حامل، فاكتمي إن شئتِ أو بوحي!

فأرسلتِ الأمُّ إلى الأب فأخبرته، فقال لها: اكتمِي هذا الأمر، ثمّ خرج إلى القوم

فقال لهم: إني كنتُ قد رضيتُ خطبتكم، وإنَّه قد حدث أمرٌ رجوتُ فيه الأجرَ، وأنا أشهد أنِّي زوَّجتُ ابنتي فلانة من ابن أخي فلان!

فلما انقضى ذلك، قال الأبُ: ادخِلوها عليه!

فقالت: أنا بالرَّحمن كافرةٌ إن دخل عليّ قبل سنة، أو يتبيَّن حملي!

فما دخلَ عليها إلا بعد سنة، فعلم أهلها أنَّها احتالت على أبيها!

وإنَّما القصص كالأمثال بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبب، وإنَّما أردتُ منها العبرة لا التَّفاصيل، والشَّاهد فيها أنَّ هذه البنت لم ترضَ أن تُزفَّ إلى غير حبيبها، فلم تضعْ يدها على خدِّها، ولم تستسلمْ للذي أراده أبوها، وإنَّما احتالت في الأمر حيلةً جعلها نهاية الأمر تصل إلى مبتغاها!

وإنِّي إنَّما أريدُ أن أقول إنَّه حتى حين تُغلق الأبواب هناك نوافذ يمكن الدُّخول منها، وحين تسَدُّ الطَّريقُ حتماً هناك طريقٌ أخرى يمكن أن يلتفَّ منها المرء ليبلغ وجهته، وكل إنسانٍ أخبر بنفسه وظروفه وطرُقِه، المهمُّ أن يسعى وحتى إن لم يصلْ، على الأقل يكفيه شرف المحاولة!

في كتاب الأغاني للأصبهانيّ عن الزُّبير بن بكَّارٍ قال:

كان السَّريُّ بن عبد الرَّحمن يهوى امرأةً، ويُشبِّبُ بها، ولا سبيل له في الوصول إليها، وكان قد بلغها بعض ما كان يقول فيها!

فخرجَ يوماً يمشي فرآها مع نسوةٍ في ذلك الموضع، فقال لراعٍ في غنمٍ له: أعطِني عباءتك وعصاكَ، واتركني في غنمِكَ وتنحَّ عني!

وأعطاه مالاً لذلك، وخرجَ السَّريُّ يمشي في الغنم حتى دنا من النِّسوة ودنونَ منه، وهي تظنُّه راعي الغنم، فجعلَ يبحثُ بعصاه في الأرض، فقُلنَ له: يا راعي، أضاعَ لكَ شيء؟

فقال: نعم!

فقُلنَ: وما هو؟

فقال: قلبي!

فعرفته المرأة حين قال هذا، فضربت بكفّها على وجهها، وقالت: هذا السّريّ أخزاه الله تعالى!

فقال السّريّ:

يا مسكُ رُدّي فؤادَ الهائمِ الكَمِدِ

من قبل أن تطلبِي بالعقلِ والقَودِ

أمّا الفؤاد فشتّى قد ذهبتِ به

فلا يضرُّكِ ألا تُحزِني جسدي

حُزتِ الجمالَ ونشراً طيباً أرجاً

فما تشمّين إلا مِسكّة البلدِ!

وحدّثوا الخليفةَ المهديّ بالخبرِ فاستظرفه، وأنشدوه الشّعر فاستلطفه!

وكأنّي بالسّريّ يومذاك قد استراح، لأنّ الواحد منّا أن يسعى فلا يصل خيرٌ له من أن يبقى عاجزاً يقولُ في نفسه: لو أنّي سعيتُ!

وهو سعى سعياً أعجب الخليفة، فلما لم يكن للوصول إلى من أحبّها من سبيلٍ، عمد إلى الحيلة، فتبادل مع الرّاعي ثيابه، ومثّلَ كأنّه يبحثُ في الأرض عن شيءٍ أضاعه، فلمّا سألوه عمّا أضاع، أخبرهم أنّه قد أضاع قلبَه وهو يبحثُ عنه!

هناك دوماً محاولةٌ أخيرةٌ يشعرُ المرءُ بعدها بالرّاحة حتى وإن باءت هذه المحاولة بالفشل! أن يعرف الإنسان النّتيجة ثم يطوي الصّفحة، ويبحثُ عن حياته أفضل بكثير من أن يقف مكانه يُمنّي نفسه الأماني، ثم وما أدراه لعلّ في هذه المحاولة يكون له بلوغ حاجته؟!

ولكن يبقى الكلام هنا على ما قلته أوّلاً، لستُ أقول لكَ إفعَلْ فِعله، ولا أقول لك

أتركُ أمره، إنَّما العبرة أن تعرف أنَّ الظُّروف يمكن التَّحايل عليها بدل الاستسلام لها!

وفي مقارعة الظُّروف، والتَّحايل عليها، ما قرأته في أكثر من كتابٍ، وأُحيلها على كتاب اعتلالِ القلوب لأنَّه آخر ما قرأتُ، أنَّ كُثيِّر عَزَّة لقيَ جميل بُثينة، فقال له: متى كان آخر عهدك ببثينة؟

فقال له: ما ليَ بها عهدٌ منذ عامٍ وهي تغسِلُ ثوباً بوادي الرُّوم!

فقال له كُثيِّرٌ: أتحبُّ أن أعدها لك الليلة؟

فقال: نعم.

فأقبلَ كُثيِّرٌ راجعاً إلى بُثينة، فقال له أبوها: ما ردَّكَ أما كنت عندنا قبل قليل؟

فقال: بلى، ولكن قد حضرنِي أبياتٌ قلتُها في عزَّة!

فقال: وما هي؟

فقال:

فقلتُ لها: يا عَزُّ أرسلَ صاحبي
على نأيِ دارِي والرَّسولُ توكَّلُ
بأن تجعلِي بيني وبينكِ موعداً
وأن تخبرينِي ما الذي فيه أفعلُ
أما تذكرينِي العهدَ يوم لقيتكُم
بأسفلِ وادي الرُّوم والثَّوبُ يُغسَلُ

فقالتْ بُثينة: اختبأ!

فقال أبوها: ما هاجكِ يا بُثينة؟

فقالتْ: كلبٌ لا يزال يأتينا من وراء هذا الجبل بالليل، وأنصافِ النَّهار!

فرجع كُثيِّرُ إلى جميلٍ وقال له: قد وعدتكَ من وراءَ هذا الجبل بالليل وأنصافِ النَّهار فالقَهَا إذا شئت!

وهذه القصّة تُؤكِّدُ ما بدأتُ به هذا القانون، وتدعَمُ ما قلتُ في أثنائه، لا كُثيِّرٌ تزوَّج عزَّة، ولا جميلٌ تزوَّج بثينة، سَعيًا كلَّ السَّعي، ولكن للهِ الأمرُ والحُكم، وكم من ساعٍ ليس له من سعيه إصابة!

ولكن في المقابل هو سعيٌ ومحاولةٌ لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، فلستُ أمدحُ لك ولا أذمُّ، وإنَّما هذه القصص كانت فاكهة المجالس، وضيافة السَّمر، تُروى عند أكابرِ القوم، ويحملها النَّاس جيلاً بعد جيل، ولا خيَّبَ اللهُ سعيَ حبيب!

القانون 47: إِتبعْ قلبك، ولكن خُذْ عقلك معك!

هناك فارقٌ شاسع بين الجرأة وبين التّهور، وبين السّعي المحمود والسّعي المذموم!

فإنَّ السّعيَ المحمود إنَّما فيما يكون فيه أمل، وفيما يحلُّ للمرءِ أن يسعى فيه وإليه، أما غير ذلك فقد صارت المحاولة اعتداءً على أعراض النّاس، وهتكاً لأستارهم!

الكثيرُ من المحاولاتِ ليسث إلا مغامرةٌ غير محسوبةِ العواقب، وكما قالت العرب: من حسبَ سَلِمَ، وبمفهوم المخالفة فإنَّ من لم يحسِبْ لم يسلمْ!

لا شكَّ أنَّكَ لاحظتَ، كما أخبرتُكَ في المقدّمة، أنَّ القوانين في هذا الكتاب غير مرتبطة ببعضها، فكلُّ واحدٍ منها هو فكرةٌ مستقلّة بذاتها، بحيث لو وضعنا قانوناً مكان آخر لم يُؤثِّر ذلك على شيءٍ في مضمون الكتاب. ولكنّي تعمّدتُ أن أضع هذا القانون الذي أسميتُه: اِتبعْ قلبكَ ولكن خُذْ عقلكَ معكَ، مباشرةً خلف القانون السّابق الذي أسميتُه: الظُّروف حُجّة من أرادَ استطاع!

لا لشيءٍ سوى أنّي أردته أن يكون نقطة نظامٍ لما سبقه، حتى لا يُفهم أنَّ على الإنسان أن يحاول بأيِّ طريقةٍ ولو كانت هذه الطَّريقة حمقاء!

الكثيرُ من المحاولاتِ ليستْ إلا مغامرةً غير محسوبةِ العواقب، وكما قالت العرب: من حسبَ سَلِمَ، وبمفهوم المخالفة فإنَّ من لم يحسِبْ لم يسلمْ!

يقول الخرائطيُّ في كتابه اعتلال القلوب: حدّثني محمّد الفِريانيّ، قال: حدّثنا إسحاق عن أبي مسهرٍ قال: نشأ وضّاحُ اليمن هو وأمُّ البنين صغيرين فأحبّها وأحبّته، وكان لا يصبرُ عنها، حتّى إذا بلغتْ مبلغ النساء حُجبتْ عنه، فطال بها البلاء.

وحجَّ الوليد بن عبد الملك، فبلغه جمال أمِّ البنين وأدبها، فتزوَّجها ونقلها معه إلى الشَّام!

فذهبَ عقلُ وضاحٍ عليها، فجعلَ يذوب وينحَلُ، فلمَّا طال عليه البلاء، خرج إلى الشَّام وجعل يطوفُ بقصرِ الوليد بن عبد الملك كلَّ يومٍ، ولا يجد حيلةً حتى رأى يوماً جاريةً فلم يزل يحادثها حتى اطمأنتْ إليه، فقال لها: هل تعرفين أمَّ البنين؟

فقالت: إنَّكَ تسأل عن مولاتي!

فقال لها: إنَّها لابنة عمِّي، وإنَّها لتفرح لو أخبرتها بي!

فقالتْ: سأخبرها!

فمضت الجارية، وأخبرت أمَّ البنين، فقالتْ لها: ويحكِ أهو حيٌّ؟

فقالت لها: نعم.

فقالتْ أمُّ البنين: قولي له: كُنْ مكانكَ حتى يأتيكَ رسولي، فلن أدعَ الاحتيال لك!

فاحتالت إلى أن أدخلته إليها في صندوقٍ فمكث عندها حيناً، حتى إذا أمنته أخرجته فقعدَ معها، وإذا خافت عين الرَّقيب أدخلته الصُّندوق!

فأُهديَ يوماً للوليد بن عبد الملك جواهر، فقال لبعض خدمه: خُذ هذه الجواهر فامضِ بها إلى أمِّ البنين، وقُل لها: أُهديَ هذا إلى أمير المؤمنين، فاختصَّكِ به!

فدخل الخادم على أمِّ البنين دون أن يستأذنَ فرأى وضّاحاً معها، فلمحه، ولم تشعر بذلك أمُّ البنين، وبادر هو إلى الصندوق فدخله، فأدَّى الخادم الرِّسالة، وقال لها: هبِي لي من هذه الجواهر جوهرةً!

فقالت له: وما تصنعُ أنتَ بهذا؟

فخرجَ من عندها وهو عليها غضبان، وجاء إلى الوليد فأخبره بالخبر، ووصف له الصندوق الذي رآه دخله!

فقال له الوليد: كذبتَ!

ثمَّ نهضَ الوليدُ مسرعاً، فدخل عليها، وهي في ذلك البيت وفيه صناديق كثيرة، وجلسَ على الصُّندوق الذي وصفه له الخادم، وقال لها: يا أمَّ البنين: هبِي لي صندوقاً من صناديقكِ هذه!

Telegram:@mbooks90

فقالت له: يا أميرَ المؤمنين، هي وأنا لكَ!

فقال: ما أريدُ غير هذا الصُّندوق الذي تحتي!

فقالت: يا أمير المؤمنين إنَّ فيه شيئاً من أمور النِّساء!

فقال: ما أريدُ غيره!

فقالت: هو لكَ!

فأمرَ به فحُمِلَ، ودعا بغلامين فأمرهما بحفر بئرٍ، فحفرا حتَّى إذا بلغا الماء، وضع الصُّندوق فيه، وقال: أيُّها الصُّندوق، قد بلغنَا عنك شيءٌ، فإن كان حقًّا فقد دفنَّا خبركَ ومحينا أثركَ، وإن كان كذباً فما علينا في دفن صندوقٍ من خشب!

ثم أمرَ بالتُراب فأُلقيَ فوق الصُندوق، حتى ردمَ البئرَ!

فكانت أمُّ البنين تُرى في ذلك المكان تبكي، إلى أن وجُدث فيه يوماً مكبوبةً على وجهها ميتة!

مغامرةٌ غير محسوبةٍ، وسعيٌ غير مشكورٍ، وجهد مبذولٌ في غير مكانه، ومحاولةٌ انتهت بكارثة إذ غابَ عنها حساب الأمور، وتقدير العواقب! فإنَّ السّعيَ المشكور إنَّما فيما يكون فيه أمل، وفيما يحلُّ للمرءِ أن يسعى فيه وإليه، أما غير ذلك فقد صارت المحاولة اعتداءً على أعراض النَّاس، وهتكاً لأستارهم!

امرأةٌ زُفّت إلى غيرك فما شأنك وشأنها بعد الآن، إنَّ قلبكَ لك، وليس لأحدٍ أن يقول لكَ أمِث ما فيه، ولكنَّ الشُعور شيءٌ، والعملُ بحمقٍ لإحياءِ هذا الشعور بالوصل شيءٌ آخر!

ثم لو كان السّعيُ إلى امرأةٍ عند رجلٍ من العامّةِ لكان سعياً مذموماً، فكيف إذا كان السّعي عند زوجة الخليفة!

لقد جرَّ هذا السّعيُ موتاً فظيعاً، ونهايةً كارثيّةً!

هو تجرَّأ من حيث ما كان يجب له أن يتجرَّأ، وهي سهَّلت له الوصول إليها من حيث ما كان يجب لها أن تفعل! هو تطاول على عرض الخليفة، وهي لم تحترم عرض الرَّجل الذي هي عنده!

وهنا بالضبط الفارق بين هذا القانون والقانون الذي سبقه، فكان يجب وضع النقاط على الحروف، وتبيان ما يمكن السّعيُ فيه، وما هو من العيبِ السّعي فيه!

ومن قصص السّعي الأخرق غير محسوب العواقب أيضاً، ما رواه ابنُ الجوزيّ في كتابه ذمُّ الهوى، قال: ضلَّت ناقةٌ لفتىً من بني تميم، فخرجَ إلى حيّ بني شيبان ينشُدُها، فأبصرَ فتاةً كأنَّها الشّمسُ حُسناً وجمالاً، فعشقها عشقاً مبرحاً، فرجعَ إلى قومه وقد أذهبتْ عقله، فما تمالك نفسه فرجعَ إلى حيِّهم!

فلما هدأ الليلُ قال: لعلِّي أُسَكِّنُ بالنَّظر إليها بعض ما بي، فأتاها وهي جالسة،

وإخوتها نيامٌ حولها، فقال لها: يا قُرّة عيني، قد أذهبَ الشّوقُ عقلي، وكدّر عيشي!

فقالت له: إمضِ وإلا نبّهتُ إخوتي فقتلوكَ!

فقال لها: إنّ القتل أهون عليّ من الذي أنا فيه!

فقالت: وهل يكون شيءٌ أشدَّ من القتل؟

فقال: نعم، ما أنا فيه من حُبّكِ!

فقالت: وما تشاءُ؟

فقال: أمكنيني من يديكِ حتى أضعها على قلبي، ولكِ عهد اللهِ أنّي أذهبُ!

ففعلت، فوضعَ يدها على قلبه، ثمّ ذهب!

فلمّا كانت الليلة التي بعدها، عاد إليها فوجدها على مثل حالها، فقالت له مثل قولها الأول: امضِ وإلا نبّهتُ إخوتي فقتلوك!

فقال: أمكنيني من شفتيكِ حتى أرشفها وأنصرف!

فلما فعلت ذلك وقعَ في قلبها منه كهيئةِ النّار، فأقبلت تلقاه كلّ ليلة!

فعلمَ أخوتها بالخبر، وقالوا: ما لهذا الكلب يأتينا في أختنا؟

فقعدوا لطلبه في ليلتهم تلك، فأرسلت إليه أنّ القوم يريدونك فكُنْ على حذرٍ، وإيّاك والغفلة!

فجاءتِ السّماء بمطرٍ حال بينهم وبين طلبه، ثمّ انجلتِ السّحابُ، وطلع القمر، فتطيّبت ونشرت شعرها، وأُعجبت بنفسها، واشتهت أن يراها على تلك الحال، فقالت لصاحبةٍ لها كانت قد أطلعتها على شأنها: يا فُلانة، أسعدينِي برفقتك على المضيّ إليه!

فخرجتا تريدانه، وهو على الخيلِ خائف من الطّلب الذي حذّرته منه، فبصرَ شخصين يسيران في ضوء القمر، فلم يشكّ أنّهما من إخوتها، فانتزع سهماً وأصاب به

قلب حبيبته، فسقطت على وجهها مضرجة بدمها، ولم تزل تضطربُ حتى ماتت!

فجاءها، وعرف أنَّه قد قتلها، فأخرج سكّيناً، وقطع به أوداجه، ومات فوقها!

هناك فارقٌ شاسع بين الجرأة وبين التَّهور، وبين السَّعي المحمود والسَّعي المذموم، وأيُّ تهوُّرٍ وسعيٍ مذمومٍ في أن يأتي رجل إلى امرأةٍ يحبُّها وأخوتها حولها نيام! فقد وضع روحه على المحكّ، ووضع شرف وسمعة التي يحبُّها في أدنى منزلةٍ تُوضع فيه الأعراض!

وإنّ الحُبّ الذي أحبَّها إياه ليس من موضع شكٍّ، واضحٌ جداً أنَّه أحبَّها فعلاً، ولكنّنا نُحاكم التَّصرف لا الشُّعور، وقد اتَّفقنا سابقاً أن الحُبّ لا يُبرر كلَّ شيء!

وفي القصَّة درسٌ عظيمٌ للفتيات، وهو إغلاق الباب أمام أوّل محاولة ابتزاز، لأنَّ الشَّخص المبتزَّ لن يتوقَّف أبداً، وكلمَّا أخذ شيئاً أراد ما هو أكثر منه، وللأسف فإنَّه مع كلّ ابتزازٍ ناجحٍ يُصبح هو أقوى وتلك الفريسة المسكينة أضعف!

كما أنَّنا رأينا في القصَّة أنَّ إجابتها للابتزاز العابر نشأ عنه بعد ذلك علاقة حُبٌّ انتهت بموتِهَا!

الجُرأة محمودةٌ في مواضعها، فلو ألقى إنسانٌ نفسَه من أعلى جبلٍ لكان في عداد الحمقى المتهوِّرين لا في عداد الشُّجعان، وهذهِ كتلك، وربما ألقى الإنسان نفسَه في موقف يكون أشدّ عليه من إلقاءِ نفسِه من أعلى جبل!

القانون 48: هو حبيبٌ واحِدٌ أمّا غَيره فَلا!

الارتباطُ بعد الحبيبِ لا يتنافَى مع الوفاءِ أبداً، وهذا شيءٌ متروكٌ لكلِّ شخصٍ يُقدّره بحسب ظروفه وحاجاته، فمن شاء أن يرتبط فهذا حقُّه، ومن شاء أن يعيش على ذكرى حبيبه فإنَّك لا تعلمُ ما الذي في قلبه، البعض لا تنبضُ قلوبهم إلا لشخصٍ واحد، فإذا فقدوه صارَ القلبُ عضلةً لضخِّ الدَّم ليس إلا!

الارتباطَ بعدَ الحبيبِ لا يتنافَى مع الوفاءِ أبداً، وقد فصّلتُ في هذا المفهوم تفصيلاً في القانون الأوّل من الكتابِ، وعرّجتُ على شيءٍ من هذا في قانون، الحيّ أبقى من الميّت! وهذا شيءٌ متروكٌ لكلِّ شخصٍ يُقدِّره بحسب ظروفه وحاجاته، فمن شاء أن يرتبط فهذا حقُّه، ومن شاء أن يعيش على ذكرى حبيبه فإنَّك لا تعلمُ ما الذي في قلبه، البعض لا تنبضُ قلوبهم إلا لشخصٍ واحد، فإذا فقدوه صارَ القلبُ عضلةً لضخِّ الدَّم ليس إلا!

كانت الرَّبابُ بنتُ امرئِ القيس زوجةً للحُسينِ رضي الله عنه، فلما أستشهدَ خطبها الأشراف من قريشٍ، فقالتْ: لا يكوننَّ لي زوجٌ بعد الحُسين، ولا حموٌ بعد رسول اللهِ ﷺ!

يقولُ ابنُ حزمٍ في طوق الحمامة: حدَّثتني امرأةٌ أثقُ بها أنَّها رأتْ في دار محمَّد بن أحمد بن وهبٍ جاريةً رائعةً جميلةً، كان لها مولىً فجاءته المنيَّةُ ومات، فبيعتْ حين قسموا تَرِكَتَه، فأبتْ أن ترضى الرِّجال بعده، وما جامَعَها رجلٌ إلى أن لقيت اللهَ عزَّ وجلَّ، وكانت تُحسِنُ الغناء فأنكرتْ علمها به، ورضيتْ بالخدمة وعمل البيت، وفاءً منها لمن أحبَّته فمات!

وقد حاول سيِّدها محمد بن أحمد بن وهبٍ أن يضمَّها إلى فراشه مع سائرِ جواريه، ويُخرجها مما هي فيه من الخدمة وعمل البيت فرفضتْ! فضربها غير مرَّةٍ، وأوقع بها الأذى، فصبرتْ على ذلك كلّه، وأقامت على امتناعها، وما مسَّها بعد سيِّدها الأوَّل رجلٌ حتى ماتتْ!

وهذه القصَّة من أبلغ ما قرأتُ في هذا الباب، وسبب قولي هذا أنَّ المرأة أَمَةٌ مملوكَة، وجاريةٌ تُباع وتُشترى ولا تملكُ أمرها كالحرائرِ من النّساء اللواتي يملكنَ أمرهنَّ! فإنَّ الحُرَّة تمتنعُ وهي عزيزةٌ مُكرَمَة، أمَّا هي فامتنعتْ رغم أنَّ امتناعها كلّفها الأذى والإذلال، فقد اختارتْ الخدمة وعمل البيت وأن تبقى على ذكرى حبيبها الأول، على أن تخرج من هذا كله وتكون في النعيم، فاختارت أن تبقى على عهد قلبها!

في كتاب تزيين الأسواق لداود الأنطاكيّ: نشأ في بني حرّان شابٌ لبعض التُّجار يُدعى واصفاً، وكان كامل الحُسنِ والظُّرفِ واللطافة والعفّة، وكان له ابنة عمٍّ تُسمّى

لطيفة، وكانت على أرفع ما يكون من مراتب الجمال، ومحاسن الأخلاق والخصال، فتوفي أبوها، وتركها صغيرةً، فكانت في كفالة عمِّها حتى بلغت، وكانت تنظرُ إلى ابن عمِّها فيعجبها إلى أن تمكّن حبُّه منها، فمرضتْ وهي تكتمُ أمرها، وكانت امرأة عمِّها امرأةً فطنةً ذكيّةً مجرِّبةً للأمور، فامتحنتها فوجدتها تغيبُ عن حسِّها أحياناً، فإذا دخل الغلام صحت والتمستْ ما تأكل، فأخبرتْ أباه!

فقال: يا لها من نِعمةٍ، والأمرُ يسيرٌ!

فزوَّجها من ابنه، فأوقع اللهُ تعالى حبَّها في قلبه، فأقاما على أحسن حالٍ، وهو يأمرها أن تكون دائماً متزيِّنةً متطيِّبةً، ويقول لها: لا أحبُّ أن أراكِ إلا هكذا!

ثم دارت الأيَّام ومرض الشَّابُ ومات! فحزنتْ عليه وفقدتْ عقلها، فكانت تتزيَّنُ بأنواع زينتها كما كانت تفعلُ في حياته، وتمضي تمكثُ على قبره باكيةً إلى الغروب!

قال الأصمعيُّ: فمررتُ أنا وصاحبٍ لي بالمقبرة فرأيتها على تلك الحالة، فقلنا لها: علامَ هذا الحزن الطويل؟

فأنشدتْ تقولُ:

فإن تسألاني فيمَ حزني فإنَّني

رهينة هذا القبرِ يا فتيَانِ

وإنِّي لأستحييه والتربُ بيننا

كما كنتُ أستحييه حين يراني

فعجبنا منها، ثم جلسنا بحيث لا ترانا لننظرَ ما تصنع، فأنشدتْ:

يا صاحبَ القبرِ من كان يؤنسني

وكان يُكثِرُ في الدُّنيا موالاتي

قد زرتُ قبركَ في حُليّ وفي حُللٍ

كأنّي لستُ من أهلِ المصيباتِ

لزمتُ ما كنتَ تهوى أن تراه وما

قد كنتَ تألفه من كلِّ هيآتي

فمن رآنِي رأى عبرى مولَّهةً

مشهورةَ الزِّيِّ بين أمواتِ!

ثم انصرفتْ، فتبعناها حتى عرفنا مكانها!

فلمَّا جئنا إلى الخليفة الرَّشيد، قال: حدثني بأعجب ما رأيتَ!

فأخبرته بأمر الجارية، فكتبَ إلى عامله على البصرة أن يمهرها عشرة آلاف درهم، وأن يُرسل بها إليه، ففعلَ.

وكانت في الطَّريق تدعو أن يُقيلها اللهَ من هذا الأمر، فمرضتْ، وأنهكها السَّقم، فتوفيتْ في المدائن، قبل أن تصل إلى الرّشيد!

وكان الرّشيدُ كلّما ذكرها بعد ذلك ذرفتْ عيناه!

هذه امرأة لم تكُن تصلحُ إلا لحبيبٍ واحدٍ!

ملكَ عليها قلبَها منذ نعومة أظافرها، فكبرتْ وحبُّه يكبرُ في قلبها حتى مَلَكَها!

فلما ماتَ أقامتْ على قبره بكامل زينتها على الهيئة التي كان يحبُّ أن يراها عليها، تندبُه طوال اليوم، وليس لها مكان في الحياة إلا على شفير قبره!

لم يكن بإمكانها أن ترفض الزَّواج من الخليفة، فهو نهاية المطاف الخليفة، وهو أرادها لِمَا سمعَ عنها وهو لا يعرفها، وهي لم تُرِده لِمَا في قلبها، فأخذتْ تدعو الله أن يميتها ولا تكون لغير حبيبها، فلاقتْ دعوتها استجابةً، وماتتْ وما مسَّها غيره!

امرأةٌ غيرها كانت لتطير فرحاً أنَّها ستكون زوجةً للخليفة، وتصبح السَّيدة الأولى للمجتمع، ولا عيب في هذا، فالحيُّ أبقى من الميت، ولكن بعض القلوب لا تنبضُ إلا

لشخصٍ واحدٍ، وبعض النّاسِ يصبحون بالحُبِّ كأنّهم كلُّ النّاس!

وحكى إبراهيمُ الموصليُّ قال: كان زَلْزَلُ كثيراً ما يصفُ بالحُسْنِ جاريةً عنده، فلمَّا ماتَ، وسمعتُ عرضَهَا للبيعِ، ركبتُ حتى دخلتُ عليها، فإذا هي جارية كاد الغزالُ أن يكونها لولا ما تمّ منها ونقصَ منه!

فسألتها أن تُغني، فأخذتِ العود وغنّتْ:

أقفرَ من أوتارِه العودُ

فالعودُ للأقفارِ معمودُ

وأوحشَ المزمارُ من صوتِه

فما له من بعدكَ تغريدُ

من للمزاميرِ ولذّاتها

وعارفُ اللذاتِ مفقودُ

فركبتُ إلى أمير المؤمنين فأعلمتُه بها، فأحضرَها، فلما رآها وقعتْ في قلبه،

فقال لها: هل لكِ أن أشتريكِ؟

فقالتْ: أمَّا إذا اشتريتني فلا خيرَ لكَ فِيَّ!

فرحمها، واشتراها، وأعتقها تقديراً لوفائها، وأجرى عليها راتباً!

وهذه قصّة كالتي قبلها، ما قيلَ هناك يُقال هنا، ولا داعي للإعادة، غير أنَّ الأولى كانت حُرَّةً وهذه مملوكة، والوفاء في حالها أعجب، وتُشبه ما قد حكيتُه لكَ نقلاً عن ابن حزمٍ رحمه الله في أوّل قصص هذا القانون!

ومن عجيبِ ما قرأتُ في هذا الباب أيضاً، أنَّ كسرى أبرويز ملك فارس ماتَ وتركَ خلفه جاريةً كانت حظيّة قلبه وهواه، وكانت هي كذلك تحبُّه وتهواه، فلما وُضعَ كسرى في نعشه، أراد ابنه أن يستأثرَ بالجارية لما كان يرى من حسنها وجمالها!

فأخبرها بهذا، فما أجابته، وإنَّما قامت إلى نعش كسرى، وأخرجت يده، وكان فيها خاتماً مسموماً لا يعلمُ أحد غيرها به، فمصّته، فوقعت ميتة!

فسبحان من خلقَ الحُبّ وجعل منه أعاجيبَ الحِكايات!

القانون 49: الجَمْعُ بين المُحبّين!

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: إنَّ الشّفاعة للعُشّاقِ فيما يجوز من الوِصال والتّلاقي، سُنّةٌ ماضيةٌ، وسَعيٌ مشكورٌ!

وأقولُ: كان الجمعُ بين المحبّين بالحلالِ عند العرب من مكارمِ الأخلاق، وكانوا يتسابقُون إليه، ولربما فرّغ الخليفة نفسَه من كلِّ شُؤونِ الحكم والسّياسة، واشتغل بتزويج أعرابيٍّ من أعرابيّةٍ لا يدري من يكونان، غير أنّ قصّتهما قد بلغته فعزَّ عليه ألا يجبر قلبين متحابّين!

وما زال اليوم من مكارم الأخلاقِ، وسيبقى كذلك حتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها!

كان الجمعُ بين المحبّين بالحلالِ عند العرب من مكارمِ الأخلاق، وكانوا يتسابقُون إليه، ولربما فرّغ الخليفة نفسَه من كلِّ شؤونِ الحكم والسّياسة، واشتغل بتزويج أعرابيٍّ من أعرابيّةٍ لا يدري من يكونان، غير أنّ قصّتهما قد بلغته فعزَّ عليه ألا يجبر قلبين متحابّين!

وما زال اليوم من مكارم الأخلاقِ، وسيبقى كذلك حتى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، ولابن القيّم في هذا السّياق كلامٌ يُكتبُ بماء الذّهب، يقولُ رحمه الله تعالى: إنّ الشّفاعة للعُشّاقِ فيما يجوز من الوصال والتّلاقي، سُنّةٌ ماضيةٌ، وسَعيٌ مشكورٌ!

في كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ، أنّ عمر بن أبي ربيعة خرجَ ليلةً يريدُ الطّواف، فرأى امرأةً ذات جمالٍ تطوف بالبيت الحرام، وإذا رجلٌ وراءها، كلّما رفعتْ رِجْلها وضع رِجله في موضع رِجْلها، فجعل عمر ينظرُ إلى هذا ويتعجّب!

ولمّا فرغت المرأة من الطّواف تبعها هذا الرّجل هُنيهةً ثم عاد، فوثبَ إليه عمر بن أبي ربيعة وقال لَه: واللهِ لتخبرني عن أمرك!

فقال: نعم، هذه المرأة التي رأيتَ ابنة عمّي وأنا لها عاشقٌ، وليس لي مالٌ فخطبتُها إلى عمّي فسألني من المهر ما لا أقدرُ عليه، فلمّا لم أجد عندي مهرها الذي طلبَ، ردّني ولم يُزوّجني! والذي رأيتَ منيّ هو حظّي منها ولا شيء غير ذلك، وما لي أمنية في الدّنيا غيرها!

فقال له عمر: ومن عمك؟

فقال: فلان ابن فلان.

فقال عمر: قُمْ فانطلِقْ معي!

فانطلقا معاً حتى أتيا والد الفتاة، فناداه عمر، فخرج إليه وقال له: ما حاجتُكَ يا أبا الخطّاب، وهي كُنية عمر بن أبي ربيعة!

فقال عمر: حاجتي أن تُزوّج ابنتكَ فلانة من ابن أخيك هذا، والمهر الذي طلبته مُساقٌ إليكَ من مالي أنا!

فقال الأبُ: قد فعلتُ!

فقال عمر: أحبُّ ألا أمضى حتى يجتمعا!

فقال الأبُ: لكَ هذا يا أبا الخطاب!

فلم يمضِ إلا والرَّجل قد أخذ بيد ابنةِ عمِّه ومضى بها إلى داره!

للهِ درُّ ابن أبي ربيعة الشَّاعر العاشق العذب، لا يعرفُ الشَّابَّ ولا يعرفُ الفتاة، وليس بينه وبينهما جوارٌ فيراعيه، ولا رحم فيصِلَها، غير أنَّه أعجبَ من شأن هذا الحُبِّ الذي يُحبُّه الفتى لابنة عمِّه، فاعتبرَ الأمرَ قضيَّته الشَّخصيَّة، فأخذ بيد الفتى، وأتى به إلى عمِّه، وخطبَ له ابنته منه، ودفع المهر من ماله، ولم يرضَ أن ينصرفَ حتى يجتمعا، وكان له الذي أرادا!

وهذا شأن القلوب الرَّحيمة، والنُّفوس العذبة، لا تُطيق فراق الأحبَّة، وترى الجمع بينهم خُلقاً حسناً ومكرمةً، فلا يزهدوا بها أبداً، فلا تزهد أنت أيضاً!

وروى الزَّمخشريُّ في كتابِه ربيع الأبرار أنَّ زُبيدة بنت أبي جعفرٍ قرأتْ في طريق مكَّة على حائطٍ:

أما في عبادِ اللهِ وفي إمائِه

كريمٌ يُجلِّي الهمَّ عن ذاهبِ العقلِ

له مُقلةٌ أمَّا المعآقي قريحة

وأمَّا الحشَا فالنَّارُ منه على رَجُلِ

فنذرتْ أن تحتالَ لقائلها، حتى تجمع بينه وبين من يُحبُّها!

فلما كانت بمزدلفة، إذ سمعتْ فتىً ينشد الأبيات، فاستدعته، وقالتْ له: أنتَ صاحب الأبيات على الجدار؟

قال: نعم يرحمكِ الله!

قالث: فمن هِي؟

فقال: ابنة عمِّي، وقد حلفَ أهلها ألَّا يزوِّجوني منها!

فأرسلت إلى أهلها فجاؤوا، ولم تزل تبذلُ لهم من المال، وترفعُ لهم من المهر، حتَّى زوَّجوه، فإذا المرأة أعشق من الرَّجل، وتريده أكثر مما يريدها!

وكانث زُبيدة تعدُّ عملها هذا من أعظمِ حسناتها، وتقولُ: ما أنا بشيءٍ أسرَّ مني بجمعي بين ذلك الفتى والفتاة!

يا لقلب زبيدة، زوجة الخليفة، حفرت الآبار في عرفة، وعبَّدتِ الطُّرقات في منى، وجعلت المضافات والطَّعام في مزدلفة، ويسَّرث حجَّ النَّاس، وترى أنَّ الجمع بين قلبين متحابين بالحلال أكبر حسنةً، وقربى إلى الله من كلِّ أعمالها العظيمة تلك!

كانوا يرون الأمرَ عبادةً، فانظُز إليه أنتَ على أنَّه كذلك!

وفي كتاب الأمالي لأبي علي القالي، كان رجلٌ بالكوفة يُدعى ليث بن زياد، وكان عنده جارية على أجمل ما تكون النِّساء، وكان لها عاشقاً، وكانت له كذلك، فعاشا على أحسن ما يكون العُشَّاق! ثم دارث الأيام وافتقر، فقالث له: الجارية: يا مولاي، لو بعتنِي كان أصلح لكَ مما أراكَ فيه، وإن كنتُ واللهِ لا أصبرُ على فراقك!

فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها، ويعرف جمالها وأدبها، فباعها بمئة ألف درهم، فلمَّا قبضَ المالَ، عاد إلى بيته، وأرسلها إليه، وجلس يبكي فراقها!

فلما صارت الجارية إلى سيِّدها الجديد، نزل بها من الوحشة والفقد لسيدها القديم ما لم تستطغ دفعه، فأنشدث تقول:

آتاني البَلا حقاً فما أنا صانعٌ

أمصطبرٌ للبينِ أمْ أنا جازِعُ

كفى حزناً أنِّي على مثل جمرةٍ

أقاسي نجومَ الليلِ والقلبُ نازعُ

فإن يمنعوني أن أموت بحبّه

فإنّي قتيلٌ والعيون دوامِعُ

فبلغ سيّدها الجديد قولها، فدعا بها، وأراد منها ما يريدُ الرَّجل من جاريته، فامتنعت عليه، وقالت له: يا سيِّدي، إنَّكَ لا تنتفعُ بي!

فقال: ولِمَ ذاك؟

قالت: لما بي!

فقال: وما بكِ، صفيه لي؟

فقالت: أجدُ في أحشائي نيراناً تتوقَّدُ، لا يقدر على إطفائها أحد، ولا تسأل عمَّا وراء ذلك!

فأشفقَ عليها، ورقَّ لها، وبعث إلى مولاها الأول فسأل عن خبره، فوجد عنده مثل الذي عندها، فأحضره، وردَّ الجارية عليه، ووهبَ له ثمنها الذي كان قد قبضَه منه!

للهِ هذه القلوب، وللهِ أصحابها، أنفقَ في شرائها مبلغاً كبيراً، ثمَّ لمَّا رأى هذا الحُبَّ في قلبها لسيِّدها الأول، لم يهُن عليه أن يُفرِّق بينهما، فأعادها إليه ولم يأخذ المال الذي أعطاه إياه، وهذا من مواقف النُّبل، ومكارم الأخلاق!

وإنيّ لأستغربُ من بعض الشَّبابِ أنَّه إذا أراد الخطبة، وأعجبته فتاة، فسأل عنها، وعرفَ أنَّ قلبها معلَّقٌ بغيره، فلا يمنعه ذلك من أن يأتيها خاطباً!

ولستُ أُناقش الأمر من زاوية الحلال والحرام، فهذا جائزٌ وحلالٌ بلا خلافٍ، وما شرعه الله فلا أحرِّمه أنا ولا غيري، وإنَّما بعض الحلال يُترك إذا ما تعارضَ مع مكارم الأخلاق، والتَّفريق بين الأحبة يتعارض مع مكارم الأخلاق، تماماً كما أن الجمع بينهم يتماشى معه!

وفي كتابِ ديوان الصَّبابة لابنِ أبي حجلة: كان عند رجلٍ نخَّاسٍ جاريةٌ غايةٌ في الجمال، وكان قد عزم على ألا يبيعها إلا بمبلغٍ كبير، فكان يعرضها في السّوق، فيتغالى النَّاس في ثمنها، ويتسابقون لشرائها، هذا يزيدُ في الثَّمن على ذاك، ولكنّه

كان يتمهَّلُ طمعاً في مبلغ أكبر!

وأحبَّ هذه الجارية رجلٌ فقير، وكاد عقله أن يذهب لما به من حُبِّها!

فلما علم النَّخاس بذلك، وهبها له من غير مالٍ!

فعاتبه النَّاس في ذلك، فقال لهم: إنِّي سمعتُ اللهَ يقول: «ومن أحياها فكأنَّما أحيا النَّاسَ جميعاً»!

أفلا أُحيي الناسَ جميعاً!

وهذه برأيي أنبل قصَّةٍ من بين ما أوردته في هذا الباب، والسَّبب برأيي أنَّ هذا الرَّجل نخَّاس، والعبيد تجارته، وهم بين يديه مالٌ أكثر مما هم بشرا!

والتَّاجر في كل زمانٍ ومكانٍ لا يعنيه شيءٌ غير تحقيق أكبر قدرٍ من الرِّبح! وكان هذا النَّخاس يعرفُ قيمة هذه الجارية، وكان قد عزمَ على تحقيق ربحٍ كبير من بيعها، وكان النَّاس يدفعون له المبالغ الطَّائلة فلم يبِعْها لأنَّه كان يرى أنَّها تستحقُّ مبلغاً أكبر!

ولكنَّه وهبَها لذلك الفقير من غير مالٍ، لِمَا علِمَ من حُبِّه لها، واحتمال ذهاب عقله إن لم تكن له، واعتبر في هذا قربى إلى الله، لأنَّ في اجتماع الجارية بهذا الفتى حياة له!

ومن يعرفُ عقليَّة التُّجار، وطريقة نظرتهم إلى الأمور، سيفهم بالضَّبط ما أقوله!

فهذا الرَّجلُ لو لم يكن صاحب الجارية، وعلمَ بحبِّ الفتى الفقير لها، فاشتراها ووهبها له، لكان ذلك تصرفاً نبيلاً لا شكَّ، ولكن أن يكون هو التَّاجر، فيهبها فهذا من أنبل ما يمكن أن تقرأه!

القانون 50: أجملُ الحُبّ ما كان عفيفاً!

يبقى الحبُّ كأنّه أحد العوامِ من النّاس، فإذا لبسَ تاجَ العِفّةِ غدا مَلِكاً مُتوّجا!

وكانت العربُ لا تعُدُّ العشقَ عشقاً إلا إذا كان عفيفاً، فإن لم يكن كذلك ألحقوه بالزّنى، وأنزلوه من رُتبة العشقِ إلى رُتبةِ السّفاح!

كانت العربُ لا تعُدُّ العشقَ عشقاً إلا إذا كان عفيفاً، فإن لم يكن كذلك ألحقوه بالزِّنى، وأنزلوه من رُتبة العشقِ إلى رُتبةِ السّفاح!

وفي كتاب نزهة المشتاقين لابنِ القيّم: قال بعض المدنيّين: كان الرّجلُ يُحِبُّ الفتاة، فيدور بدارها سنةً، يفرحُ أن يرى من يراها، فإن نالَ منها مجلساً، تشاكيا، وتناشدا الأشعار ولا شيء غير هذا! واليوم يشيرُ إليها، وتُشيرُ إليه، فيعدها وتعده، فإذا التقيا، لم يشكيا حُبًّا، ولم يُنشدا شعراً، وقام إليها، كأنّه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة!

وهذا في زمنهم، فماذا نقولُ عن زمننا، والله المستعان!

وفي كتاب ذمّ الهوى لابن الجوزيّ، قال الأصمعيّ: قيل لأعرابيّ: ما كنتَ صانعاً لو ظفرتَ بمن تهوى؟

فقال: كنتُ أمتِّعُ عيني من وجهها، وقلبي من حديثها، وأسترُ منها ما لا يُحبُّه اللهُ، ولا يرضى كشفه إلا عند حلِّه!

فقيل له: فإن خفتَ الا تجتمِعَا بعد ذلك؟

فقال: أصبرُ على حبِّها، ولا أصبرُ بقبيحِ ذلك الفعل إلى نقضِ عهدها!

للهِ درُّ العرب، واللهِ كانوا مدرسةً في الحُبّ، أصدقهم قلوباً، وأصفاهم سريرةً، ولا يصدرُ عنهم إلا ما يرفع مقامهم وتقديرهم حين تُروى سِيَرُهم!

وقال أبو الحسن المدائنيّ: هويَ بعض المسلمين جاريةً في مكّة، فأرادها، فامتنعت عليه، فقال على لسانِ عطاءِ بن أبي رباح تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما:

سألتُ عطا المكيّ هل من تعانُقٍ

وقُبلةِ مُشتاقِ الفؤاد جُناحُ؟

فقال: معاذَ اللهِ أن يُذهبَ التُّقى

تلاصقُ أكبادٍ بهنّ جراحُ!

فقالت له: سألتك باللهِ، هل سألتَ عطاءً عن ذلك؟

فقال: اللهُمّ نعم!

فقالت له وكانت تُحبُّه: لكَ هذا!

فزارته وجعلت تقولُ له: إيّاكَ أن تتعدّى ما أفتاكَ به عطاء!

وقد ظنَّتِ المحبوبة أنَّ حبيبها دعاها إلى ريبةٍ، فامتنعت من ذلك، فأخبرها أنَّه سأل عطاء ابن أبي رباح عن الضَّمةِ والقُبلة، فنهاه عن ذلك وزجرَه، وأخبره أنَّ التَّقارب لا يجب أن يُذهِبَ التَّقوى والخوف من اللهِ عزَّ وجلَّ!

ففهمت مراده، فالتقت به، وكانت تُذكرّه بفتوى عطاءٍ، فلم يكن بينهما إلا حديث الحُبِّ والشَّوقِ!

في كتابِ روضة المحبّين لابن القيّم، وذمِّ الهوى لابن الجوزيِّ، وتزيين الأسواق للأنطاكيِّ: قال عثمان بن الضَّحاك الحِزاميّ: خرجتُ أريدُ الحجَّ، فنزلتُ بالأبواء فإذا امرأة على باب خيمة، فأعجبني ما رأيتُ من حُسنها، فتمثّلتُ بقول الشَّاعر نُصَيب:

بزينبَ ألمِمْ قبلَ أن يرحلَ الرَّكبُ

وقُلْ إن تَمَلِّينا فما ملَّكِ القلبُ

فقالت: يا هذا، أتعرفُ قائل هذا الشِّعر؟

قلتُ: نعم، ذاك نُصيب!

قالت: أتعرفُ زينبه؟

قلتُ: لا!

فقالت: أنا زينبه!

فقلتُ: حيّاكِ الله!

فقالت: إنَّ اليوم موعده من عند أمير المؤمنين، خرج إليه عام أوّل، فوعدني هذا

اليوم، لعلّك لا تبرحُ حتى تراه!

فبينما أنا كذلك، إذا أنا براكبٍ، فقالت: أترى ذلك الرّاكب؟ إنّي لأحسبه إيّاه؟

فأقبلَ فإذا هو نُصيب، فنزلَ قريباً من الخيمة، ثم أقبل، فسلَّمَ حتى جلس قريباً منها يسألها، وتسأله أن ينشِدُ ما قال من شعره، فأنشدَهَا!

فقلتُ في نفسي: مُحبّانِ طال التّنائي بينهما، لا بُدّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمتُ إلى بعيري لأمضي!

فقال: على مهلك، إنّي معكَ ماضٍ!

فجلستُ قليلاً، فنهضَ، وسرنا معاً، فتحادثنا، ثم التفتَ إليّ، فقال لي: أقُلتَ في نفسك: محبّانِ التقيا بعد طول تناءٍ، فلا بُدّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبِه حاجة؟

فقلتُ: نعم، قد كان ذلك!

فقال: وربِّ الكعبةِ ما جلستُ من زينب مجلساً أقرب من هذا!

أرأيتَ كيف كان عشقهم، وكيف كانت عفّتهم إذا عشقوا!

العربُ كلُّها تعرفُ حُبَّ نُصيبٍ لزينب، ويحفظون شعره فيها، وها هو قد غاب عنها مدّةً طويلةً، فلمّا التقيا فلا عناقَ ولا قُبلاتٍ، ولا أحضانَ ولا لثمَ! ولا حتّى صافحها، إنّما جلس قريباً منها بحيث يكون بينهما مسافة، فحدّثها وحدّثته، وسألها عن حالها، وسألته عن حاله، وطلبتْ منه أن يُنشِدَ لها شعراً كان قد قاله في غيابه عنها ففعل!

وعندما ظنّ راوي القصة أنّ هذه العفة بسبب جلوسه، وأراد أن ينصرف عنهما ليأخذا راحتهما كما نقول بالدّارج، استمهله نُصيب، وأخبره أنّه ماضٍ معه، وحدّثه أنّه برغم كل الحُبّ بينهما، ما جلس منها يوماً مجلساً أقرب من هذا!

وفي كتاب ذمّ الهوى لابنِ الجوزيّ، وروضة المحبّين لابن القيّم: قال عبدُ الملكِ بن مروان لليلى الأخيليّة: باللهِ عليكِ هل كان بينكِ وبين توبة بن الحُميّر سوءٌ قط؟

فقالت: والذي ذهبَ بنفسه، وهو قادرٌ على أن يذهبَ بنفسي، ما كان بيني وبينه

سوءٍ قط، إلا أنه قدِمَ من سفرٍ، فصافحته، فغمزَ يدي، فظننتُ أنه يخنعُ لبعض الأمر!

فقال لها عبد الملكِ بن مروان: فما معنى قولكِ:

وذي حاجةٍ قلنَا لا تبُح بها

فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ

لنا صاحِبٌ لا ينبغي أن نخُونَه

وأنتَ لأخرى صاحبٌ وخليلُ!

فقالت: لا والذي ذهبَ بنفسِه ما كلّمني بسوءٍ قط حتى فرّق الموتُ بيني وبينه!

ليلى الأخيليَّة وتوبة بن الحُميِّر اثنان من أشهر عُشّاقِ العرب، كان هو متزوّجاً، وهي كذلك، فالتقيا فأحبَّها، وكان حبُّهما حديث الصَّحراء، ولم يكن بينهما طوال السّنوات إلا مصافحة واحدة باليد، شدَّ هو على يدها في هذه المصافحة، وظنّت أنه سيخلِفُ بوعد العفَّة، فإذا هو لا يريدُ منها غير هذا، وما شدَّ على يدها إلا من الشّوقِ الذي كابده في غيابها، كانت هذه المصافحة بمثابةِ عناقٍ!

وهي وإن لم تملك قلبهَا فأحبّته، إلا أنّها تملكُ جسدها، فلم تعطِه من هذا شيئاً، وكانت تُنشِده ما معناه أنَّها متزوجةٌ فلا تخونُ زوجَها، وأنَّه متزوجٌ فلا يجب أن يخون زوجتَه! وهذا ليس إلا من باب التَّذكيرِ فقط، وإلا فإنك قد رأيتَ أنَّهما ما كان بينهما غير هذه المصافحة!

وفي كتاب اعتلال القلوب للخرائطيّ: قال الخليل بن أحمد: بينما أنا أطوفُ بالبيت، إذ رأيتُ امرأةً متبرقعةً، تطوفُ بالكعبة، وتقولُ:

لا يقبَلُ اللهُ من معشوقةٍ عملاً

يوماً وعاشِقُها غضبَانُ مهجُورُ

ليستْ بمأجورةٍ في قتلِ عاشِقها

لكنَّ عاشقها في ذاكَ مأجورُ

فقلتُ لها: يرحمكِ الله، أفي هذا الموضع؟!

فقالتْ: إليكَ عنّي، لا يعلّقكَ الحبُّ!

فقلتُ: وما الحبُّ؟

فقالتْ: جلَّ واللهِ عن أن يخفى، وخفيَ عن أن يُرى، فهو كالنّارِ في أحجارها، إن حرّكته أورى، وإن تركته توارى، ثم أنشدتْ:

غيدٌ أوانِسُ ما هممنَ بريبةٍ

كظباءِ مكّة صيدُهُنَّ حرامُ

يُحسبنَ من لينِ الحديثِ أوانساً

ويصُدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ!

لخصَّتْ لكَ هذه المرأة حالَ نساءِ العرب مع الحُبِّ، عاشقات للشِّعر، يطربنَ لبيتِ الغزل، ويفتنهُنَّ رقيق البيان، يسمعنَ الشّعر في الحُبِّ، ويقُلْنَ الشّعر في الحُبِّ أيضاً، فإذا سمعهُنَّ من لا يعرفهُنَّ، ظنَّ أنهُنَّ سهلات المَنَال، ولكنهنَّ في الحقيقة كظباءِ مكّة صيدهُنَّ حرامُ!

لهُنَّ قلوبُ العاشقاتِ، وعلى أجسادهنَّ أقفالُ العفَّةِ التي جاء بها الإسلام!

فتشبّهوا، فإنّكم بقيّةُ هؤلاء القوم!

وفي كتاب روضة المحبّين لابنِ القيّم، قال الزُّبير بن بكّارٍ، عن عبّاس بن سهلٍ السّاعديّ، قال: بينما أنا بالشّام، إذ لقيني رجلٌ من أصحابي، فقال: هل لكَ في جميل بن معمَّرٍ نعوده؟

فدخلنا عليه فإذا هو على فراشِ الموت يجودُ بنفسه، فنظرَ إليّ وقال: يا ابن سهلٍ، ما تقولُ في رجلٍ لم يشرب الخمر قط، ولم يزنِ، ولم يقتل نفساً، ويشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله؟

فقلتُ: أظنُّه قد نجا، وأرجو له الجنَّة، فمن الرَّجل؟

قال: أنا!

فقلتُ: واللهِ ما أحسبُكَ سلمتَ وأنتَ تتغزَّلُ ببثينة منذ عشرين سنة!

فقال: لا نالتنِي شفاعة محمَّدٍ ﷺ يوم القيامة إن كنتُ قد وضعتُ يدي عليها لريبةٍ، وما أكذبُ فإنِّي في آخر يومٍ لي في الدُّنيا، وأوَّلِ يومٍ لي في الآخرة!

فلم نقُمْ من عنده، حتى تشهَّدَ ومات!

هذا جميلٌ الذي ملأ صحراء العربِ شعراً يتغزَّلُ فيه ببثينة، شِعرٌ حفظه النَّاسُ وتناقلوه، وقد كان عفيفاً، لم يلمسها قط، وكلُّ الذي قاله إنَّما هو حديثُ قلبٍ، وزفرة مشتاقٍ، ولوعة حبيب!

كانوا أنقى ممَّا لكَ أن تتخيَّلَ، كانوا يحبُّون حقاً!

وحال جميل بن معمَّرٍ، هو حال شاعرِ الغزل العذبِ عمر بن أبي ربيعة أيضاً، ففي كتاب اعتلال القلوب للخرائطيِّ: لمَّا حضرتْ عمر بن أبي ربيعة الوفاة، بكى عليه أخوه الحارث!

فأخذ عمر يستغفرُ، فقال له الحارث: أبعدَ كلِّ الذي كان منكَ؟

فقال له عمر: إن كان أسفُكَ ما سمعتَ من قولي: قلتُ لها، وقالتْ لي، فو اللهِ ما هو إلا قريحة شاعر!

ثم مسكَ إزاره وقال: واللهِ ما فككْتُه على حرامٍ قط!

هؤلاء هم الشُّعراء الذي ملأوا الدُّنيا بشعر الغزل، وهذه هي عفَّتُهم، وهكذا كان حبُّهم، وهذا دأب الشُّعراء دوماً، يصدقُ فيهم قول ربهم: «في كلِّ وادٍ يهيمُون، وأنَّهم يقولُون ما لا يفعلون»!

وفي كتاب ذمِّ الهوى لابنِ الجوزيِّ: دخلتْ يوماً عَزَّةُ على أمِّ البنين أخت عمر بن عبد العزيز، فقالتْ لها: يا عزَّة، ما قول كُثَيِّرٍ:

قضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غريمه

وعَزَّة ممطولٌ مُعنًى غريمُها

فما كان هذا الدَّين؟

فقالت عزَّة: كنتُ قد وعدته بقبلةٍ، ثم تحرَّجتُ منها!

فقالت لها أمُّ البنين: أنجزيها وعليّ إثمها!

فأعتقت أمُّ البنين لكلمتها هذه أربعين عبداً! وكانت إذا تذكرتْ قولها بكت، وقالت: ليتني خرستُ يومها ولم أتكلَّم بها!

وهذان عَزَّة وكُثيِّرُ أيضاً، اثنان من أشهر عُشَّاق العرب، وهذا كلُّ الذي بينهما، وعدٌ بقبلةٍ!

وانظُرْ لعفَّةِ أمِّ البنين هي الأخرى، تعاطفتْ مع الحبيب، وقالت كلمةً في لحظة تسرُّعٍ، أعتقتْ لأجلها العبيد، وكانت إذا تذكَّرتْها تبكي منها!

فللهِ درُّ قلوبِهم، ولله درُّ عفَّتِهم!

ولو أردتُ أن أروي لكَ كل ما قرأته في هذا الباب من عفَّة المحبين لجعلتُ ذلك كتاباً وحده! فما أجمل القصص وما أكثرها، وإنَّما تخيرَّتُ لك، أحسبُ أنَّ ما اخترته تصِلُ به الفكرة، ويتَّضِحُ به المفهوم، وأختمُ لكَ هذا الباب، ومعه هذا الكتاب الذي منَّ اللهُ تعالى عليَّ بتمامه، بما أورده ابنُ حزمٍ في كتابه طوقِ الحمامةِ حيث قال:

حدَّثني أبو موسى الطَّبيب قال: رأيتُ شاباً من أهلِ قرطبة، حسن الوجه، كان قد انقطع للعبادة، وكان له أخٌ في اللهِ قد سقطت بينهما الكلفة، فزاره ذات يومٍ، وعزم على المبيت عنده، فاستجدَّتْ لصاحبِ المنزل حاجةٌ، فخرجَ على أن يرجع مسرِعاً، وتركَ صاحبه في البيت مع امرأته، وكانت غايةً في الجمال، ورفيقةً لهذا الفتى في الصِّبا، وكانت تُعجبه ويعجبها! فأطالَ صاحبُ البيت المكوث، وانصرفَ العَسَسُ من الطَّريقِ فلم يتمكَّنْ من العودة إلى منزله!

فلما علمت المرأة بفوات الوقت، وأنَّ زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة، تاقتْ

نفسها إلى ذلك الفتى، فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله تعالى!

فهمَّ بها، ثمّ عاد إلى عقله ودينه، وفكّر في اللهِ عزّ وجل، فوضعَ إصبعه على السّراج حتى شُويت، ثم قال: يا نفسُ، ذوقي هذا، وأين هذا من حرّ جهنّم!

ففزعت المرأة مما رأت، ثم عاودته تعرضُ نفسَها عليه، فعاودتِ الشّاب الشّهوةُ المركّبةُ في الإنسان، فعاد وأحرقَ إصبعاً آخر، ولم يزل كذلك حتى أحرق أصابعه كلّها، وانبلج الصّباحُ، وعاد الزّوجُ، وعصمه الله!

وهنا قمّةُ العفّة، فالبطولة لا حين يلتقِي عفيفان، فإنّه إن مالَ أحدهما أقامَه الآخر! وإنّما البطولة حين يلتقي العفيفُ بغيرِ العفيفِ، فإنّه يدعوه ويُزيِّن له، ويُريه الأمرَ يسيراً!

وهي امرأةٌ غايةٌ في الجمال، وهو شابٌ في مقتبلِ العمرِ يتفجّرُ جسده بالشّهوة، وفوق هذا وذاك، له في قلبها مكانة، ولها في قلبه من أثر الصّبا شيءٌ من هذا! ولكنّه راقبَ الله تعالى، وأحرقَ أصابعه واحداً تلو الآخر يُذكر نفسَه بحَرِّ جهنّم!

فللهِ هذا الفتى، وللهِ أمثاله من الرِّجال والنِّساء، وهل العفّةُ إلا لمن كانت له شهوةٌ يكابدها ويصطلي بنارها، فإنَّ العنينَ الذي انطفأتْ شهوتُه لا يشتهي ولا يرنو إلى ما لا يقدر عليه، وصدقَ أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: إنَّ الذين يشتهُون المعصيةَ ولا يعملون بها، أولئكَ الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتّقوى!

Telegram:@mbooks90